

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



إبراهيم نصر الله

حرب الكلب الثانية

رواية



115

حَرْبُ الكِلَابِ الثَّانِيَة

كانت البلد قد استسلمت لتلك القاعدة التي يمكن وصفها بالفاشية: من ليس معي فهو ضدّي، لا بعبقريتها، ولكن باعتبارها جزءًا من هذا العالم المحيط بها، العالم الذي غدا أشبه بقرْبةٍ، وليس بقريةٍ، كلّما تمّ إغلاق أحد ثقوبها انفتح اثنان سواه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى:

2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-2026-6

DOG WAR II ♦ IBRAHIM NASRALLAH



إبراهيم نصرالله

حرب الكلب الثانية

.. وهل خطر ببالك

أننا مجرّد مرايا للمرايا التي نحدق فيها؟

رواية

115



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

ولكي أصدِّق ما يدور
أرسلتُ بعض حوادثه إلى الماضي
وبعضها إلى المستقبل
فـ ... أنتَ في
الماضي والمستقبل
أكثر مما أنتَ في
الحاضر!

ميهاربا هللارصن (حكيم أندونيسي)
كتاب: (أضلاع الحكمة الناقصة)

مقدمة قد تُحذف!

على نحو متسارع، بدأ النهار يقصر بطريقة غير مفهومة، وبمرور أقل من عشر سنوات، لم يعد طول النهار أكثر من خمس ساعات. تزايدت معدلات نفوق الطيور والحيوانات، وانحدر مستوى إنتاج الخُضَر والفواكه والحبوب، وعاد الأغنياء إلى داخل المدن، تاركين قصورهم وبيوتهم الفخمة في الضواحي بسبب انتشار

الفــوضى ..

اختلطت الفصول، بحيث تجمّعت في فصل واحد طويل، في وقت بدا فيه أن خلاص العالم لن يحدث إلا بانضمام ما تبقى من دول إلى اتفاقية

إلغاء الماضي

وفي ضوء شحّ الموارد التجأ العلماء للإفادة من إنجازات علم الاستنساخ، فاعتمدوا فكرة تكاثر الخلايا، أو

التــكاثر بالنسخ

لتوفير الحاجات الضرورية لاستمرار الحياة، في وقت احتكرت فيه القوى الكبرى، تقنيات الضوء،

بحيث تجسدت الفكرة الأسطورية القديمة عن عالمَي

الظـلام والنــور

وفي ظلّ ضعف

الحكــومات

تولّت السيطرة على سير الحياة في البلاد

وإدارة شؤونها مباشرة ما

باتت تعرف باسم:

القــلاع

مقدمات الحرب

هل أنت مجنون لتشاهد فيلمًا كهذا؟!

فيلم وثائقي

رغم حذره الشديد، وقع السيد راشد في المصيدة، ورغم ذكائه الحادّ، لم يستطع أن يعرف إن كان الأمر كلّه مجرد فخ وقع فيه، أم أن الفيلم الذي حصل عليه من ذلك الشخص القريب منه، والذي لا يشك في إخلاصه، كان مراقبا إلكترونيًا، بحيث تمَّ الإطباق عليه مُتلبِّسًا، وهو يتابع أكثر المشاهد خطورة فيه.

لقد رأته أمّه يشاهد ذلك الفيلم، ومثل كلّ أمٍّ ترى بعين قلبها في جميع الأزمنة، أحسّتْ في الحال بأنه على وشك الضياع، صرخت: هل أنت مجنون لتشاهد فيلمًا كهذا؟!

***

ذلك الرفيق الذي دسّ في يده رقاقة صغيرة، قال له: عليك أن تشاهد هذا الفيلم بدقة، وبانتباه شديد. نحن بحاجة لملاحظاتك، بحاجة لأن نصل إلى فهم عميق يؤهلنا للنجاة من أيّ حرب قادمة مثل تلك التي وقعتْ والتهمتْ من البشر ما التهمت.

- إنك تخيفني.

- لا، أنا لا أخيفك، فالفيلم الوثائقي الذي ستراه، عن الماضي، وأنت تعرف أن القليل القليل من الأشياء المتعلقة بالماضي يمكن الوصول إليها هذه الأيام، وتعرفُ عقوبة من يخفيها.

- إنه فيلم حربيّ إذًا.

- لا، إنه فيلم عن مقدمات الحرب التي طحنتنا.

- حرب الكلب؟!

- أجل، حرب الكلب، التي لو لم تقع، لما تمَّ وضع سلسلة القوانين الرّامية لمحو الماضي، بعد أن توصّل الحكماء إلى حكمة جديدة تقول: إن الإنسان لا يتعلم من أخطائه، وإن فناءه لا بدّ سيحدث ما دام مصرًّا إلى هذا الحدّ على تكرارها.. أعني الأخطاء.

- ولكن لماذا أشاهده أنا بالذات؟!

- لأنك نبيهٌ إلى ذلك الحدّ الذي لا يمكن أن تسمح لنفسك أو لغيرك بتكرار الأخطاء التي ستشاهدها.

- تعني أنك تثق بي إلى درجة الإيمان بأنني لا يمكن أن أكون سببًا في اشتعال حرب؟ قال راشد ذلك وهو يبتسم.

- لهذا نضع بين يديك هذا الماضي.

- وما الذي أفعله به بعد أن أشاهده؟

- تتلف الشريحة.

- ولكن قد يتعلّم منه غيري فيما بعد.

- فقط أتلفْها، وتأكّد من ذلك كي لا يتمكن أحد من استعادة أي جزء من الذاكرة.

***

أشرع راشد الباب، باب شقته. لم تكن هناك سوى عتمة بيت الدّرج. عبثا راح يحدّق، لكن رؤية شيء متحرّك أو متربّص يراقب البيت، كانت أمرًا مستحيلًا.

- الطريق سالكة.

انحدر رفيقه نحو ظلام قاع بئر الدَّرج بسرعة، لكن ذلك لم يبعث القلق في قلب راشد، فهو يعرف أن الناس قد طوّروا حواسّهم بحيث باتوا أكثر قدرة على الاستشعار، والرؤية، وإن لم يكونوا بعد، باستثناء فئة قليلة،

قد وصلوا إلى قدرة طائر البُوم على الإبصار ليلًا، والخفّاش على الطيران في أكثر الكهوف والسماوات حلكة.

بمجرد أن سمع باب البناية يُفتح ويُغلق، أغلق راشد الباب ومضى نحو أضيق شبابيك الشقة المطلّة على الشارع. لم يكن هناك سوى الظلام المتدفّق كشلال من شرفات العمارات المقابلة.

***

حين بدأ بالمشاهدة، كان راشد راضيًا عن نفسه، وعن صورته في عيون الرّفاق، ومن جاورهم، فقد كان دائما رجل الحدود القصوى، الذي لا يتهاون في شيء؛ أو رجل المبادئ، الرّجل الحديدي؛ بحيث وصفه خصومه قبل أصدقائه، بأنه من سلالة أولئك القادة الذين لا توجد كلمة (مساومة) في قاموسهم.

بدأ الفيلم بطيئًا، فالغرض الأول من إنتاجه، على ما يبدو، كان تعليميًّا. كان الحديث الطويل عن علامات ما قبل حرب الكلب، لمن لا يدرك الأمر، مسائل بسيطة، بل عابرة، لكنها لم تكن كذلك، فلا أحد يعرف كيف يُراكم العقل البشري مشاهد العنف ويجمّعها يومًا بعد يوم إلى أن تصبح شرارات قاتلة قادرة على إشعال الحروب: كأن يُطلق أحدهم النار على الآخر، أو يسحله في الشارع العام، بسبب الاختلاف على أولوية المرور، أو الحصول على علامة غير مُرضية في امتحان جامعي أو مدرسيّ، أو معركة بسبب وقوع طالبة في حبِّ طالب آخر، أو نشوب شجار، ينتهي بجريمة قتل، بين صديقين، لإصرار كلّ منهما على أن يدفع الحساب بعد العشاء الطيب الذي تناولاه معًا، أو ضبط أستاذ جامعي يحاول سرقة المياه الملوثة من خزانات جيرانه، لشحّ المياه، أو سقوط عشرين جريحًا في مشاجرة جماعية نتيجة الرغبة الغريبة من أفراد إحدى العائلات في أن يقفوا هُم، لا سواهم، في الصفّ الأول لصلاة الجماعة! أما أكثر الحوادث الدموية شيوعًا فهي تبادل نظرات، غير مقصودة غالبًا، تنتهي بسؤال: ألَا

أُعجبك؟! ومع أن كثيرًا من أصحاب النظرات قد يكونون معجبين بالآخرين الذين نظروا إليهم، إلّا أنهم لسبب غامض، لا تعرفه سوى الشياطين، كانوا يردّون دائمًا: لا، لا تعجبني! فينتهي الأمر إلى مذبحة صغيرة، قد يكون الشيطان فيها محظوظًا فتتسع، لكنها لن تصل إلى مستوى حرب الكلب الثانية؛ تلك الحرب التي ستكون بداياتها الفعلية في عدد من الحوادث الغريبة، وصولا إلى لحظة اشتعالها لأسباب لا يمكن لصاحب عقل أن يتوقّعها!

***

كان الفيلم قد استعرض تلك الأحداث اليومية، وراح يعرض حوادث أكثر خطورة، عن كبار المسؤولين الذين اندفعوا يقلدون الشعب، مثل قيام أحد نواب الشعب بإشهار مسدسه داخل أستوديو تلفزيوني، وعلى الهواء مباشرة، في وجه زميل له، بسبب الاختلاف في وجهات النظر. وقد استطاع مخرج البرنامج أن يتحرّك، في الحلقة التالية، مستفيدًا مما حصل، فأحضر حمارين إلى الأستوديو وأجرى حوارًا مستفيضًا معهما، لم يتخلله سوى نهيق متقطّع من أحدهما، لم يفهمه الحمار الآخر كشكل من أشكال قلّة الأدب أو الاستفزاز أو التّطاول، وهكذا لم تشهد الحلقة، التي تابعها كثير من الناس باهتمام، أيّ هياج، كأن يتحوّل الحماران إلى كائنين عضّاضين أو رمّاحين، أيّ يستخدم كلّ منهما رجليه مجتمعتين للانقضاض على ابن سلالته، أو سواه، وتلك صفة غير مستحبة قلّلت من شأن وقيمة كل حيوان ظهرت عليه طباع كهذه.

***

كان راشد قد أنهى النصف الأول من فيلم الكوارث هذا، وحين وصل إلى ذلك الجزء المتعلّق بقيام نائب باستخدام دبابة لقصف مجلس الأمة المنعقد، بعد خلاف مع زميل له، طارت أبواب شقة راشد ونوافذها في فضاء الغرفة، وقبل أن تحطّ، كان آخر شيء رآه هو ذلك الدّخان المنبعث من فوهة مدفع دبابة النائب بعد إطلاق القذيفة.

وجد راشد نفسه مشلولا، ملقى على الأرض، متسائلا وهو في حالة من التشوش الشديد: كيف خرجت القذيفة من الفيلم وفجّرت الشّقة؟! وكان عليه أن يبقى على هذا الحال طويلا، قبل أن يتذكر أنه لا يملك جهاز تلفزيون متطوّرًا إلى هذا الحدّ، ولم يستعدْ وعيه إلّا في أول جلسة تعذيب.

بالطبع، كثير مَن الذين يعيشون هذه الأيام المظلمة، لم يسمعوا بتلك التفاصيل، ولذا كان لا بدّ من الحديث عنها بإيجاز، رغم الخطورة المترتبة على حديث كهذا، أو رواية كهذه، يمكنني القول: من هنا بدأتْ.

عن الطرفة والمأساة

مائة حكاية قديمة لا تنزع منك الرغبة في سماع حكاية جديدة.

عن الطرفة والمأساة

كلّ حرب تبدأ بطلقة، أيًّا كان حجم الطلقة..
أحيانا يمكن أن تبدأ بطلقة طائشة.

ليس هناك شكّ في أنّ كثيرين، في العصور الحديثة، قالوا هذا الكلام ونسبوه لأنفسهم، وربما قاله محارب قديم قبلهم: كلّ حرب تبدأ بسهم، أو بضربة سيف، أو بطعنة خنجر، أو بهراوة من مخلفات هيكل عظمي لثور أو ديناصور.

لكن الحروب حروب في النهاية، ولا تخلّف سوى الدمار والموت، هذا إذا ما استثنينا الحرب بين هولندا وجزر سيلي، الواقعة على بعد 40 كيلو مترًا من الساحل الجنوبي الغربي للملكة المتحدة، والتي استمرّت 335 عامًا(1651—1986)، وانتهت بتوقيع اتفاقية سلام.

كانت تلك أطول حروب التاريخ، لكنها، للمفارقة، لم تخلّف أيّ ضحايا على الإطلاق، ولذا ننظر إليها اليوم باعتبارها طُرفة!

لكن، وبعيدًا عن الحروب، فإن كثيرًا من المآسي تبدأ بطُرْفة، أو هكذا نعتقد، وليس هناك شكّ في أن كثيرين قالوا هذا الكلام أيضًا، لكنهم بالتأكيد كانوا أخفّ ظلًّا من بطل تلك الطّرفة، لا لشيء إلّا لأنه لم يكن يدرك لحظتها أن المأساة التي تسبب في وقوعها ستتحوّل إلى طرفة.

***

السيد راشد مدير (مستشفى الأمان)، وهو مستشفى كبير وناجح، في أفضل أحياء العاصمة، تورّط في حبّ مجنون مع سكرتيرته منذ اليوم الأول

الذي تمّ فيه تعيينه مديرًا. خبراته الواسعة في خمسة مستشفيات، وعمله لفترة طويلة بوظيفة استحدثها بنفسه: راعي أسرى الأمل؛ كل تلك الخبرات أهّلته لأن يحتلّ مركز المدير في ذلك المستشفى الشهير.

لم يلاحظ راشد أن كل مَن في المستشفى، بمن فيهم أطباء التخدير، اكتشفوا عاصفة الحبّ تلك، بل إعصار الحب الذي كان يقلب غرفة الراحة المُلحقة بمكتبه الخاص رأسًا على عقب في فترة الغداء على وجه الخصوص.

أظننا قفزنا كثيرًا نحو المستقبل، بحديثنا عن السكرتيرة قبل أن نتحدث عن الزوجة، ولن يغفر لنا ذلك إلا قوة حكاية السكرتيرة وأثرها في أحداث هذه الرواية..

نعود للوراء!

***

على الرغم من أن راشد بدأ حياته ملتزمًا بقضايا البشر، ليس في وطنه فقط، بل في كلّ البلدان، إلا أن التغيّرات الكثيرة التي عصفت بالعالم، وشبْه الإجماع البشري على إلغاء الماضي وذاكرته السوداء، بما يعنيه ذلك من انقلاب كونيّ للمرة الأولى في المعتقدات، جعلته يُقنع نفسه، خلال وجوده في السجن، بعد حادثة الفيلم، بأن تجد لها، ونعني نفسه، مكانًا في هذا العالم الجديد. وقد حرص على شيء وحيد، هو أن لا يخضع لرجال القلعة حتى لو قتلوه، أو بعبارة متداولة أكثر: أن يخرج برأس مرفوع، كمكافأة نهاية خدمة يقدِّمها باعتزاز لنفسه، تؤهله أن يعيش، مستقبلا، بضمير مرتاح.

(كل شيء يباع! المقاعد والأسطوانات..) (مقطع من اغنية احبها)

أول شيء فعله، بعد أن اطمأن إلى أنه ودّع ماضيه دون الإحساس بأي شكل من أشكال العار الذي يلحق بأولئك الذين يغيّرون قناعاتهم! تقدُّمه لطلب يد شقيقة ضابط طموح يعمل في (القلعة)، أقوى سلطة موجودة في البلد، أيّ بلد في العالم الثالث، وما فوقه من عوالم، وما تحته أيضًا، في

زمن باتت فيه (القلاع) هي التي تتحكّم في كلّ كبيرة وصغيرة -كما أشرتُ في المقدمة التي قد تُحذف- وأصبح الرؤساء والملوك والأمراء والأباطرة من مظاهر الماضي.

لكن الطُرفة ليست هنا.

كان لا بدَّ للقلعة، ببصرها الحادّ وبصيرتها الشاسعة، من أن تعلم بالأمر، حتى لو لم يتقدّم شقيق الفتاة المبتغاة بتقرير لمسؤوله. فالأمر يثير الرّيبة، لاسيما أن الشقيق نفسه، كان مكلَّفا بمراقبة راشد، بعد أن كان مكلّفًا بإشباع نهمِ عِصيِّه من لحمِهِ.

أول ما خطر للضابط -وهذه يمكن أن نعتبرها طرفة، مع أنها ليست الطرفة التي نعنيها- أن راشد قد قرر أن يكون حصان طروادة الذي ستستخدمه فلول المعارضة في استعادة نفسها واقتحام القلعة.

كان اسم القلعة قد أطلقه العامة على ذلك المبنى الغامض، فاستهوى الاسمُ ضبّاط القلعة ومنتسبيها، كبارًا وصغارًا، فبدأوا يردّدونه، وقد أدركوا أيّ وقْع مرعب للاسم في نفوس البشر، وما إن حلَّ عصر الظلام حتى تضاعفت قوة الاسم وغموضه.

***

اجتماعات كثيرة عُقدت لتحليل طلب يد الشقيقة، حضرها رجال سرّيّون وعلنيّون؛ ولا يأتي هذا الكلام على سبيل السخرية، فقد كان الأمر محيّرًا، بخاصة أن راشد صاحب موقف يحترمونه، وهو الرجل الحديديّ الأكثر أصولية في البلد، فقد دخل أقبية القلعة أبيض وخرج أكثر بياضًا، دون أن يعترف لهم بشيء. وحين يصفون الأمر بالأبيض، فلأن المحقّقين والعاملين في هذا السِّلك الحسّاس، يحترمون في قرارة أنفسهم المواقف الصُّلبة، لأن كثيرين منهم ينحدرون من سلالات تتفاخر بالشرف والكرامة، وتتحدّث باستمرار عن الرجال، ومن أيّ المعادن صُنِعوا. لكن ذلك كلّه بالطبع، لم يمنعهم من أن يكونوا محقّقين ومعذِّبين وهاتكي أسرار

ومبتزّين وقوّادين ومراودي نساءٍ على أعراضهنَّ مستغلّين أوضاعهنَّ الصعبة أو أوضاع أخوتهنّ وأزواجهنّ وأولادهنّ الذين في ضيافتهم!

رغم هذا كلّه، هم يُقدِّرون الذي يصمد، ويقولون: الحقير! لقد كان شجاعًا أكثر مما نعتقد! أو: تخيّلوا هذا المارق المُندسّ، لقد انهرْنا ونحن نعذبه ولم يقل: آخ! أو: ابن كلب حقيقيّ، ولكنه رجل!

وهذه ليست طرفة، لأنها مأساة من وجهة نظرهم.

***

تم استدعاء راشد لمعرفة ما وراء طلب يد الفتاة. كانت السيارة التي يقودها تعلو وتهبط فوق غربان وطيور تتساقط نافقة مع تحوّلات الطقس الحادّة، في وقت كانت فيه صهاريج وزارة الصحة الضخمة تنفث في الهواء أبخرة طبية للسيطرة على رائحة العفونة -التي تحوّلت إلى اسم جديد للهواء!- وللوقاية من نوبات السّعال. وصل باب القلعة في الموعد المحدّد، ولأنهم كانوا يضعون في اعتبارهم أنه قد يصبح نسيبهم، فقد كانت الجلسة مخصّصة للحوار، لا للتّعذيب.

راشد بدا مُقْنِعا لهم، ولكن غامضًا، لا بسبب دهائه فقط، بل لأن الموقف كلّه كان كذلك، إذ لم يسبق لهم أن اضطرُّوا مجتمعين في أيّ يوم للتحقيق مع أحد المشبوهين دفعة واحدة.

ما أفرحه، وجعله نصف مبتسم طوال الوقت، تخيّله أنهم هم من جاؤوا لطلب يده، مع أن ما يحدث هو العكس!

بالطبع، تصرَّفَ راشد ببراءة مُحكمة، حين قال: لا أعرف لماذا تهمّكم هذه الفتاة بالذات، فهي في النهاية ليست ابنة ... أو شقيقته! وقد ترك ثلاث نقاط، والأدقّ: ثلاث ثوان من الصمت، في حديثة، بحيث فهموا الأمر. فأوشك أحدهم أن يصيح به: اخرس.. إياك أن تتطاول أيها ....

لعبتُهُ أنه لم يجعلهم يحسّون أنه على علْم بطبيعة عمل شقيق العروس.

الشيء الوحيد الذي حيّرهم، هو تأكيده أنه لم ير الفتاة من قبل، وكل ما

في الأمر أنه سمع أنها فتاة لطيفة ومؤدبة وابنة عائلة محترمة. فأوشك أحدهم أن يسأل السؤال التقليدي لأي محقق: من أخبرك بهذا؟
لم يسأل.

***

في الاجتماع الذي أعقب خروج راشد، توصّلوا إلى:

1. إذا كان يعرف، فنحن نعرف.
2. إذا كان يفكر في اختراقنا، فنحن أيضًا نعرف كيف نخترقه.
3. إذا كان قد قرّر أن يتوب، فهذا أمر جيد لنا.

ولم يخطر ببالهم أبدًا أن المسألة برمتها هي:

هو يريد أن يكون مثلهم، وهم لم يؤسسوا القلعة وأشباهها، إلا لكي يكون أمثاله مثلهم، والتاريخ الإنساني كما هو معروف مصاب بحمّى الشَّبه والتَّشبه، ليس فقط على المستوى الخارجي، والذي نعني به عمليات التجميل التي بدأت على يد الطبيب الهندي سوسروثا- Susrutha في القرن الثامن قبل الميلاد، بل الشبه النفسي، أو السّلوكي أيضًا، والذي سبق سوسروثا بأزمنة طويلة.

***

استدعوا الضابط، شقيقَ العروس. تباحثوا في الأمر كعائلة، وانتهوا إلى أن الارتباط براشد يشبه أبغض الحلال عند الله، ألا وهو الطلاق. وأنهم في النهاية بشر، ولا بأس أن يفكّروا أيضًا في مستقبل الفتاة.

العقيد الأكبر سنًا، فاجأ المجتمعين حين قال: يهيأ لي أن ما يحدث لراشد تحوّل طبيعيّ.

- لماذا ترى سيادتكم أنه تحوّل طبيعيّ؟

كان يمكن للسؤال أن يفتح الباب لمساحة شاسعة من النقاش، لكن إجابته الهادئة جاءت صادمة أكثر.

- لأن كل التقارير التي وصلتْنا عنه تقول بأنه رجل حديديّ!
- ولكن ألا يعني هذا أن مشكلتنا معه أكبر؟ سأل ضابط آخر.

- بالعكس، لأنني رأيت أنّ القوميين الذين بالغوا في قوميتهم قد تحوّلوا دائمًا إلى فاشيين، وإن لم يتحوّلوا، صاروا نقيضا للمبادئ التي يدافعون عنها دون أن يدروا؛ فإذا كانوا ديمقراطيين متشدّدين يصبحون طغاة لفرط دفاعهم عن فكرة الديمقراطية، حين يبدأون بتناسي جوهرها دفاعًا عن تشددهم، ودفاعًا عن بقائهم مدافعين عنها؛ وإذا كانوا مع المساواة والرحمة يصبحون سفاحين، لأنهم يريدون تحقيق هذه المساواة وتلك الرحمة بأي وسيلة، حتى لو كان الثمن إفناء أنفسهم قبل إفناء الآخرين لكي تتحقق مساواتهم ورحمتهم، وبالتالي يصبحون وجه العملة الآخر لتلك الفاشية، هم الذين يعتقدون أنهم لم يوجدوا إلا لمقاومتها.

- أتعني أن راشد..

- علينا أن نخاف من أولئك الذين تمتلئ جماجمهم بألوان أخرى غير اللون الأسود. أما المتشدّدون، فلا تخفْ منهم، لأن تشدّدهم، الذي يعتقدونه عِلْمًا، أو يقينًا، هو السبب الأمثل الذي يقدّمونه لك لكي تسحقهم؛ ففي النهاية، الجميع يفضلون قتْل الوحش! ولحسن الحظ، أو لسوئه، لم يمنحْنا راشد، بمشروع الزواج، بما يعنيه من ردم للهوة التي كانت قائمة بيننا وبينه، فرصة كهذه، ولذا سنمنح الأيام فرصة لأن تثبت لنا حقيقة تلك الألوان التي تملأ جمجمته، أو تنفيها.

حين انتهى، راحوا يتأملون كلامه بصمت عميق، مدركين أن قوة (8 بوم)[1] التي يتمتّع بها، يجب أن تكون حلم كلّ واحد منهم.

***

[1]- بسبب اضطرار الأجهزة الأمنية للعمل في فترات ظلام أطول، تمّ تطوير قوة إبصار العاملين في الجيوش والاستخبارات والشرطة لتمكينهم من السيطرة على الأوضاع الجديدة، بعد أن استطاع العلماء فك الشيفرة الوراثية لعين طائر البوم وقدرتها على الإبصار ليلا، وكان تعديل قدرة العين على الإبصار يتلاءم صعودًا مع الرتبة التي يصل إليها الجندي أو رجل الأمن، في وقت تُرك للناس أن يطوّروا قوة إبصارهم بشكل طبيعي، إن استطاعوا!

شقيق الفتاة استمع لكلّ مخاوفهم وتطميناتهم صامتًا، فهو يعرف أن مستقبله هنا، في القلعة، وأنه إذا ما أراد للأنجم التي على كتفيه أن تتحوّل إلى ما هو أكثر أهمية من النجوم، وتتكاثر، ولبصره أن يمتلك قوة 3 بوم قريبًا، فلا سماء لأحلامه إلّا تلك التي فوق القلعة. أما ما أراحه وجعله راضيًا، فهو عدم سماعه ما يشير إلى أنهم يفكّرون في توظيف أخته عينًا على راشد (وهذا ما خطر بباله هو، أيّ أن يوظفها لصالحه!) ولو فعلوا، لاعتبر الأمر استغلالا فجًّا لعرْضه، لأخته التي من لحمه ودمه.

قالوا له:

- في النهاية سيكون تحت نظرك! وإذا ما أردتَ الحقيقة، فهو رجل، دخل القلعة ملوّثًا بماضيه المُعادي لنا، وخرج منها، بصموده، أشدّ بياضًا!

- على بركة الله إذًا، قال شقيق الفتاة. وأضاف: قلبي يقول لي إنه طالب قُرْب فعلًا، ففي النهاية، سيعرف الناس، وأعني أشباهه، أو من هم على شاكلته، أنه ناسب ضابطًا، وسيشكّون فيه أكثر مما نشكّ فيه. تقديري أنه قطع الجسر باتجاهنا. إنني مطمئن تمامًا.

حين أنهى مداخلته، ندِم على حماسته، إذ بدا شخصًا يريد التخلّص من شقيقته بأيّ ثمن، لا أن يزوجها.

لكن الضبّاط أصغوا إليه باحترام شديد، كما لو أنه يمتلك قوة 4 بوم، مقدّرين إخلاصه للقلعة وحصانتها. ولذا، لم يكن ينقصهم سوى أن يقرأوا الفاتحة، ليتحوّل الأمر إلى طُرفة بالنسبة للقارئ، لكنهم لم يفعلوا ذلك لسوء الحظ أو لحسنه!

عن قلبٍ يهوي ويصعد

المأساة في نظر البعض أن راشد لم ير الفتاة التي سيتزوّجها. وهو فعلًا لم يرها أبدًا، بل سمع عنها. وفي البلاد الصغيرة التي تظنّ نفسها كبيرة، وحتى مع وجود كلّ ذلك الظلام، لا توجد أسرار. لقد كان راشد يعرف الضابط محقِّقًا ومُعذِّبا، ورأى فيه، دائما، شابًا وسيما للغاية، بحيث قدّر أن حظّه سيفلق الصخر إذا ما كان لهذا الضابط شقيقة تشبهه، سواء أكانت أكبر منه أو أصغر!

أمّا ما كان يحيّره، فهو أن تلك الفكرة، خطرت له، للمرة الأولى، خلال واحدة من حفلات التعذيب، وعندها أدرك أن الجمال قد يكون أحد نقاط الضعف التي لم يتخيل وجودها فيه.

***

أمُّ راشد جمّعتْ قواها التي استنزفها الوقوف على باب القلعة أيامًا وليالي، والرّكض بين السجون بحثًا عن فِلْذة كبدها، وذهبتْ لمشاهدة العروس.

لُحسن حظّها، ذهبتْ في وقت كانت الشوارع فيه نظيفة، حيث لم تصادف على طول طريقها أكثر من عشرين إلى ثلاثين غرابا نافقًا، إذا ما استثنينا تلك التي ارتطمت بالسيارة التي تقلّها، لكن وجود شبك للحماية، مثل ذلك الذي كانت تستخدمه قوات مكافحة الشغب قديمًا، الشّبك الذي أُلزمتْ جميع السيارات بتثبيته على زجاجها من الجهات الأربع، حال

دون وقوع أضرار. أما أفضل ما حدث فهو أن فرحتها باقتراب زواج ابنها قد وسّعت صدرها وأعادت للهواء نقاءه القديم، فلم تشعر بأي ضيق في تنفّسها.

بالطبع، كان يمكن أن تصاب أم راشد بسكتة دماغية لو عرفت أن شقيق العروس ضابط، ويعمل في القلعة. لو عرفتْ لما ذهبت، حتى لو أخضعها ابنها لسلسلة التحقيقات التي كان يخضع لها، وللحفلات التي تليها!

بالمناسبة راشد قصير، يلبس نظارات سميكة للغاية، ساعده تطوُّر طبّ العيون أن يُغيِّر عينيه تقريبًا، إلّا أنه عاد لارتداء نظارة غير طبية، لأن وجهه يبدو معها أجمل حين يثبّتها فوق أنفٍ صغير، يتجمع تحته، كختم نافر، شاربان كثيفان لا يفيضان عن طرفَي فمه، وينتهيان بقطع حاد بزاوية تسعين درجة.

ليست هذه سخرية أيضًا ولا طُرفة، ولا محاولة للتعريض بذلك الصنف من المخلصين المستميتين في الدفاع عن معتقداتهم باعتبارها الخلاص الوحيد للبشرية، والذين يمكن، للمصادفة، أن يتحوّل كثير منهم إلى سفاحين أو فاشيين بسهولة، كما أشار العقيد الذي لم يحدّد لنا موقعه بين هذه الفئات.

***

كلّ شيء كان غامضًا في تلك الأيام، لأن راشد نفسه، لم يكن على علم بالنتائج التي ستُسفر عنها خطوبته غير المتوقّعة تلك، لا من الأصدقاء ولا من الخصوم، ولا نقول هنا الأعداء. ولذا، لا يستطيع أيُّ راوٍ عليم أن يكون جازمًا في أمر بداية مفتوحة كهذه! وقد جرت العادة أن ينشغل النقاد بالنهايات المفتوحة التي يختتِم بها الرّاوي العليم الروايات، تاركًا لهم شيئًا يلهون به، فهو يعرف، أيّ الراوي العليم، أن النقاد الأذكياء كالأطفال، عليك أن توفّر لهم شيئًا ما يلهون به، وإلّا فإنهم سيتعبونكَ حقًا.

طبعًا، يأمل الراوي العليم أن يأخذ النقاد الأذكياء هذه الملاحظة، باعتبارها طُرفة، وألّا يحوّلوها إلى مأساة، بعد قراءتهم لهذه الرواية!

***

والدة راشد عادت فَرِحَةً من زيارتها الاستطلاعية، إذ وجدت أن هناك فتاتين جميلتين: سلام ومرام؛ وعلى الرّغم من أن البياض، أو في الحقيقة الشحوب قد احتل وجوه معظم الناس، بسبب انطفاء الشمس، إلا أنها رأت في بياضهما جمالا تشتهيه نصف أمهات الأرض حين يتعلق الأمر بزوجات أبنائهن. فتاتان ممشوقتان، بأربع غمازات، وأربعة حواجب فاتنة تتجه إلى الأعلى كأجنحة ساحرة شديدة السواد، وجبينين صافيين كبحيرتي ماء صغيرتين كوّنهما المطر، وأربع أعين فيهما من الاخضرار ما فيهما من الازرقاق، وذقنين شهيين كالحلوى، وعنقين طويلين كذكرى جميلة، و.... يكفي!

وفي الحقيقة، لم ينقص الضابط إلا الشعر الطويل المنسدل، ليكون أختهما الثالثة، وهذا ما سيكتشفه راشد فيما بعد، فخورًا بقوة بصيرته، عندما سيراهما!

- تعرف يا راشد يا ابني، يبدو أن الله يحبّ المعارضة أكثر مما يحبّ الحكومة، وإلّا لما كان رزَقكَ بواحدة من جميلتين لم ترَ عيناي مثلهما!

(كانت أم راشد تطلق على القلعة اسم: حكومة، متأثرة بخبراتها عن الزمن القديم.)

لم يبدُ راشد فرحًا بما قالته أمه، وقد تأكد أن الجمال قد يكون نقطة ضعفه فعلا، هو الكاره لكل أنواع الضعف، فصاحت به: ولكْ اِفرح، كأنك لم تعد تحسّ لكثرة أعواد الخيزران المبتلة التي تقطَّعتْ على بدَنك!

- المهم، يا أمي، هل وافقوا؟ سألها ببرود محاولا نفيَ ضعفه أمام وصفها لجمال الفتاتين.

- وافقوا على ماذا؟! إذا كنا لم نحدّد من سنخطب، الصغيرة أم الكبيرة.

- من هي الأجمل؟
- الاثنتان جميلتان.
- من منهما تبدو أعقل وأَفهَم؟
- الاثنتان خريجتا جامعة: سياسة واقتصاد. يعني على مخّك. ولكن لا تسألني من منهما معدّلها أعلى، فهذا ممّا لا أعرفه.
- من منهما أطول؟
- أظن أن سلام الكبيرة أطول، ولكن لا نستطيع أن نقول إنها الكبيرة فعلا، فبينها وبين أختها الصغيرة مرام عشرة أشهر وأسبوعان! كما أنك في الحادية والثلاثين، وهما في الرابعة والعشرين، واحدة في أولها وواحدة في آخرها.
- أريد الأطول إذًا، مع أن عشرة أشهر وأسبوعين ليست بالأمر الذي يُضحى به.
- تريد الكبيرة؟
- ألم تقولي إنها الأطول؟
- أظن أنها الأطول، ولكنني غير متأكدة.
- رغم أن عدة سنتيمترات لن تفسد الزواج! إلا أنني سأُتعبكِ؛ زوريهم مرّة أخرى، ولتبدُ زيارتك وكأنكِ قادمة لتحديد موعد الخطبة، وقبل أن تحدّدي الموعد، تكونين قد حدّدتِ مَن منهما الأطول، وتتحدّثين بشأنها باعتبارها العروس. فما رأيكِ؟
- التّأكد مش خطأ، هكذا سأصيد عصفورين بحجر.

***

أمام جمال عروسه تأكدت لراشد بما لا يدع مجالا للشكّ نقطة ضعفه. بُهر بجمالها، كما بُهر رجال القلعة أيضًا بذلك الحضور الكثيف الذي شهِدَه العرس، إذ لم يبق مُشتَبَه به ولا نصف مُشتبه به، ولا مؤهل ليكون مشتبهًا به، إلّا وحضر العرس، وهذا ما اعتبره الضبّاط أغلى من أيّ هدية قُدِّمت إليهم.

انشغل المصورون (الخاصّون) بالتقاط الصّور، بحيث يمكن القول إنهم استطاعوا الحصول على أكبر أُلبوم عرس في العالم.

***

في الصباح التالي لليلة زفافه، زارته أمه -متأثرة بعادات الزمن الماضي- حاملة معها ما لذّ وطاب من أطعمة قادرة على شدّ أزْر العروسين، لإنجاب حفيد أو اثنين، دفعة واحدة؛ فمال نحوها، أي أمّه، وقال: أريدكِ في كلمة.

خرجتْ أمّه تتبعه، وقلبها يهوي ويصعد من قدميها حتى رأسها، خائفة من أن يفاجئها بانتكاسة، تتعلق بذكورته، أو بطهارة العروس، تُفسد فرحتها!

حينما ابتعد قليلا، قال لها وهو يدور حول شجرة توت صغيرة في إناء فخّاريّ وضِع في منتصف الشرفة: الدنيا جميلة، ولكنها ليست عادلة.

- لو قلت: الدنيا جميلة ولكنها ليست عادلة دائمًا، لفهمتك، ولكنني لم أفهمك؟ قالت له أمه.

- إن سلام جميلة، جميلة جدًا يا أمي، وأعرف أن من غير الجائز أن يزوّجوني أختها التي تُشبهها، ولكن أليس لها ابنة عمٍّ أو ابنة عمَّة، ابنة خال أو ابنة خالة تشبهها تمامًا. أمّي، أحلم بأن تكون لدي اثنتان منها على الأقل!

سعلت أمه، فهوى قلبه، كان أكثر ما يخشاه نوبات سعالها، التي تنتقل إليه فلا يتوقف سعالها إلا قرب صعود روحيهما.

استعادت أنفاسها، فعاد الهواء إلى صدره.

- وهل ستكون الدنيا عادلة إذا ما كانت لديك واحدة أخرى مثلها؟ سألته بجديّة وهي تهزّ رأسها متظاهرة بالتفكير في المسألة.

- أظن أن اثنتين تكفيان الآن.

- خيَّبك الله، قالت له، واستدارت عائدة، فتبعها بعد دقائق أمضاها

في الخارج يلوم نفسه على طيشه، وتحوّله من ضعيف إلى غبي أيضًا، بحيث أفسد كل شيء قبل أقل من أربع وعشرين ساعة بعد حفل الزواج.

دخل، وجد أمه تُطعم زوجته بيديها، وحين خرجت قبّلت العروس وتجاهلتْ ابنها كما لو أنه لم يكن هناك.

***

بعد ثلاث سنوات، مع ثبات زواج ابنها، أصبحت أمّ راشد تتعامل مع الأمر كطُرفة، ولكن، بينها وبين نفسها. وحين أنجبت سلام للمرة الرابعة، مالت أمّه نحوه، ودعتْه للخروج، فتبعها هذه المرة إلى شرفة أخرى تتوسّطها شجرة التوت، نفسها، التي وصل طولها إلى ركبته. أسندت مرفقيها إلى الحاجز الحديدي البارد، وراحت تتأمل المكان كأنها تراه للمرة الأولى. كان الناس قد تذكّروا الألوان أخيرًا، فراحوا يزيّنون واجهات بيوتهم، بعد أن أصبحت المدينة بلون وحيد، هو الإسمنتي.

نسيتْ أم راشد الرائحة الكريهة، وهي تتأمل اللون الأزرق الذي يغطي الحيطان بدرجاته، اللون الذي يذكّر الناس بالبحر والسماء، تأملت الأخضر الذي يذكِّرهم بالغابات والسهول، الأصفر الذي يذكِّرهم بالشمس، وأوشكت أن تبكي لأن المدينة استعادت بعض روحها، رغم أنه لم يعد لها سوى هذه الألوان التي هي كل ما تبقّى للبشر من طبيعة ماتت. وفي محاولة منها لإعادة الدمع إلى منابعه، بحثتْ عن طُرفة، ووجدتها. التفتتْ إلى راشد وقالت له: هل تتذكّر صباحيّة زواجك، وكيف طلبتَ الزواج من أخرى تشبه امرأتك، بعد أن استبعدتَ أختها مرام لأن ذلك لا يجوز شرعًا؟

- أذكُر.

نشرتْ نصف ابتسامة على شفتيها، كما كانت تنشر قطعة ملابس بالية على الحبل.

- وهل ما زلتَ تبحث؟

- لم يتوقّف بحثي منذ ذلك اليوم، قال، وكأنه شخص آخر لا يعرفه!
- صحيح؟!
- صحيح.
- لو كان الأمر كذلك، لتزوجتَ واحدة تشبهها منذ زمن طويل دون أن تستشيرني، وليس ذلك صعبًا، ما دام الناس يقولون، إن الله يخلق من الشَّبه أربعين! ونشرت قطعةً باليةً أخرى من الملابس على الحبْل! واقتربتْ منه وقالت: صحيح؟! صحيح؟!
لم يجب.
في تلك اللحظة أحسّت والدته أن قدميها هوتا في الطين، وأن الألوان اختفت، وأن الطُّرفة في طريقها لأن تتحوّل إلى مأساة، طال الوقت أو قصُر!
سعلتْ، فسمع أكثر من سعال يأتي من الشارع ومن الشرفات المقابلة، وما هي إلّا لحظات حتى انتقلت العدوى إليه.

ليلة الفرح و الشكّ

المصوّر الماهر يستطيع أن يعثر على الزاوية المُثلى لالتقاط الصورة الأجمل لمن سيصوِّره، ولذا، ما إن يراه، حتى يكون قد دار حوله مائة وثمانين درجة وهو في مكانه، أعني: المصوّر، وعرف أيّ زاوية تلك التي تُحقِّقُ له هذا.

سرُّ الجمال قائم في سرّ الزاوية التي تُلتقط منها الصورة، ولكن بعض الوجوه تشبه تلك اللوحات النادرة، التي مهما دوَّرْتها، يمينًا، شمالًا، رَأسًا، عقِبًا، تعطيك في كل مرة جمالا آخر، أجمل، وهكذا كانت سلام.

الغريب في الأمر أن راشد اكتشف أن زوجته تحبه أكثر مما تحبّ أخاها؛ وفي ليلة هادئة، وصل الحديث بينهما إلى الشبه الكبير بينها وبين أختها، قالت له دون مقدّمات: أتعرف يا راشد، لا أظن أن أحدًا في الدنيا يشبهني مثلك!

وقف راشد فجأة، وسار نحو المرآة في حركة يمكن أن نسميها: مسرحية، وقال:

- هذه أول مرة أسمع فيها امرأة تهجو نفسها! وضحك، فتأكّد لها أنه يشبهها.

***

كانت ليلة رائقة، بل من أجمل لياليهما، لم يعكِّرْها سوى قيام أحد المتحاورين في برنامج تلفزيوني بقتل المحاور الآخر، على الهواء مباشرة، بسبب اختلاف في الرأي، أو باختصار، لأنه لم يكن نسخة عنه.

في البداية اعتقد راشد وسلام، أن قناة التلفزيون قد تغيرت لخطأ إلكتروني، وأن ما يشاهدانه مجرد مشهد من فيلم عنف. أمسك المحاور القاتل برأس زميله، وظلّ يضربه بحافة الطاولة المعدنية، حتى خرج الدم من الشاشة، ولطخ كلّ ما في البيت، أو هكذا أحسّا.

تلك الليلة، أخبرته أنها لا تحبّ وظيفة أخيها، ولم تعُد تحبّه منذ أن سمعت إشاعة تقول بأنه بات يمتلك قوة إبصار 4 بوم؛ قالتها بجدية قاطعة وهي تغلق التلفزيون، بحيث أيقن راشد أن طلاقها حلال صرف! لكنه تمهّل، فقد يكون الأمر كلّه محاولة للإيقاع به، لكي توسِّع، بكلامها هذا، الشبابيكَ والأبواب المطلّة على ما خفيَ من أسراره.

وسألته:

- هل صحيح ما يشاع عن قوة إبصار رجال الأمن؟ فمنذ أن سمعتُ بذلك أحسّ بأننا لسنا أكثر من فئران.

- من تعنين بقولك: نحن؟!

- أعني أنا وأنت، أولادنا، الناس.

لعب القط في عبّ راشد أكثر، وأوشك أن يُقسِم أنها مدسوسة، وأن رُتبتها قد تكون أعلى بكثير من رتبة أخيها.

- لقد سمعتُ مثلكِ تلك الإشاعات، ولكن أحدًا لم يستطع تأكيدها.

- أكثر ما كنت أخشاه يا راشد أيام الجامعة، أن يعرف زملائي أن أخي يعمل في القلعة؛ أولئك الزملاء الطيبون الذين يحبون الحياة بكل ما فيهم من قوة، الزملاء الذين غاب منهم كثيرون لأيام وعادوا غير ما كانوا، وبعضهم غاب ولم يعد، لم نره أبدًا. ودائما كانت هنالك أسباب لا تحصى لكي يختفوا: قصاصة ورق، مجلة محظورة، تغريدة، نشرة حزبية إلكترونية، قصيدة نارية، كلمة تقال بين محاضرتين، أو في محاضرة، فتبدو مثيرة للريبة، أغنية من تلك الأغاني التي لا يمكن أن تبثها إذاعة رسمية، قائمة الكتب المستعارة من المكتبة، أو سجل تحميلاتهم من موقع البحث الأشهر:

لانجيرو Langero، طالب يحبّ واحدة تحبُّ غيره، فيكون عرضة لوشاية مفبركة، التقدّم بطلب للإدارة لدعوة شاعر أو كاتب معارض أو نصف معارض، وطالب يقرأ، بغض النظر عمّا يقرأه. كنت أحسّ أن أخي الذي يجهّز لهم الكوابيس في الليل، هو نفسه الذي يلاحقني بكوابيس النهار. أترى كم كنتُ أشبهكَ وأنت لا تدري؟!

***

الضابط، بدوره، بعد عامين من الزواج، بدأ يطمئن إلى أن راشد يشبهه، ما إن رزقتْ شقيقته بولد وبنت، وبدا بيتها أكثر رسوخًا من كل البيوت التي يعرفها. ثم تضاعف اطمئنانه حين حسم راشد أمره باختياره تلك المهنة الغريبة التي اخترعها، وسُمِح له بالسفر.

جسر جوي لأسرى الأمل

.. ذات سهرة التقى راشد بالدكتور، وهو مالك مستشفى شهير، وكان أحد المدعوين إليها الضابط الذي خطا عدة خطوات إلى الأمام بحيث اتّسعت سماء نجومه.

كان الدكتور، وهو سبعينيٌّ نحيف، بشعر أشيب طويل، وعينين برّاقتين، وأنف صغير للغاية، وقامة سامقة رغم انحناءة نافرة في الظهر، سعيدًا بسرد حكاياته وهو يطلق ضحكات عالية. سعادة كبيرة كانت ترفعه عن الأرض وهو يقول:

– حين كشفتُ عليه، تبين لي أن أُذنه سليمة تمامًا، لا شيء فيها سوى كتلة صمغيّة تكوّنت، في الأغلب، بسبب عدم قيامه بتنظيفها. أخذتُ نفَسًا عميقًا وقلتُ له تلك الجملة التي يحبُّ كثير من الزملاء ترديدها، تلك الجملة التي تحمِل قدْرًا دقيقًا من الحزن، وقدْرًا أشدّ دقة من التأنيب.

وقبل أن يواصل: ارتفعت موسيقى إلكترونية صادرة عن هاتفه. نفض الدكتور كمّ قميصه، ونظر إلى الشاشة على باطن رسغه، نهض، ابتعد قليلا، قال: ما إن تصِل حتى تكون الأمور قد جُهِّزت تمامًا.

ثم أجرى اتصالا: ألو دكتور، كيفك؟ أحبّ أن أُبشّرك: سبعة خراف وصلتْ إلى المطار الآن!

– ...

– نعم دفعة واحدة. أريد منك أن تُعطي أوامرك بصرف المبلغ مباشرة للذي أحضرها.

أنزل الدكتور كُمَّ قميصه وهو يهزّ يده، كما لو أنه ينفض شعرة علِقتْ به، مُغلقًا الهاتف. دَعَكَ الجانب الأيمن من أسنانه بإبهامه الأيسر. تصفّح وجوه الجميع، وعاد إلى مكانه.

- مبروك، قال له الضابط، وأضاف، يبدو أنك تلقّيتَ خبرًا جميلًا.

- الله يبارك فيك، فعلا تلقيتُ خبرًا جميلًا.

- كأن لديكَ مناسبة كبيرة تُرتِّب لها من ورائنا!

مجرد ذكْر كلمة: مناسبة، أيقظ قرون استشعار معظم المدعوين. أدرك الدكتور ذلك، فأطال فترة صمته قليلا وهو يتصفح الوجوه حوله، قبل أن يقول بصوت أكثر ارتفاعًا من صوته قبل لحظات:

- مناسبة؟! أبدًا.

- وماذا عن الخرفان السبعة القادمة من المطار الآن؟ قال الضابط وهو يضحك.

انفجر الدكتور مقهقهًا فسالتْ دموعه، وهو يفتعل إطالة زمن القهقهة أيضًا، إلى أن توقف مضطرًّا لأنه أحس بانقطاع أنفاسه:

- سأخبركم فيما بعد. ثم لملم ضحكته وقال: ما الذي يحدث؟ كأنكم نسيتم القصة التي كنتُ أرويها لكم قبل قليل!

وعلّق أحد الأطباء المدعوين، الذي طالما اعتبروه الأكثر فضولية، موجّهًا كلامه إلى الضابط:

- كنت أعتقد أنك قادر على متابعة سير تلك الخراف، ومعرفة مصيرها، وأنت هنا!

كانت الإشارة لقوة إبصار الضابط واضحة. صمتَ الجميع، وسأله الضابط:

- ماذا تعني؟

- أعني ما أعنيه.

ارتفعت حرارة الجوّ، ونزَّ عرقٌ من جباه بعض المدعوين، فقد كان أمر

التّحدث حول قوة الإبصار مُحرّمًا تمامًا، لأنه سرٌّ عسكري، هذا ما كانت تراه القلعة، ويؤكّده الناس بصمتهم.

قطع راشد بحنكته الطريق على ذلك الفيضان المُهلك، غير المتوقّع، وقال موجها كلامه للدكتور:

- أنا لم أنس حكاية صاحب الأذنين الطويلتين. ضحك بعض الموجودين، فأضاف: ما رأيك أن تُكملها، ثم نسمع الحكاية الثانية، بدل أن نخلطهما فنُضيِّع الاثنتين كما يفعل بعض الكتّاب!

- أين وصلنا؟ سأل الدكتور.

- وصلنا إلى عبارة: قدْرًا دقيقًا من الحزن وقدْرًا أشدّ دقة من التأنيب.

- تعجبني يا سيد راشد، لديك ذاكرة استثنائية. تصوّر، حتى أنا صاحب القصة نسيت إلى أين وصلتُ!

هدأ الجوّ قليلا، لكنهم لاحظوا أن نظرات الضابط ما زالت تحفر وجه ذلك الفضوليّ الذي صمتَ دهرًا ونطق كُفرًا.

وتابع الطبيب حديثه:

- يا سيدي، قلت له: الحمد لله أنك لم تتأخر أكثر مما تأخرت! وكتبتُ له قائمة بالفحوصات التي عليه أن يجريها في أقصى سرعة ممكنة، وصور الأشعة التي عليه إحضارها. وأوصيته أن يذهب إلى مختبر محدّد كتبتُ له عنوانه. الغريب أن ذلك الرجل خرج شبه ميت، وقد كان قد دخل العيادة حيًّا! وأطلق الدكتور ضحكة عالية بددتْ حلكة الصالة الواسعة.

بالطبع ضحكة مثلها هي مأساة تحاول عبثًا أن تكون طُرْفة، لكنهم ضحكوا، وهذا يدلّ على أن بعض البشر تُضحكهم المأساة أكثر مما تضحكهم الملهاة أو الطُّرَف.

- لا أريد أن أطيل عليكم، أضاف، لكن راشد الذي كان قد قطع مسافة طويلة في الطريق الجديد الذي اختاره، قال: وما الذي وراءنا؟! أرجوكَ، لا تحرمْنا من التفاصيل.

- طبعا، أحبّ أن أذكركم أن مسائل كهذه كانت تحدث أيام كنت طبيبا لا يملك من هذه الدنيا سوى عيادة يمكن وصفها بالمتواضعة.

- كلنا آذان صاغية، فقد بتْنا متشوّقين لحكاية الخراف السبعة! قال الضابط وهو يكزّ على أسنانه.

- يا سيدي، عاد المريض حاملًا نتائج فحوصاته بعد يومين، فأخبرته أنني سأدْرسها خلال استراحتي ظهرًا، لأن الوضع لا يحتمل التأخير، وطلبتُ منه أن يعود في الثامنة مساء: سأكون انتهيتُ من المرضى، وسأخبرك إن كان علينا أن نجري عمليتك، في العيادة هنا، أم في المستشفى. حين عاد أخبرته أن لا بديل للمستشفى، مع أنني كنت أتمنّى أن أُجري له العملية في العيادة لنخفّف له التكلفة! شكرني كثيرًا، وقال ما يقوله أي مريض يخشى تبعات مرضه: المهم يا دكتور، هل تعتقد أن العملية ستُعيد إليّ السمع كما كان؟

- بل أفضل مما كان، وإلّا لما كنت أجريتُها لك. قلتُ له مُطمْئنًا.

- شكرا دكتور، طمنتني.

- بإمكانك أن تذهب الآن وتُحضِر ما تحتاج إليه من أشيائك البسيطة وتدخل المستشفى، لقد حجزت لك سكرتيرتي سريرًا، وأخبرتْهم بحالتك، وغدا في السابعة والنصف صباحًا نُجري العملية.

أفضل ما في الأمر أن ذلك الأهبل خرج مطمئنًا، وأنتم تعرفون أن الحالة النفسية الجيدة هي نصف العلاج!

في تلك اللحظة، انسلّ الطبيب الفضوليّ من الجلسة، بعد أن تأكد أن الضابط لا ينظر إليه.

- شوَّقتنا يا دكتور أكثر مما يجب. قال أحد الساهرين.

- ها أنت تريد مجاملتي بأي وسيلة، كل الناس يمكن أن يطلبوا ما تطلب سماعه إلّا أنت، فأنت صاحب المختبر وتعرف الحكاية من أوَّلها إلى آخرها!

- ولكنني لا أملُّ سماعها. قال صاحب المختبر.

ضحك الدكتور ثانية: في المجاملة أنت قادر على هزيمة بلد بأكمله. ودَعَكَ الجانب الأيسر من أسنانه بإبهامه الأيمن، قبل أن يضيف: في الصباح أدخلناه غرفة العمليات. خدّرناه، وحين تأكّدنا من أنه أصبح في عالم آخر، وضعتُ له نقطتَي دواء كفيلتين بإذابة الشحم! نظّفنا أذنه، ووضعنا شاشًا عليها، ولففناه حول رأسه كعمامة شيخ متصاب خفيف الدّم والدّين، ونقلناه إلى غرفته. وهكذا خرج من المستشفى سعيدًا، وخرجت من العملية أسعد!

ضحكوا.

نهض الضابط، دخل غرفة جانبية، تحدّث مع بعض الحراس أسفل المبني. بدت العتمة له في الخارج قطعة من نهار: هنالك فأر سيخرج بعد قليل، اعتنوا به!

انقضوا عليه، وطاروا به إلى السيارة المركونة على بعد أمتار من المدخل.

كان الحارس في تلك الأيام، يمتلك قوة إبصار 1 بوم.

عاد الضابط بمزاج أفضل، بعد أن أشفى غليله:

- وما حكاية الخراف؟ سأل الضابط، وأضاف: إياك أن تعتقد أننا نسيناها.

- أبدًا.

- ولكن قبل حكاية الخراف، هل يمكنك أن تستعيد بعض حكايات زمن البراءة، أرجوك؟ قال صاحب المختبر.

- هل في ذهنك حكاية محددة؟ سأله الدكتور.

- حكاية الذي أحضرته زوجته وابنته إلى المستشفى وهو يعاني من ذبحة قلبية، مثلًا. تتذكّرها بالتأكيد!

- وكيف أنساها؟

- كلنا آذان صاغية، قال الضابط بمزاج رائق.

- يا سيدي، ذات يوم وصلتْ إلى المستشفى امرأتان ومعهما مريض مصاب بذبحة قلبية، لكننا فوجئنا أن لا مال لديهما في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وأنتم تعرفون، كان لا يسمح لأحد بالدخول إلى المستشفى قبل أن يدفع، وتلك قوانين، صحيح أننا نحن الذين وضعناها، ولكننا لا نسمح لأنفسنا بأن نخرقها أيًا كان السبب. توسَّلتا كثيرًا لكي نمهلهما حتى الصباح، وتعهّدتا بأن تُحضِرا المبلغ اللازم، لكنني كنت مصرًّا، لأن القانون قانون، وحسنا فعلتُ.

ألقى الدكتور نظرة نصف دائرية، فأيقن أن الجميع ينتظرون نهاية الحكاية. تراجع للوراء، أسند ظهره إلى أريكته، وأطلق كمية من الهواء كبيرة، كما لو أنه عبّ دخان سيجارة كاملة بنفَس واحد، وقال:

- في تلك اللحظة التي لا يمكن إلا أن أصفها بأنها درامية، لأن الرجل كان يلفظ أنفاسه، مال نحوي أحد الموظفين، وقال: أرجو أن تكون رحيمًا بهما، لنأخذ ساعتيهما، الأقراط، السّوار الذي في يد البنت، كرهْنٍ. كان ذكيًا بحيث قال ذلك بصوت سمعته الزوجة والابنة، وقبل أن يُتمَّ كلامه كانتا قد خلعتا أقراطهما، والساعتين والسوار، فالتفت الموظف إلى أصابع الزوجة، وفهمت النظرة فورًا. سحبتْ خاتم زواجها ووضعتْه على الطاولة، وهكذا حُلّتْ المشكلة بسرعة لم أتخيلها! أوووف، زمن طويل مرّ على تلك الحادثة! ولكنني أفكر دائما كم كان يمكن أن نكون ساذجين لو لم نفعل ذلك، بخاصة أن الرجل قد مات في الصباح التالي.

- هل فعلتم ذلك حقا؟ سأل الضابط.

- وهل تعتقد أننا لو لم نفعل ذلك كنا سنسهر سهرة عرمرمية كهذه؟!

وضحكوا.

عند ذلك نهض أحد الأطباء وهو يحاول ما استطاع كتْم غضبه، وقال: إذا سمحتم، عليّ أن أغادر!

حين خرج، علّق صاحب المختبر: أظن أن لديه بعض أعراض ذلك المرض الخطير الذي يُسمى: متلازمة الضمير.

ضحكوا كثيرًا.

- لنعد لحكاية الخراف والمطار، فمائة حكاية قديمة لا يمكن أن تنزع منك الرغبة في سماع حكاية جديدة. قال أحد الأطباء.

- والعكس صحيح أيضًا، علّق الضابط.

- للأسف، إنها أقل من حكاية بكثير، فهي ليست أكثر من معلومة. كل ما في الأمر أن هناك عددًا من السائقين الذين يعملون على خطِّ المطار، يُحضرون لنا بعض الخراف، آسف، يحضرون لنا بعض المرضى بين حين وآخر، وطبعًا، يأخذ السائقون نصيبهم، ونحن نأخذ نصيبنا. وكما تعرفون، إن لم نحرّك وضع العمل فلن نستطيع، كما قلت قبل قليل، أن نسهر سهرة طيبة كهذه، بل لن نستطيع أن نضحك الضحك الذي ضحكناه، فما بالكم بالطعام الذي أكلناه والشراب الذي كرعناه؟! ههههههههههه.

***

المفاجأة التي لم يتوقّعها أحد، أن راشد طلب حديثًا جانبيًّا مع الدكتور، في اللحظة التي انطلق فيها الجميع نحو المائدة العامرة بالأطعمة.

استغرب الدكتور ذلك، ففي النهاية لم يكن راشد أكثر من زوج أخت السيد الضابط الذي لا غِنى عنه!

حين دعاه الدكتور للجلوس في غرفة مجاورة، قال راشد الذي لم يُلبِّ الدعوة: لا مجال للحديث في الموضوع بصورة مفصّلة الآن، ولكنني أقترح على حضرتك مشروعًا أوسع من مشروع سائقي المطار هذا؟

- وما البديل الذي لديك؟

- لا، ليس بديلا، أمرُ السائقين يمكن أن يستمرّ، إذ لا ضرر منه، ولكن ما أطرحه هو جسرٌ جوي لنقل أسرى الأمل إلى هنا.

- ما الذي تعنيه بقولك: أسرى الأمل؟!

- الخراف!

- جسر جوي؟! لقد بدأتَ تثير فضولي، أتقصد، فعلا، جسرًا جويًّا؟!
- بدقّة.
- وكيف يمكن أن يتحقّق أمرٌ كهذا؟
- بأن نتّفق أولًا.

دعَكَ الدكتور الجانب الأيسر من أسنانه بإبهامه الأيمن، كما لو أنه يعتصر جبينه مفكرًا، وقال.

- قبل أن أعرف التفاصيل؟!
- قبل أن تعرف التفاصيل، أجاب راشد.
- ما دمتَ واثقًا إلى هذا الحدّ، فعلى بركة الله، ومدّ يده ليصافح راشد.

ارتبك راشد الذي كان قد رأى تلك اليد نفسها، ذات الأصابع الطويلة للغاية، محشورة في فم صاحبها قبل لحظات، لكن الوقت لم يكن يساعده، ولا الموقف، فمدّ يده وصافح الدكتور.

مليون خطوة على الطريق

في الوقت الذي بدت فيه سلام مولعة بماضي راشد السِّريّ، كان يعمل كلَّ ما لديه كي لا تعرف شيئًا عن حاضره. بدا لها سريًّا أكثر مما يجب، كما لو أنه يخطط للسيطرة على البلد بين ليلة وضحاها!

سلام تفهّمت الأمر، باعتباره جزءًا من أيّ عمل يمكن أن تقبل به زوجة أيّ مناضل، أو زعيم.

أغلقتْ عينيها بخبرة امرأة حكيمة تكوّنت لديها أثناء متابعتها القريبة لمآسي الحياة الجامعية، ولا نقول طُرَفها، لأنها في الحقيقة لا تتذكّر الكثير مما يدعو للابتسام فيما يتعلق بحياة الطلبة السياسية، إلا إذا استثنيا تلك المناكفات الذّكية للتحايل على السلطة.

لم يخْفَ على راشد حبّها لماضيه، وهذا في الحقيقة أفضل ما حدث، لأن كلّ من هو قريب منه، من دائرته القديمة، بدأ يكره حاضره الذي وصل إليه. أما الضابط، فقد كان أكثر الناس دَهَشًا بما يحدث، ولم يعرف إن كان عليه أن يكون مسرورًا لأن راشد أصبح يشبهه، أم يحزن، أم يغضب!

لقد تغيّر الاثنان، ولكن، كان يلزم الضابط وقت أطول ليصل إلى ما وصل إليه راشد الذي اعتمد سياسة حرْق المراحل، ببصيرته، لا ببصره، في ظلّ تحوّل رصيد ماضيه السلبي إلى رصيد إيجابي، رسميًّا؛ في حين اعتمد هو سياسة الخطوة خطوة، تمامًا مثل تلك السائدة في أيّ جهاز عسكري أو أمْنيٍّ، ونعني الترقّي من رتبة إلى أخرى، أو من يوم إلى يوم.

كانت البلد قد استسلمت لتلك القاعدة التي يمكن وصفها بالفاشية: من ليس معي فهو ضدّي، لا بعبقريتها، ولكن باعتبارها جزءًا من هذا العالم المحيط بها، العالم الذي غدا أشبه بقرْيةٍ صغيرة، وليس بقريةٍ صغيرة؛ كلّما تمّ إغلاق أحد ثقوبها انفتح اثنان سواه.

***

فوجئ الدكتور، مالك المستشفى، بقدرات راشد، فقد كانت لديه موهبة استثنائية في (تنظيم) المرضى، وهي موهبة لا تقلُّ أهمية عن تلك التي كان يتمتّع بها في تنظيم وتشكيل الخلايا الحزبية.

أما أكثر ما كان يُبهر في شخصية راشد، فهي قدرته على الإقناع. معه لا يمكن إلّا أن تقتنع بأي موضوع يُحدِّثك فيه، إن كان سلامًا أو حربًا أو هدنةً، أو اللاحرب، أو اللاسلم، أو ضرورة الانفتاح على العالم، أو ضرورة الانغلاق! إذ يمكنه التّحدّث طويلا في فضائل الهزيمة حتى تعفّ النفس عن أيِّ انتصار يمكن أن تحقِّقه، كما يمكنه التّحدث عن الانتصار كحلّ وحيد للخروج من الحالة الراهنة باعتباره (إجراءً) لا بدَّ منه؛ وهكذا كان يتقلّب بين غاندي وهتلر، فلا تعرف إن كان مُصْلحا أم مروِّضا، ملحدًا أم مُوحِّدًا، لصًّا أم نزيهًا، قائدًا أم قوّادًا.

الضابط كان مبهورًا به أيضًا، إلى أن اكتشف أن سرَّه قائم في قدرته على جعل الناس يحسّون بأنه يتحدّث من قلبه، وأنه يخاف عليهم.

من هذه النقطة بالذات بدأ راشد ببناء عدّة جسور جوية بين أكثر من بلد، وكلّها مخصصة لأولئك الذين أصبحوا من أسرى الأمل. فتوسّع المستشفى كثيرًا، بحيث لم يعُد بحاجة لقبول أيِّ خراف (ضالّة) تأتي عن طريق المطار، يحملها سائق يبحث عن عمولته، بعد أن غدت الطائرات نفسها هي التي تحملهم.

تجارة ناجحة كتلك التي أصبح راشد يديرها، بدأت برأسمال بسيط للغاية: لسانه.

صحيح أن أناسًا كثيرين كانوا يأتون على مقاعد الدّرجتين الأولى والسياحية، ويعودون في توابيت مُحْكَمَة إلى بلادهم، صحبةَ من أتوا معهم، إلّا أن المعادلة البسيطة قائمة دائما في: حيث يعيش أُناسٌ يموت أُناس، وحيث ينجوا أُناس يهلَك آخرون. وقد أتقن راشد مقولة (الحزن والتأنيب)، والمقادير التي تتكوّن منها، فقالها وأعادها، وهو يعرف أن فائض المرضى قد أوجدَ فائض أموات، لكن ذلك لم يكن يؤثر على ربح المستشفى، ولا على عمولته التي بلغتْ مائة وستين ألفًا عن أول ثمانين أسيرًا من أسرى الأمل استطاع إحضارهم.

***

خلال ستة أشهر، ومع تزايد الأمراض وشيوع أمراض جديدة، استطاع راشد أن ينتقل إلى مرتبة جيران أصحاب الملايين، ولو كانت الظروف مختلفة، لكان يملك قصرًا صغيرًا في الضواحي، لكنه التجأ إلى جوف المدينة، كما التجأ أغنياء كثيرون، مضطرين، إلى ذلك الجوف، خوفًا من الفوضى والحيوانات، وبالذات، شراسة الكلاب، التي ربما تكون أدركت بذكائها مدى فظاعة أعمال الإنسان، فشعرت كم كانت أسلافها غبية حين أمضت حياتها وفية للبشر.

كثيرة هي المستشفيات التي حاولت سرقة اختراع راشد لكنها لم تُفلح، ببساطة لأنها لا تملك أرضية علاقاته الاجتماعية الأخويّة العميقة في تلك البلدان، والتي مهّدت له، عن حسن نيةٍ، ظروفَ العمل المناسبة، فاضطرّت تلك المستشفيات أن تستدرج راشد بعمولات أعلى.

لم يُمانع. فقد كان توصّل إلى حكْمة تقول: ما دمتَ قد عرضتَ نفسك في السوق، فلتسْعَ للحصول على أفضل ثمن يدفعونه لكَ مقابلها.

***

بين عدة مستشفيات بدأ راشد يتنقّل، والعالم حوله يتغيّر، إلى أن قرّر التوقّف عن السّفر، والعمل على ابتكار وكلاء من نوع جديد لم يعرفهم

السوق من قبل، ألَا وهم سائقو سيارات الإسعاف والمسعفون العاملون فيها، لكن المستشفيات ما إن أحسّتْ بهذا، حتى بدأ الصراع كالعادة لاستمالة هؤلاء، ففسدت المهنة! كما عبّر راشد عن ذلك، وصغُر الناس، ولم تعد ثمة أخلاق في وسط من المفروض أن رسالته المحافظة على حياة الناس، كما أضاف، بعد أن تحوّلت كل سيارة إسعاف، أو كثير منها، حتى يكون صادقًا، إلى مكاتب لا تختلف عن مكاتب سماسرة العقارات.

زلزال وعشر صواعق في غرفة مُغلقة!

من دراسته لطبائع البشر، لاحظ راشد شيئًا آخر مهمًّا: أن ليس هناك من إنسان إلّا ومصاب بمرض ما، أو أمل ما، وأن كل واحد منهم يريد أن يكون مثل فلان، والواحدة مثل فلانة، ودائما يحدّدون الذي يريدون أن يكونوا مثله بدقة، كما لو أنهم أمضوا عمرهم كلّه في البحث عنه! وهذا أمر لم يستطع راشد أن يفهمه، ولم يعرف أين يجد له اسما بين أسماء هواة الأمل وأسراه.

كل ما كُتب من قبل، هو مجرد تقديم لما سيأتي، وإن كنا سنتحدث فيما بعد، عن مشروع آخر سار بالتّوازي مع مشروع أسرى الأمل، متأخرًا خطوتين، أطلق عليه راشد بلا تردّد: (مشروع أسرى الأمل 2).

أكثر ما أزعج راشد أن كثيرًا من الناس كانوا يريدون أن يكونوا مثله، ولم يكن يعجبه أن يختاروا هم أن يكونوا أشباهه، لأنه كان يريد أن يكون هو صاحب القرار في أن يجعلهم، بقوته، أو بنفوذه، مثله، أو لا يريد؛ حتى الضابط الذي كان يعتقد أنه جعل راشد مثله، لم ينتبه إلى أن راشد هو الذي جعله مثله.

يبدو أن الكلام تعقّد قليلا!

لذا سنمضي إلى اليوم الذي تغيّرت فيه حياة راشد، ونعني يوم تسلُّمه عمله الجديد في مستشفى (الأمان).

***

لقد ضربه الزلزال، وشرختْه عشر صواعق على الأقل حين وجد نفسه أمام تلك السكرتيرة التي أطلق عليها اسم مرام، كشقيقة زوجته. شقيقة زوجته التي رآها شاب مهاجر طموح ذات غروب شمس مبكر، فتزوّجها بعد ليلة طويلة جدًا للقائه بها، وطار بها إلى ما تبقّى من أمريكا!

كانت قامة السكرتيرة هي قامة سلام، وبشرتها بشرة سلام، لكن الملامح كانت مختلفة. أما الأهم، فقد كانت أصغر من زوجته بخمس عشرة سنة، ولذا رأى فيها المخزون الاستراتيجي الجمالي الذي كان يبحث عنه بالضبط.

أغلق الباب طالبًا من الموظفين الخروج، سار نحوها، فسارت نحوه، وقبل أن يسألها عن اسمها اندفع الواحد منهما صوب الآخر كما لو أنه يريد اختراقه والخروج من الجهة الثانية له!

حين هدأ الأمر، كانت هناك عدة هزّات ارتدادية متفاوتة القوّة يمكن الإحساس بها بسهولة في الممرّ، أمام المكتب.

تأملها راشد برضا بالغ، وسألها:

- هل باستطاعتي أن أطلب منك شيئًا، ربما سيبدو غريبًا؟

- أرجوك، لا تتردد.

- أريدك أن تسكني هنا.

- تعني هنا في مكتبكَ؟!

- في مكتبي، وألّا تغادريه إلّا معي.

- تعني أن يكون مكتبك منزلي؟!

هزّ راشد رأسه مؤكدًا ذلك، وصمتتْ طويلا.

***

المشكلة الوحيدة التي أرّقت راشد أنها لم تكن تشبه، تمامًا، سلام التي تزوّجها، ولا مرام التي لم يستطع تزوُّجها شرعًا، وهو يعتبرهما أعلى تجلّيات الجمال التي رآها، فأوكل لعقله مهمّة ذات أهمية قصوى للبحث عن حلٍّ يرضيه.

***

في بلد صغير، أو حتى كبير، لا بدّ أن تنكشف تبِعاتُ علاقة عاصفة كتلك التي ضربته، حتى بعد اكتشافه لغرفة الراحة الملحقة بالمكتب. كان مَن في المستشفى هم السبّاقون إلى كشف الأمر، ثم الضابط بعدهم بوقت طويل، مقارنة بقوة إبصاره بالطبع؛ أما سلام، فقد أحسّت بالأمر، لكنها لم تتأكد من شيء، وهنا جاء دوْر الضابط الذي سرَّب سرَّ العلاقة العاصفة إلى شقيقته! لا ليهدم بيتها، فهو يعرف أن قنبلةً ميركورية[2] لن تهدمه، بعد أن أثبتتْ سلام بما لا يدع مجالًا للشكّ أنها تحبُّ زوجها؛ بل قرر الضابط تسريب العلاقة ليرى كيف سيتصرّف راشد، لأنه سيعتمد الحلول التي سيبتكرها الزوج، طريقًا لنجاته مستقبلا، فيما لو ضبطتْه زوجته، هو، متلبّسًا!

وهذا ما كان.

---

[2] – نسبة إلى مادة مشعة تم اكتشافها في كوكب عطارد Mercury، قادرة، بعد تفعيلها، على إحداث أضرار تفوق أي قنبلة دمار شامل تمت صناعتها حتى ذلك الحين.

فأر بحجم شاحنة!

كانت عشرات سيارات الإسعاف تُطلق أبواقها في اتجاهَي الشارع. أضواؤها الحمراء المختلطة بروائح الغربان النافقة، ترشق المارة والسيارات العابرة بالدم، وصهاريج الأبخرة الطبية تتقدم بهدوء في الممرّ المخصص لها، نافثة ما في جوفها كغيوم رمادية منخفضة. الغريب أن الرّبح السّريع جعل كثيرًا من أصحاب الأموال يستثمرون في هذه السيارات. بعضهم كان لديه أسطول فعليّ منها، كأساطيل البحر والبرِّ وسيارات التاكسي، مثل المدير العام للقلعة، الذي ما إن تقاعد، حتى استغلّ تحويشة العمر في (تجارة الرّبح الصافي) كما كان يسميها. وهو لم ينس راشد الذي فتح أمامه بوابة الكنز تلك، فأهداه عربتَي إسعاف مع انطلاق المشروع.

راشد كان ممتنًّا لذلك، رغم امتعاضه بسبب عدم تلبية المدير العام لطلبه، بالتدخل لمنحه قوة إبصار تعادل 4 بوم مثل التي بات يتمتّع بها شقيق زوجته. وحين قال له راشد إنه سيكتفي بـ 3 بوم، رفض أيضًا، إلا أن عزة نفس راشد منعته من أن يطلب قوة أقل من تلك، لأنه رأى أن أي قوة تمنح له وتكون أقل من 3 بوم، هي أضعف من بصيرته بكثير.

كان راشد يعرف، أن تسريب قوة الإبصار لعدد من المدنيين المتنفّذين قد حدث، وإن ظلت أسماؤهم مجهولة تمامًا. لكن ذلك العتب الجارف، والذي يصل إلى مرتبة غضب، لم يمنع راشد من الوقوف إلى جانب المدير العام للقلعة حين تعرّض لحملة (تشويه) من بقايا المعارضة، التي باتت معارضة سرية تمامًا.

في الصباح التالي خرجت الصّحف حاملة أقوى دفاع عن المدير العام: (راشد: نعم لقد عذَّبني رجاله سابقًا، لكنني لا أستطيع إلا أن أُشيد بنزاهته لاحقًا.) وتصدّر عنوان عريض صحيفة أخرى: راشد: كان تعذيبنا في الماضي وملاحقتنا جريمةً، لكن إلصاق التّهم به جريمة أكبر.)

صحيفة واحدة فقط ألقت الخبر على صفحتها الأخيرة: راشد: نعم، في الماضي، عذبونا، ولكننا لا نستطيع سوى أن نقول إنهم أنصفونا اليوم.)

***

بحنكته وببعد نظره، طلب راشد من سائقَي السيارتين العائدتين له، أن تتجوّلا بعيدًا عن أي مكان تتواجد فيه سيارات المدير العام السابق، وحين علم المدير العام بذلك، دعاه إلى عشاء خاص:

- لا تكن مبدئيًّا كما كنت في السابق، ولا تناقشني، سأترك لك الشارع المؤدي إلى المطار، وأنت تعرف بأنه من أفضل الشوارع.

شكره راشد، وهو يتصفح العتمة القاسية خلف النافذة المجاورة لطاولتهما، العتمة التي أحسّ بأنها على وشك تحطيم الزجاج لتدخل، وأصرَّ على أنه يريد أن يُبعد مصالحه الخاصة عن مجال عمله، فلا شيء يُضعف الإنسان ويحشره في الزاوية مثل الخلط بينهما. لكن أكثر ما كان يسعد راشد أن المدير العام كان محشورًا في الحيز الضيق لصندوق العربة، فطوله الذي يصل إلى مترين، وعرضه الذي يصل إلى قرابة متر، كان يجعل راشد مجرد نقطة، ولا نقول صفرًا أمام تلك الضخامة لو كان المدير واقفًا.

هزّ المدير العام رأسه وقال: يبدو أنك ستبقى مبدئيًّا ما حييت!

فردّ راشد ضاحكا: سيادتك تعرف أن هذه المبدئيّة هي وحدها التي جعلتني أفوز الليلة بهذا العشاء الخاص.

- تعرف يا راشد، إنني أفكر في شيء كبير. أحسّ بأن هناك ضياعاً عامًّا، وأن علينا مسؤولية الخروج بالناس منه!

- كل خبراتي تحت تصرفك، ولكن لا تقل لي إنك تريد تأسيس حزب

معارض، وأطلق راشد ضحكة صغيرة، كخط دفاع ثان، بحيث يبدو ما قاله طُرفة، إذا ما غضب المدير العام.

– هذه فكرة أصبحت مستهلكة، بعد أن نفّذها قديمًا أحد المدراء العامّين السابقين للقلعة، التي لم يكن اسمها قلعة. حين تتبلور الأفكار، ستكون أول العارفين.

– هذه ثقة أعتزّ بها، مع أنني أعتقد أنني يمكن أن أريحك من عناء التفكير الطويل! أكّد راشد.

لم ينتبه المدير العام لذلك الغرور الذي يطل برأسه من قلب كل كلمة قالها راشد، الغرور العائد لإحساس غامض جوهره أنه، راشد، قادر على التحكّم بهذا الرجل الجبل، وتسييره.

– ما دمنا وصلنا للثقة، سمعتُ أن هناك تلاعبًا من قِبل سائقي سيارات الإسعاف ومسعفيها ببعض الأمور. قال المدير العام.

– التلاعب موجود دائما، ولكن ماذا تعني؟

– صحيح أن المستشفيات مُلزمة باستئجار سياراتنا، لكن التلاعب يجعل السوق واقفًا كما يقولون!

– أظن أن سيادتك تعني عمليات الاستغلال التي يقوم بها السائقون والمسعفون.

– تماما. أكّد المدير العام.

– من تجربتي، يمكنني القول لسيادتك، كلّ المشاريع، وأيـًّا كانت شريفة، لا بدّ أن يتسلل إليها الفساد بطريقة أو بأخرى.

– إنك تؤكّد هواجسي بدل أن تنفيها.

– سأخبرك بفكرة خطرت لي راجيًا أن تعتبرها بمثابة شكر لك على هذه الدعوة الكريمة.

– تفضّل.

– ما يحدث حتى الآن، هو خداع، فقط، للمستشفيات التي أُلزمت باستئجار السيارات. قال راشد.

- لم أفهم.
- المسألة بسيطة: بدل أن يأخذ السائقون والمسعفون المصابَ، أو المريض إلى المستشفى الذي استأجر سياراتنا، يأخذونه إلى مستشفيات أخرى، لكي ينالوا بعض المكافآت.
- ولكن أمرًا كهذا جريمة، وفيه استغلال بشع للثقة، يمكن أن يرتدّ علينا نحن.
- تمامًا.
- وما هي فكرتك؟
- فكرتي ببساطة، أن نطوّر ما يقوم به السائقون والمسعفون. أعترف لك أن فكرتهم مُلْهِمة، رغم غضب سيادتك عليهم!
- وبماذا تفكر؟
- أفكر في إلغاء عقودنا مع المستشفيات، وتعويم سيارات الإسعاف.
- لم أفهم، هل سنحيلها إلى سيارات خاصة؟ سأل المدير باستغراب.
- نعم، هذا ما أقصده تمامًا.
- أنت لا تُلقي على مسامعي طُرفة، هذه مأساة.
- بل هي طُرفة؛ فقط، أرجو من سيادتك أن تسمعني حتى النهاية.
- تفضّل.
- سنعيّن إلى جانب السائق والمسعف محاسبًا أيضًا؟
- كي نضاعف الخسارة؟!
- بل كي نضبط الأرباح.
- أيضًا لم أفهم.
- سأقترح شيئًا عمليًّا، لننس الآن أمر سيارات الإسعاف، ولننبسط، كما يقال، وغدًا سأرسل لك ورقة عمل تشرح أدقّ التفاصيل. قال راشد مبتسمًا.
- وماذا عن سيارتَي الإسعاف العائدتين لك؟

- تستطيع القول لقد استخدمتهما كفأرَي تجربة.

- أرجو ألا يكونا قد ماتا! وضحك المدير العام.

- بالعكس، لقد أصبحا بحجم شاحنة لفرط سمنتهما، أؤكِّد لك، لن تعرفهما إذا ما رأيتهما!

- اتفقنا إذًا، وإذا نجح المشروع، لك عشرة بالمائة من صافي أرباحه.

- تعرف أنني لو أردت القبول بنسبة، ما، من حياتي الجديدة، وليس كلها، لما كنا نجلس معا اليوم، بل لبقيتُ راشد القديم!

- لا تقل لي إنك تريد المشروع كلّه! قال المدير العام وهو يطلق ضحكة عالية.

- أجل، أريده كله، ولكن لكَ.

- مبدئيٌّ وعفيف، أين يمكن أن أجد واحدًا مثلك؟ قال المدير العام وهو يربِّت على كتف راشد.

فردَّ راشد ضاحكًا:

- أُعذُرني في هذه بالذات، لن يؤدي بحثك إلى نتيجة!

وما إن أنهى راشد جملته حتى انقبض قلبه!

أجمل الذكريات وأقساها

من بين أجمل حكايات الماضي وأقساها التي ظلَّ راشد يفتخر بها، حكايته طفلًا مع عصابة من أولاد الحارة الذين كانوا يُطبقون عليه كقطيع ذئاب، مرّة لأخذ ما معه، ومرّة لمجرد اللهو.

لم تكن قبضة الظلام أيامها قد أطبقت على الأرض تمامًا، لم يكن هناك سوى الكثير من الغربان، الغربان التي قالت عنها أُمّه ذات ظهيرة وهي تراقبها: أخشى أن ازدياد عددها سيكون سببًا في اختفاء النهار! وحين أصيب العالم بضربة عتمة، بعد ذلك بسنوات، وتقلّص النهار، صارت أمه تقول: لقد تنبأتُ بهذا منذ زمن طويل، ولم يصدّقني أحد.

***

ذات يوم كان راشد يحمل كيسًا ممتلئًا بأجهزة هواتف تالفة وأجهزة إلكترونية تجاوزها الزمن. بسبب فقره، كان يجمعها ويبيعها لواحد من أصحاب تلك المحلات التي تعيد ترميمها وبيعها بأسعار خيالية باعتبارها قطعا أثرية نادرة، قبل أن تحظر القلعة تلك الهواتف، وتطارد أصحابها، لأنها لا تستطيع رصْدها.

راقبته العصابة. غاب نصف ساعة، وعندما وصل إلى أول الحيّ عائدًا، أطبق أفرادها عليه.

أصرَّ راشد أنه أنفق المال الذي حصل عليه من صفقة الأجهزة تلك، لكنهم لم يصدقوه. دفعوه باتجاه حائط، أمسك اثنان منهما بساعديه وثبّتاه،

في حين راح زعيم العصابة يفتش جيوبه ويقلّب كل ثنية من ملابسه، دون جدوى.

كان لا بدّ من تعذيبه، فأطلقوا قبضاتهم الغاضبة نحو جسده، ورغم أنهم كانوا يحاذرون ترْكَ آثار على الوجه، وبخاصة منطقة العينين، إلّا أن حسّهم بالهزيمة أمام صموده، دفعهم لتناسي حذرهم.

في اللحظة التي فكّوا فيها أسره، توقّعوا أن يهوي على الأرض، لكنه تماسك، دون أن يكفّ عن التّحديق مباشرة في أعينهم، مجتمعين، في اللحظة ذاتها، وهم غير قادرين أن يعرفوا سرّ قدرته على فِعل ذلك. شيء من الخوف تسلل إليهم، وبخاصة زعيمهم.

في لحظة ارتباكهم تلك، انطلقت قبضة راشد كطلقة وهشّمتْ نصف وجه الزعيم، فسقط أرضًا.

توقّعوا أن ينهض، لكنه لم يفعل، فتزايد خوفهم. استداروا لكي يهربوا، فصاح بهم:

- سأقتل كلّ من يتحرّك.

تجمّدوا، دون أن يرفعوا أعينهم عن زعيمهم الذي بدا أنه مات.

ركَلَه راشد بقدمه، كانت الضربة قوية حتى أنهم سمعوا تهشُّم أضلاعه.

شهق الزعيم، مثل غريق عثر في اللحظة الأخيرة على حفنة من هواء.

اعتدل. نظر إلى راشد، فأحسّ بأنه أطول مخلوق رآه في حياته، رغم أن راشد كان أقصر أبناء الحارة مذ عرفوه.

- انهض، قال له.

نهض الزعيم، كما لو أنه أمضى عمره ينفذ أوامر راشد.

مدّ راشد يده إليه، وقال:

- اذهب واشتر لك وللأولاد شيئًا بسرعة.

نظر الأولاد إلى يد راشد المبسوطة. كان المال فيها فعلا. كان المال مخبأ فيها طوال الوقت!

بيد مرتعشة تناول الزعيم النقود واستدار ليمضي.

- انتظِرْ، أمرَه راشد.

وقف الزعيم مكانه.

- الشيء الذي عليكم أن تفهموه منذ اليوم، أنكم لن تستطيعوا إجباري على فعل أي شيء بالقوة، لأنني أنا الذي يقرر أن يمنحكم هذا الشيء، أو لا يمنحكم إياه، متى أريد. هل فهمتم؟

هزّ زعيم العصابة رأسه، فهزّ بقية أعضاء العصابة رؤوسهم، وكل منهم يسأل نفسه: كيف يستطيع أن يحدّق في أعيننا مباشرة، كلنا، في لحظة واحدة؟!

نصفُ وجهٍ جميل!

توقفت امرأة على عتبة مطعم (الرياح الأربع)، حاجبة بقامتها الأضواء خلفها. كان واحدًا من أشهر المطاعم، يقع على هضبة عالية، تطلُّ على العاصمة كلّها. ويعتبره البعض أفضل منتجع حين يتكثّف الظلام ويصبح الأفق كمنجم فحم.

خطت المرأة عدة خطوات، فهوى قلب مدير الصالة. كانت أقبح امرأة تقع عليها عيناه. دسّت في يد مدير الصالة مبلغًا ضمِنَ لها أن تختار الطاولة التي تريد. اختارت طاولة منزوية مُطلّةً على القاعة المرتبة بإحكام شديد وجميل أيضًا.

طلبُها ذاك، أفرح في الحقيقة مدير الصّالة، فأفضل ما يمكن أن يحدث أن تكون فضيحة جمالية مثلها متوارية بعيدًا عن الأنظار.

لم يطُل الوقت، فما إن انتهت من احتساء كوب عصير البرتقال، حتى رأت تلك القامة القصيرة، تدخل مزهوّة.

كان راشد.

طلب من مدير الصالة ما طلبته منه: مَوقعًا منزويًا، فظنَّ صاحب الصالة أنه على موعد مع تلك السيدة القبيحة، بحيث أوشك أن يقول له: لقد سبقتْكَ السيدةُ واختارت الطاولة!

في اللحظة الأخيرة، أمسك لسانه ومنعه من أن يتحرّك، وحسنًا فعل.

ألقى راشد نظرة سريعة على تلك المرأة القبيحة! فتشاءم، بحيث أصبح

على ثقة من أن سكرتيرته لن تحضُر، أو قد يصيبها مكروه! مع أنه رآها تصعد السيارة التي ستوصلها.

ولكي لا يبقى مع تلك السيدة القبيحة وجهًا لوجه، أعطاها ظهره، وهذا ما منحه فرصة لمراقبة الباب، مع أنه يفضّل أن يكون ظهره إلى الباب حتى لا يراه كلّ من يدخل المطعم.

بعد قليل وصلت السكرتيرة، فتجاوزت ثلاث رياح الجدران الخارجية للمطعم. كانت امرأة جميلة بكل المقاييس.

المرأة القبيحة اكتشفت أن ذلكِ القصير ليس سهلًا، فقد كانت تلك الجميلة التي يواعدها تضحك كلّما قال كلمة. عشرين مرّة على الأقل مسحت السكرتيرة دموع بهجتها، في الوقت الذي راح فيه العرَق يواصل تدفّقه من كل خلية من خلايا السيدة القبيحة.

اقترب مدير الصالة منها، وسألها: هل اختارت السيدة طعامها؟

- أحضر لي أي شيء على ذوقك.

- شكرًا مدام! قالها كما لو أن طبيبًا يقوم بخلع أحد أسنانه.

بعد أن أكلتْ لقمتين من الطعام، أشارتْ له أن يأتي لها بالحساب. ذُعِر مدير الصالة وتعرّق. طار نحو طاولتها، متوقّعًا أن امرأة قبيحة مثلها هي أقدر الناس على إثارة فضيحة مُزلزلة:

- أرجو ألّا أكون قد اخترتُ لكِ طعامًا لا تحبينه.

- بالعكس. أفضل طعام.

- ولكن يا مدام أنت لم تأكـ...

- مضطرّة للمغادرة.

دفعتْ، ونهضتْ، لكنّ ما حيره أنها حملتْ منديل الطعام، وسارت به مبتعدة.

لم يجرؤ مدير الصالة أن ينبهها لذلك.

راقبها تسير نحو الباب.

حين وصلتْ جوار طاولة راشد، ألقتْ بالمنديل بكل قوَّتها في صحن حسائه، وواصلتْ طريقها.

ذُهل كلّ من رأوا المشهد، وذُهلت السكرتيرة. أما راشد ففاجأ الجميع، وهو يرى تناثر الحساء عليه، بأن صرخ لاعنًا. توقّفت المرأة، استدارتْ، امتدتْ يدها إلى طاولة بجانبها، تناولتْ منديلًا، وبحركة واثقة مسحتْ نصف وجهها، من الجبين حتى الرّقبة، فظهر نصف وجه جميل للغاية لا يمتُّ أبدًا للنّصف الذي يجاوره.

في تلك اللحظة تصلّبت ملامح راشد، وغمره عرَق غزير بصورة مفاجئة، دون أن يكفّ عن التّحديق في ذلك الوجه الغريب.

استدارت سلام بصمت، وواصلتْ طريقها إلى الخارج. فتحتِ البابَ، فاندفعتْ الرياح الأربع بقوة مزلزلة كلَّ شيء.

- أعتذرُ لكم، أعتذرُ للجميع. كلّ ما رأيتموه هو مشهد من فيلم نعدُّ له، أظنّ أن ردود أفعالكم تثبتُ أنه سيكون مشهدًا قويًّا! وحاول أن يضحك.

بعد قليل عاد روّاد المطعم لأحاديثهم، ولكنها الأحاديث الأكثر همسًا.

- هل صحيح أن ما حدث مشهدٌ في فيلم؟! سألت السكرتيرة.

- أحببتُ أن أفاجئكِ، لكنني لم أكن أعتقد أن الناس سيكونون بهذا العدد في المطعم. إنه مشهد جيد، أليس كذلك؟

صمتت السكرتيرة قليلا ثم سألت: ولكنّ مشهدًا كهذا يُنفِّذه الممثل أو المخرج مع الممثلة، فمن أنتَ منهما؟

- المنتج! قالها بحزم، وكان عليَّ أن أتأكّد من كلّ التفاصيل.

- ولكنّ لي رجاءً خاصًا، إذا كانت هنالك مشاهد أخرى من هذا النوع، أرجوك، أريد أن أكون بعيدة عنها، قالت بشيء من الحزن وشيء من التأنيب!

- ولو، أنتِ تأمرين. قال لها، لكنها لم تخرج من القلب.

- هناك شيء غريب في الأمر، أحسّ أنكَ قد تغيّرتَ، فلستَ أنتَ الذي كان هنا قبل خمس دقائق.

- الصحيح، أزعجني أنني أزعجتُ الناس. لم أكن أتخيّل أن الأمر سيصل إلى هذا الحدّ.

- في هذه معك حقّ.

***

ما إن خرج رواد المطعم، حتى وصل الضابط بنفسه، وقبل أن يطلب شيئًا، امتدَّت يد مدير الصالة إليه بتسجيل لكل ما حدث.

تأمّل الضابط المكان في حركة بانورامية، مدججة بقوة 4 بوم، كما لو أنه يتفقّد أرض معركة انتهت، وخرج دون أن يقول كلمة واحدة.

قطار الفحم في الصّالة!

قبل وصوله إلى البيت، توصّل راشد إلى عدد من الحلول الإستراتيجية، بحيث لن يتمكن أحدٌ من أن يضبطه ثانيةً مع السكرتيرة، حتى زوجته، وإذا ضبطته فإنها لن تصدّق ما ستراه!

وضع قدمه اليمنى على أول درجات البناية، وقبل أن يضع الثانية، رأى باب المصعد يفتح، ويخرج منه جاره الراصد الجوّيّ الذي بدا أنه فوجئ بوجود راشد أمامه، فخفض رأسه في محاولة لإخفاء وجهه. أحسّ راشد بذلك فاستدار متتبعًا قامة جاره الصغيرة تبتعد، لكن ما لم يستطع راشد التأكد منه، هو أن الرجل قد كان يشبهه.

وجود كارثة في انتظاره، جعله يتناسى أمرًا غير معقول كهذا، مضطرًّا.

حين دخل البيت، وجد سلام واجمة. الدّموع الجافة فوق خدّيها جرفت نصف القناع الذي كان يغطي النصف الآخر من وجهها.

حاول أن يشرح لها، لكنها أشاحت بعيدًا عنه. لم يكن يتصوّر أن مشاهدتها له مع امرأة يمكن أن تفعل فيها كلّ هذا!

الشيء الوحيد الذي ما كان يمكن أن يحتمله: أن تتركه؛ ولكن الأمر الطيّب أنه وجدها في البيت، هي التي كان يمكن ببساطة أن تلتجئ إلى بيت أخيها، وهو بيت منيع، يمكن أن يدعوه قلعة مصغّرة، رغم العلاقة الطيبة التي باتت تربطه بذلك الأخ.

***

لم يفُت راشد أن يشكّ في كلّ ما حصل، فالأمر كان أكثر من مصادفة؛ إذ تحت كلّ الظروف، لا يمكن لزوجته أن تختار المطعم والطاولة والتوقيت الدّقيق والتّخفي، إلّا إذا كان هنالك من سرَّب لها خبر اللقاء.

لأول مرّة وجد أن ذكاءه لا يتيح له الوصول إلى حبل سميك أو خيط رفيع، يمكن أن يوصلاه إلى العقل المدبِّر.

من ناحيته، لم يقل لأحد شيئًا، وهو بطبعه متكتّم في أمور حساسة كهذه. هل يكون الخبر تسلل عبر واحد، أو واحدة، من معارف السكرتيرة؟ ولكنه كان يعرف أنه علاقتها الوحيدة.

طرح فكرة القيام بعمليات مسح صوتي لبيته ومكتبه بالأقمار الصناعية الصغيرة التي باتت تجوب الفضاء كذبابات شفافة لا تراها الأعين، أو بواحد يعمل في المستشفى أُعدّ جسده كلّه كجهاز تنصّت، أو أن تكون السكرتيرة نفسها قد حُقنت، أو زُرعت فيها، دون أن تدري، شرائح حوّلتها إلى جهاز بثّ دائم، أو أن يكون أحد أجهزة المنزل كالثلاجة أو الفرن أو الخزائن، والتي باتت إلكترونية كلها، يتجسس عليه، رغم أنه كان على يقين من أنه اجتاز فترة الاختبار الغامضة التي حدّدتها له القلعة، وأصبح من المقرّبين الموثوقين.

طرح فكرة أن كل التطمينات التي مُنحت له، غير صحيحة، لأن القلعة أجرت مسحًا لعقله، على غير ما تعهّدت، دون معرفته، وعرفت كل تلك الأفكار التي تجول في رأسه، كما يشاع أنها باتت تفعل، بأجهزتها الأحدث، لمعظم سكان الدولة، بسريّة، في الشوارع ومداخل المؤسسات الكبرى والأسواق التجارية، وأن تلك المعلومات سُرّبت بطريقة ما.

استبعد القلعة من قائمة المشبوهين، فلا مصلحة مباشرة لها في كشف علاقته، لكنه لم يستبعد أن يكون أحد المنافسين، أو أحد الذين لم يستطيعوا استمالته، أو اللحاق بنجاحاته، قد فعل ذلك.

حين لم يجد أيّ ردود فعل غاضبة من زوجته، قرر أن يتركها في الصالون، ويدخل إلى غرفة النوم لينام.

ارتدى بيجامته، نظّف أسنانه بأن أشرع فمه لموجات ضوئية لمدة عشرين ثانية، موجات صادرة عن جهاز أزرق صغير، مثبّت بذراع، بجانب مرآة الحمّام، رغم معرفته أن أسنانه مطلية بمادة تمنع التصاق أي ذرّة من الطعام بها.

خرج، سار بهدوء نحو غرفة النوم، اندس في سريره، انتظر قليلا متوقّعًا سماع خطواتها، لم تأتِ، نام.

***

في الصّالة كان قلب سلام يجأر كواحد من قطارات الفحم التي رأتها في كثير من الأفلام القديمة التي يحصل عليها راشد عبر علاقاته مدفوعًا بقوة الحنين.

كانت تحاول أن تمسك بطرف حبل، أو خيط رفيع، لتفهم سبب تسريب أمر السكرتيرة إليها، ومعرفة الشخص الذي فعل ذلك. لم تصِل سوى لنتيجة واحدة: لا بدّ أن يكون ذلك الشخص أخاها، فهو يكره راشد بشدّة بسبب ماضيه المشرق. في حين أنه، أي الأخ، لم يزل يمارس عمله القبيح في ملاحقة الناس والقبض عليهم وابتكار التّهم الظالمة لهم.

كل تلك التحليلات كان يمكن أن تكون سببًا كافيًا لكي تغفر لزوجها، إلّا أن المشكلة قائمة في أن أخاها -إن كان هو المُسَرِّب- لم يكذب عليها، والمشكلة الأكبر أنها رأت بعينيها تحوّل راشد إلى ماكينة إضحاك لتلك السكرتيرة، السكرتيرة التي لا تستطيع إلّا أن تصفها بأنها جميلة حقًّا.

بدأت سلام تحذف شيئًا وتُبقي شيئًا من تلك القصة الكابوسية التي وجدت قلبَها عالقًا فيها. راحت تميل إلى الاقتناع بأن زوجها قد دعا سكرتيرته لغداء، تقديرًا لها؛ وقد كان بإمكانه، لو أراد، أن ينفرد بها في أي فندق. وأشعلتْ غضبها أكثر على أخيها، لأنه، ولأيّ سبب، لا يجوز له أن يُسرِّب لها معلومة دقيقة كتلك، فهو بهذا يخون ثقة راشد فيه، ويسعى لتدمير بيت أثبتت السنوات أنه راسخ البنيان.

حين توصّلتْ إلى ذلك، نهضتْ، دخلتْ حمّام الضيوف، غسلتْ

وجهها، متوقّعة أن يكون راشد في انتظارها. فتحتْ باب غرفة النوم، فهبّ شخيره. كان أشبه ما يكون بطفل، بجسده الصغير، وتلك الطمأنينة التي تغمر ملامحه الملائكية، كما رأتها. فأصبحتْ على يقين من أن رجلًا مثقلة روحه بالذنوب والأخطاء، لا يمكن أن ينام بكل هذا العمق وهذا السلام!

رفعتْ طرف اللحاف واندسّتْ بجانبه. امتدّتْ يدها، أطفأتْ الضوء، ونامت.

***

حين نهض ليمضي إلى الحمام في الثالثة فجرًا، أحسّ بها ملتصقة به، فأحبها راشد كما لم يحبها من قبل . في تلك اللحظة التي تُفتح فيها أبواب السماوات، تمنّى من كلّ قلبه أن تكون لدية مائة امرأة مثلها. واتّسعتْ رؤياه في تلك العتمة، فأصبح على يقين من أن فكرته الإستراتيجية، التي ستريحه، وتريح امرأته، أي أن تكون لديه مائة امرأة يشبهنها، كانت في محلِّها تمامًا، مع أن الأيام ستثبت له أمرًا يمكن أن ندعوه: مُضاعفات التمنّيات، أو مضاعفات الأمل، كما كان سيسميها لو خطرت بباله، وإن كان على رأس محتكري كلمة مضاعفات، هو ذلك الأمر الكريه الذي يسمونه: المرض.

أسير الأمل وأسير اليأس

استطاع المدير العام أن يُسرِّب للصحافة، عبر أحد مسؤولي الصحة الكبار، أن هناك خطة تقضي بوصول سيارة الإسعاف إلى أيِّ مصاب أو مريض، في زمن أعلى، هو خمس دقائق.

خبر كهذا، أنعش كثيرًا من قلوب الناس الضعيفة، المُتطيِّرة، التي تفكِّر بما هو أسوأ دائمًا، ناسية ما هو أفضل، أي حالتها الصحيّة الجيدة التي تتمتّع بها حاضرًا.

راشد رأى في المستقبل دائما أخطر محرِّك للنفس البشرية، وهو وحده الذي يستطيع أن يمضي بك في اتجاهين مختلفين، لكي تكون واحدًا من اثنين: أسيرًا للأمل أو أسيرًا لليأس. إنه يحبّ المستقبل لهذا السبب، ويرى فيه دائما أفضل شريك لتطوير العمل؛ فحتى أسير الأمل، يحتضن قلبُه شيئًا من اليأس، لأنه يأمل دائمًا أن يجد الحلَّ في الوقت المناسب إذا ما داهمه مكروه. أما أسير اليأس، فهو لا يفعل شيئًا سوى تجهيز نفسه لكي يكون حاضرًا عند وصول الكارثة.

راشد عرف رجلًا، يمكن القول بثقة إنه محترم، وميسور الحال. هذا الرجل أسرَّ إليه ذات مرّة أنه يحرص دائمًا على ارتداء ملابس داخلية وجوارب نظيفة وجديدة أكثر مما يحرص على مظهره الخارجي!

ضحك راشد يومها وعلّق: لأنك تريد أن تكون جاهزًا لأي علاقة سريعة؟ أليس كذلك؟ تدبير سليم.

فردَّ الرجل المحترم الميسور، والوسيم أيضًا: بل لأي وعكة مفاجئة أو حادثة أجد نفسي بسببهما محمولًا إلى المستشفى!

- لا تقل لي إنك تخشى وجود ثقب في جوربك وهناك ثقب لا سمح الله في صدرك!

- صدّقني، أخشى ثقب الجورب أكثر من ثقب القلب.

***

وجود سيارات إسعاف بصورة مستمرة، أعطى الناس، بنوعيهما، في زمن الظلام الكئيب، ثقة كبيرة في أنهم بين أيدٍ أمينة، بل إن بعضهم أصبح يُفرط في تناول أشياء لم يكن يتناولها من قبل، أو يُكثر من تناولها، سواء أكانت مأكولات أو مشروبات أو ما يعقبهما! وهناك أناس كانوا يقودون سياراتهم بحذر، فبدأوا بتجاوز حذرهم، وهم يرون، في لحظة ما، أربع سيارات إسعاف تحفّ بهم، كما كان سربٌ من الطائرات المقاتلة، في الماضي، يحفُّ بطائرة رئاسية أو ملكية أو إمبراطورية، ترحيبًا بالضيف الكبير الذي على متْنها، ما إن تعبر الأجواء الإقليمية للبلد المُضيف.

باختصار، دفعت الأخبار المتتالية، عن معجزة الدّقائق الخمس في الوصول إلى المصاب، الناسَ ليكونوا أكثر تهوُّرًا، وهكذا لم تعد سيارات الإسعاف قادرة على التقاط أنفاسها.

***

فوجئ راشد بمغلف كبير يحمله أحد مرافقي المدير العام. فتحه ما إن غادر المُرافق، فوجد فيه مبلغًا كبيرًا من المال، وكلمةً على بطاقة صغيرة: هذا المبلغ ليس من حصتكَ، تستطيع القول إنه تقدير عاجل لأفكاركَ النّيرة.

فتح راشد الجارور الأسفل لطاولته، وهو الأكبر، وألقى المغلّف فوق عدد من المغلفات الشبيهة التي استقرتْ فيه.

***

ربما لن يكون من باب الإطالة الإشارة هنا إلى أن راشد يُقدِّم زبدة أفكاره باستمرار لأهم رجال الأعمال والمستثمرين الأجانب، وبعض أصحاب المناصب العليا الذين يصلون إلى هذه المناصب دون خبرات، سواء كان ذلك في السياسة، وهذا هو مجاله الأول، أو في الاقتصاد،وهذا هو مجاله الثاني، أو في إيجاد حلول جديدة لمشكلات جديدة، وهذا هو مناخ خبرته العامة.

كان رأسه مَعْمَلا ضخمًا لا يُخفق أبدًا في فتح الأبواب أمام القضايا المُغلقة. هو لا يعرف إن كانت هذه الموهبة وراثيّة، أم أنها ثقافية بفعل عبوره لطبقات كثيرة من المجتمع ومعرفة تفاصيل قضاياها.

لقد انتشرتْ أخبار موهبته هذه، بحيث كان يمكن أن يُشاهَد يوميًّا في مطعم الرياح الأربع مع شخصيات لا تتكرّر؛ وقد التجأت إليه نساء ثريات أو زوجات أثرياء ومتنفّذين، وهنّ دائما أسوأ نماذج أسرى الأمل لفرط ارتفاع منسوب اليأس الذي يتخبطن في وحُوْله، رغم أنّ قضاياهن كانت بسيطة على الدوام: فواحدة تخشى الطلاق، ينصحها بأن تتعامل مع الأمر بهدوء وأن تبدأ بجمْع أكبر كمية من مال زوجها، وبأي طريقة، لضمان خروجها من زواجها بشيء يُعينها، إضافة لحقوق ما بعد الطلاق. وقد كانت نصيحتُه هذه مثمرةً على الدّوام، لأن الأزواج الذين لم يفكروا في الطلاق، كانوا يلاحظون ذلك الجشع الذي استوطن نفوس زوجاتهم في أسوأ مراحل علاقتهم بهنَّ، ولذا يسارعون إلى اتخاذ قرارات الطلاق، التي لم تكن واردة في كثير من الحالات!

نصائح عمليات التّجميل السهلة الباهرة، والمضمونة النتائج، كانت متكرِّرة أيضًا، وكذلك جملته الأثيرة للواحدة منهنّ: كيف يمكنكِ اللحاق بصبيّة مُنطلقة بسرعة خمس وعشرين سنة في الثانية وأنت لا تعتنين بمظهركِ؟

تلك الفئة من النساء كانت تخسر السباق أيضًا، فيطلبن مشورته،

فيُطلِق جملته الأثيرة الأخرى: يبدو أن علاقته بتلك الصبيّة أعمق مما شرحتِ لي، ويُعقب ذلك بجملته الأولى: عليكِ التعامل مع الأمر بهدوء وأن تبدئي بجمع أكبر كمية من مال زوجك، وبأي طريقة، لضمان خروجك من زواجك بشيء يعينكِ، إضافة لحقوق ما بعد الطلاق!

الشيء الوحيد الذي كان يرفضه راشد بقوّة هو التجاء زوجين إليه في الوقت نفسه، رغم أن أيّا منهما لا يعرف بأن الآخر التجأ إليه؛ أو إذا ما التجأ إليه خصمان. كان يعتذر، لأن مسألة كهذه ستدخل في باب الغشّ واستغلال ضعفيهما. ولذا لم يكن يتردّد في أن يخبرهما بوضوح: لو لم يلتجئ إليَّ شريكك، لخدَمتك بعينَي.

كان الشركاء ينقمون عليه في البداية، لكنهم يتعاملون معه باحترام وثقة في النهاية.

أما هو، وفي كل مرة، فقد كان يخرج راضيًا عن بصيرته، وراضيًا عن نفسه لأنه لم يتذلل للمدير العام كي يحصل على قوة إبصار أقلّ من 3 بوم، فيهمس لنفسه باستمرار: ما الذي سيفعلونه بقوة إبصارهم، إذا ما عصفت بحياتهم مشكلة ما، سيأتون إلي، يتعثرون، كما لو أنهم عُميٌّ لا يبصرون!

***

بعد إعلان الدقائق الخمس، ارتفع خلال أسبوع مستوى الثقة بالقطاع الصِّحي، وبالذات خدمات سيارات الإسعاف. ومن الغريب أن الناس، باعتبارهم أسرى أمل أبديين، يغضّون الطّرف عن ارتفاع التكاليف إذا ما توافرت الثقة، ولو بمظهرها الخارجي المتمثّل في وصول طواقم الإسعاف خلال خمس دقائق.

بصورة صاروخية انعكس هذا النجاح على إيرادات المستشفيات ومالكي سيارات الإسعاف، وبعد أسبوع واحد لا غير، سرَّب المدير العام خبرًا على لسان الناطق الرسمي باسم المستشفيات الخاصة. ستكون

خدمات الإسعاف والمستشفيات مجانية لأيٍّ مريض تتأخّر سيارة الإسعاف في الوصول إليه خلال خمس دقائق.

كانت المستشفيات الخاصة قد غدتْ هي المسيطرة على سوق العلاج، بعد حملة إفسادٍ لعاملين وسائقين لسيارات إسعاف في القطاع العام، وإن بقيَ بعض العاملين عصيين على الإغراء؛ ورافق الأمر القيام بتسريب أيّ خطأ يُرتكب في هذا القطاع للصحافة، والعمل على تضخيمه، بحيث وصل الأمر بالبعض لإطلاق تعليقات كثيرة باعتبارها طُرَفًا، مع أنها ليست سوى مآسٍ مكتملة الأركان، كأن يقول أحدهم للآخر: لا تنس أن تأخذ كفنكَ معكَ إذا ما قررتَ الذهاب فعلا إلى مستشفى عام.

أو يقول آخر: لقد تمَّ توسيع مستشفيات القطاع العام، ردًّا على محاولات النَّيل من سمعتها، بافتتاح مقابر جديدة مُلْحقة بها.

أو يقول واحد من أسرى اليأس واصفًا أحوال صديق له: لقد ذهب إلى المستشفى مريضًا فقيرًا، ولكنه والحمد لله عاد ميتًا مستورًا.

بالطبع، قد تستغربون، أن كثيرًا من هذه الأقوال المأثورة كانت من بنات أفكار راشد.

***

التقى المدير العام براشد في مطعم الجهات الأربع. كان راشد يبدو مهمومًا، ومتشائمًا من وجوده في ذلك المطعم، رغم أن زوجته فاجأته بتجاوزها لحادثة التلبُّس.

كان المدير العام يريد أن يشكره بأيّ طريقة يريدها، وبالغ في طلب الطعام، وأوصى بنوعيات من المشروبات اعتقد راشد دائمًا أنها لم تعد موجودة، لكن غيمة الهمّ الرّقيقة كانت غير شفافة.

- لا أريد أن أعيد عليكَ تلك النصيحة التي أعتبرها من أفضل ما تلقّيتُ من نصائح حين أتيتكَ ذات يوم مثقلًا بالهموم. هل تتذكّر ما قلتَه لي، قلت لي: أهرب إلى العمل، وها أنا أعيدها إليك جديدة جدًا، مع أنني استعملتها كثيرًا، قال له المدير العام وهو يضحك.

أخذ راشد نفسًا، ونفض رأسه وقال: إن أصعب امتحان للمرء هو ألّا يعمل بأقواله ونصائحه التي سمعها الناس منه، وأخذوا بها. أمسكتَني من يدي التي توجعني.

وأوشك المدير العام أن يقول له: ولكننا أمسكناك منها، ومن غيرها كثيرًا في الزمن الماضي، ولم تعترف، ولكنه سأله، ماذا قررتَ؟

- سأسافر عدة أيام، وبالتأكيد، سأعود أفضل، لأن مشكلة البشرية، مثل مشكلتي أيضًا، لم تزل قائمة في: خذ ما تشاء وامنحنا الأمل!

أطرق المدير العام قليلا، ثم عاد ذلك السؤال يتململ في صدره من جديد:

- دعني أسألكَ سؤالا كان يجب أن أسأله لك منذ زمن طويل.

- تفضل.

- كيف استطعت الصمود، هناك، أيام كنتَ ضيفنا؟!

صمت راشد طويلا، ثم قال:

- ببساطة كنتُ أقول إنهم فرحون بتفنّنهم في تعذيبي، يضربونني لأنهم يائسون، وأصمد لأنني أملكُ الأمل! ثم إن هناك مسألة أهمّ، طرأتْ فيما بعد، لقد اكتشفتُ أنهم لا يستحقونني.

- من هم؟

- أولئك الذين كنتُ أحتمل التعذيب من أجلهم، لقد كنت أراهم يتحوّلون إلى موظفين يوما بعد يوم، ويتخلّون عن تمرّدهم! لقد صغروا كثيرًا في عينَيّ!

- شيء كهذا كان يجب أن يدفعك لأن تعترف لا لأن تحتمل.

- وهل تتوقّع سيادتك أن أقبل بأن أتحوّل إلى كائن مثل واحد من أولئك الذين بتُّ أحتقرهم، وتحتقرونهم أيضًا؟

- لا، لا أظن، ولكن كنتَ سترتاح من ذلك التعذيب، وتريحنا.

- هذا صحيح، ولكن ما كان يشغلني دائما، ولتعذرني في هذه، آملًا ألا

تعتبرها تفاخرًا، ما كان يشغلني، هو كيف سأجلس معك دون أن أكون مضطرًّا لأن أخفض بصري خجلًا من أنني هُزمتُ.

- كنت تتوقع أن نجلس جلسة كهذه؟! لا تقل لي إنك تعني أننا نحن الذين هُزمنا؟

- لو هُزمتُم لما كنتُ هنا اليوم؟

- تعني أنك انتصرت ونحن انتصرنا؟! ولكن هل تعتقد أننا لو عذبناكَ اليوم ستعترف؟ سأله المدير العام دون أن يبتسم.

وضحك راشد:

- أعترفُ بماذا؟!

- وهل تظن أنكَ كنت ستعترف لو كنت عذبتك بنفسي؟!

كان السؤال صاعقًا، لا لراشد وحده، بل للسائل أيضًا. ابتسم راشد، فعلق المدير العام على ابتسامته:

- كنت ستعترف، أهذا ما تعنيه؟

وابتسم راشد ثانية، والشحوب يتسلل إلى ملامحه وقد أدرك خطورة الموقف.

- حتى في لحظة كهذه أنت لست مستعدًا لأن تجيب على سؤال واضح بإجابة واضحة؟

- إذا كنت تريدني أن أكون صادقًا معك، سأقول لسيادتك إن جوابي هو: لا أعرف، لأن المسألة كلها افتراضية، فلا أنت عذّبتني، ولا كان لدي شيء يمكن أن أعترف به! فكيف يمكن أن تكون الإجابة: أجل، على أمرين لا وجود لهما!

خرج المدير العام من المطعم، وثمة غصة في حلْقه، غاضبًا من بوح على هذه الدّرجة من الجرأة، غير قادر على أن يحدّد بدقّة، فيما إذا كانت قضية راشد من تلك القضايا التي ظلّت مُعلّقة، أم تلك التي أُغلقت بانحيازه للقلعة.

إسعاف الميت

أمضى راشد ليلته، كما لو أنه في قبو تعذيب.

لم يعرف كيف تجاوز الحدود كلّها ليقول كلامًا مثل ذلك الذي قاله للمدير العام!

أهو أثرُ الشُّرب، أم هو غضبٌ، ما، على شيء غامض في داخله؟

قبل أن يجلس على كرسيّه، جاءته مكالمة. توقّع أن يكون المتّصل هو المدير العام.

كان أحد المسعفين الذين يعرفهم على الخط. قبل أن يُلقي التحية، قال المسعف:

- لديّ حالة مستعجِلة.

- إلى أيّ حدّ؟

- حادث رهيب، تقديرنا الأوليّ أن هناك كسورًا في الحوض، اليد اليمنى، والساق اليمنى. وقد يكون هناك كسرٌ في الجمجمة.

- خمسمائة! قال راشد للمسعف بجفاف كأنه في حلبة ملاكمة.

- أنتم أقرب مستشفى لنا الآن. من السيارة أرى مبنى الطوارئ. عليك أن تطرح رقمًا أفضل، وإلّا سنواصل طريقنا للمستشفى التالي. هناك من يتّصل، سأطلبكَ بعد دقيقة.

أقفل المسعف الخط، واتّصل.

- ألو.. نعم، كسور في الحوض، اليد اليمنى، السّاق اليمنى، وقد يكون هناك كسْرٌ في الجمجمة.

- خمسمائة!
- منذ قليل رفضنا هذا العرض. لحظة. هناك اتّصال. بعد دقيقة سأتصل بكم.
- ألو..
- ...
- بعد عشر دقائق يمكن أن نكون على باب الطوارئ. قال المسعف للمتّصل الثالث.
- ...
- عشر دقائق فقط، لا وقت لدينا. معي اتصال آخر، سأتصل بك بعد قليل إن أمكنني.

***

كان راشد يدور في مكتبه، قلقًا، محدّقًا في الساعة. اتصل المسعف:
- لقد مرّت خمس دقائق، لماذا لم تتّصل؟ صرخ راشد.
- آسف، هناك أكثر من خطّ. أوضح المُسعف.
- كيف هي حالة المصاب الآن؟
- أظنّ أنها تسوء.
- لن نختلف، سأعطيكم ألفًا.
- ربع ساعة، ونكون عندكم، جهِّزوا غرفة العمليات. قال المُسعف. وطلب من السائق التّوجه بسرعةٍ إلى مستشفى الأمان.

كانت السيارة قد أصبحت أمام مستشفى (الضواحي). على بابه وقف عدد من الممرّضين ينتظرون بكامل تجهيزاتهم وصول المُصاب، لكن السيارة عبرت باحتَه مسرعة وخرجت مسرعة أكثر.

انطلقتْ في الشوارع، عشرات سيارات الإسعاف تملأ المسربين، وظلال حوادث تحطّم سيارات تلوح بين حين وآخر، وقد كان يمكن أن تختفي تلك الحوادث تمامًا، لو لم يستخدم البعض نفوذهم لمنع استيراد سيارات

تستطيع، ذاتيًّا، تلافي وقوع الحوادث. وكان هؤلاء من أصحاب المستشفيات، وشركات التأمين وشركات تعيش على قِطع الغيار أكثر مما تعيش على بيع السيارات الجديدة التي تنتجها.

- أظنّ أننا نخسر كثيرًا إذا ما واصلنا إضاعة الوقت في المساومة إلى هذا الحدّ. قال المحاسب، وهو رجل يفوق اتساع عينيه حجم نصف جمجمته.

- إنها مسألة مبدأ، ردّ المُسعف، فالحالة التي بين يدينا تستحق المبلغ الذي وافقوا على دفْعه أخيرًا.

وواصلت السيارةُ انطلاقها. الساعة التي تدور لاهثة في صدر صندوقها المعقّم، بدتْ وكأن سرعتها مرتبطة بدوران العجلات المجنون. فيما واصلت أضواء التحذير في الأعلى رشْق كلِّ من تمرُّ بهم بشعاعها الأحمر المُنذر بالموت، مُفزعةً الغربان والكلاب الشرسة التي تنتشر ما إن تهبط العتمة، الكلاب التي تنبح كما لو أنها تحتج على زمن العبودية الطويل الذي عانى منه أسلافها، لكنها كانت تبتعد متفادية الاصطدام بها، ما إن تقترب السيارات.

- تمهّل. ستقتُلنا. صرخ المُسعف موجّها كلامه للسائق.

كانت السيارة تنعطف بشدّة في تلك اللحظة، وترتفع عجلتا الجانب الأيمن مقدارَ نصف متر عن الأرض قبل أن تعتدل السيارة سالِكة طريقًا مستقيمًا.

خفّف السائق سرعته فجأة، فانطلقتْ أبواق السيارات خلفه مدوّية، وتعالت أصوات احتكاك عجلاتها بالأرض، محاولة من سائقيها منع وقوع سلسلة من الاصطدامات.

- أن تتمهّل، لا يعني أن تأخذنا إلى الجحيم بهذه السرعة. صرخ المُحاسب وقد اتسعت عيناه أكثر مبتلعة وجهه بأكمله. في الوقت الذي كان فيه المُسعف يجسُّ نبض المُصاب.

- يبدو أننا خسرناه للأسف. قال المُسعف، ومال بظهره للوراء وهو يفرك راحتيه الواحدة بالأخرى.

- ماذا؟ سأل السائق.

- فقدناه، يعني مات. ردّ المحاسب بغضب. وأضاف: قلتُ لك: إننا نخسر كثيرًا إذا ما واصلنا إضاعة الوقت في المساومة إلى هذا الحدّ، وها أنت ترى النتيجة. قلت لكَ دائما، عليك أن تقبل العرض الأول، هذا هو الشخص العشرين الذين يموت في هذه السيارة بسبب انعدام القناعة، لقد بتُّ أتشاءم منها.

- لا عليك، أجاب المُسعف، وطلب من السائق: واصل طريقكَ إلى مستشفى الأمان.

- بسرعة، أم أتمهَّل؟

- كما تريد، لكن لا تُوقف الصفارة ولا تطفئ الأضواء.

تراجع المُسعف ثانية للخلف، ورفع قدميه ووضعهما على طرف الحمّالة التي يستلقي عليها الميت. تعالى رنين هاتفه الملتفّ على ذراعه الأيسر، قال: Stop بلهجة غاضبة، فعمّ الصمت. أشعل سيجارة.

رنّ الهاتف ثانية، فأغلقه بصرخة أشدّ. في الوقت الذي انعطفتْ فيه السيارة عابرة بوابة باحة مستشفى الأمان.

كلّ شيء كان جاهزًا لاستقبال المصاب. بسرعة أَشرع المُسعف باب السيارة، قفز، فاندفع ممرضو المستشفى نحو المصاب، ينزلونه.

- إلى غرفة العمليات. أمر راشد الذي ظهر فجأة، وطلب من المسعف أن يتبعه.

سارا عدة خطوات وهما يراقبان العربة التي تحمل المُصاب منطلقة يدفعها الممرضون صوب باب واحدة من غرف العمليات. مال المسعف نحو راشد، وهمس في أذنه.

- ماذا؟! صرخ راشد.

- لا أحد يعرف ذلك غيرنا!

- ولكن كيف لي أن أسعفه وهو ميت؟! همس بغضب.

- ومن قال إن عليك أن تسعفه؟
- وماذا أفعل به؟
- فقط تخبر أهله أنه مات بعد أن فعل المستشفى كلّ ما لديه من أجل إنقاذه.
- اتبعْني، قال راشد، وأضاف: كلام كهذا لا يقال في الرّدهات.
فتح راشد باب مكتبه، فسبقه المُسعف، مواصلًا طريقه بحكم العادة نحو باب الغرفة الداخلية، متجاوزا طاولة السكرتيرة.
امتدّت يد راشد وأقفلت الباب:
- ما الذي قلته لي في الممرّ حول... حول المصاب؟
- قلت، عليكم أن تخبروا أهله الآن. ودعوهم، حين يأتون، ينتظرون ساعة، اثنتين، ثلاثًا، خارج باب غرفة العمليات.
- أظن أن مسألة المكافأة باتت من الماضي الآن. قال راشد.
- كل المكافآت تنتمي للحاضر، لا للماضي ولا للمستقبل إن كانت مكافآت حقيقة.
- كيف، والرجل ميت؟!
- أنا وأنت فقط مَن يعرفان أنه ميت.
- هل تعني؟
- أجل، لن يستطيعوا استلام الجثة إن لم يدفعوا تكاليف محاولات إنقاذه.
- هل تعني؟
رنّ هاتف المسعف، قال: Open، وهمس عدة كلمات قبل أن يغلقه.
التفت إلى راشد:
- إذا سمحت، عليّ أن أتحرّك. هناك حادث كبير.
سحَب راشد مبلغًا وناوله للمسعف.
عدَّه بسرعة:
- خمسمائة؟!

- إنه ميت.

- ألف. أرجوك، وإلا ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي أتعامل فيها مع هذا المستشفى، ثم إنك تعرف أن هناك محاسبًا ينتظرني في السيارة.

تأمل راشد المسعف وهو يهزّ رأسه كما لو أنه يقول له: لقد غلبتَني، وناوله رزْمة أوراق مالية أخرى.

رنّ هاتف المسعف.

- أنا قادم. لا تبتعد عن باب المستشفى.

نهض راشد، صافح المسعف:

- لا تقل لي إنك خرجت من هنا غير راض! لنكن أول من تتصل بهم من موقع الحادث.

- أعدك. ردّ المسعف.

***

ممرات المستشفى، وركنُ استقباله، كانت تعجّ بالناس، البعض يسأل والبعض يبكي، والبعض يتّصل محاولا تهدئة شخص ما على الطرف الثاني، وثلاث سيارات إسعاف تتقدّم نحو باب المستشفى، لكن سيارة المسعف تحوْل دون وصولها للمدخل. اخترق المسعف الجمهور المحتشد بصعوبة، متطلعًا للوصول إلى كمية من الهواء تملأ رئتيه. توقّف أمام الباب الخارجي وعبّ كمية هائلة من رائحة عفن ثقيلة، كتَمَ نفسه، نزل الدرجات بسرعة، صعد درجة سيارة الإسعاف، وقبل أن يقفل الباب طلب من السائق أن ينطلق:

- شقَّ لنا طريقًا سريعًا بعيدًا عن هنا، وارفع كمية الأوكسجين في الصندوق.

التفت السائق نحو المسعف، كان يشبهه تمامًا، ارتعب، قال:

- حاضر.

الرحلة السرية

لا تنسَ أنني كنتُ الطريدة الصعبة حينما كنتَ الصياد المثابر!

موعد غامض في قاعة المطار!

كما لو أن شيئًا لم يحدث، تناولوا طعام الإفطار معًا. المطبخ يضجُّ بحيوية الأولاد ورائحة البيض المقلي تملأ المكان بسعادة عائلية فائضة.

هبطتْ الرفوف العليا لخزانة الملابس لمستوى يديها، ما إن همست سلام بكلمة شوكلاته، وصعدت السّفلى للأعلى. تناولت أربعة من قوالب باونتي، وسلمّتهم إياها بعناية كما لو أنها وثائق رسمية، وذكَّرتهم أن يكونوا ممتنّين لأنهم يأكلون شوكولاته حقيقية، وليس من تلك التي يأكلها سواهم، والمحشوة بنشارة الخشب البيضاء، بنكهة جوز الهند، والمغلَّفة بنشارة محترقة ذات نكهة شوكولاتية خادعة.

قبَّل راشد وسلام الأولادَ كالعادة، هي تقبل الخدود الأيامِن وهو يقبِّل الخدود الأياسِر.

ليس في هذا الأمر طرفة أو توصيفًا لمدى تعلّق قلبه بالماضي، فزوجته وحدها التي تُطلق على تلك الأيام اسم: الماضي الجميل.

تقبيل الولد أو البنت في لحظة واحدة، كان يعطيهما حسًّا عميقًا بأن الواحد منهما يقبِّل الآخر فعلًا، لا عبر زجاج، بل عبر لحم كائن حيّ خرج منهما.

بالطبع، هذه القُبلة كانت بديلا عن قبلات حارّة، أو متوسطة الحرارة، أو حتى عابرة، لم يكن بالإمكان تبادلها على مرأى من الأولاد، كما لم يزل الغربيون يفعلون في مسلسلاتهم وأفلامهم.

وقفا في الشرفة الواسعة، مرّ صهريج الأبخرة الطبية تحتها، فأشرعتْ سلام البابَ الواسع خلفها لتتيح لأكبر كمية من بخار السحابة الرمادية الدخول إلى البيت. بصعوبة شاهدا الأولاد وهم يرتقون درجات الحافلة المدرسية. تأكّدا من أن كلّ شيء بخير، استدارا عائدين إلى المطبخ الواسع، وحمد راشد الله لأن عينيه ما زالتا تؤديان بجدارة كل المهام الضرورة التي يحتاجها.

سألته سلام:

- هل تعتقد أن إرسال الأولاد إلى المدرسة أمر ضروريّ، بعد أن غدا التعليم أمرًا طبيًّا أكثر منه تعليميًّا؟

- أنت تعرفين، إنها الفرصة الوحيدة لكي يعيشوا طفولتهم رغم هذا الظلام؟

***

كان التقدّم في مجال التعليم، قد أفاد كثيرًا من المخترعات التي خُصِّصتْ، زمنا طويلا، للأمن، فإدارات مدارس النُّخب أصبحت قادرة على إضافة أيّ معلومة، أو حذف أيّ معلومة من أدمغة الطلبة، مستخدمة أجهزة بالغة التطوّر، وإن لم تؤكد هذه الإدارات ذلك أو تنفيه، باعتبار نتائج التلاميذ الباهرة حقل منافسة بين المدارس، ولولا ضرورة التواصل الاجتماعي الذي تصاعدت أهميته مع انتشار الظلام، ومنعًا لاستفحال أخطار الكآبة، لكان بإمكان الأولاد أن يحصلوا على كلّ ما يريدونه من عِلم، في حياتهم، خلال جلسة واحدة، كما يشاع؛ لكن أكثر ما كان يقلق الأهل، أيّ أهل هو الحديث المستمر لأولادهم مع الأجهزة الموجودة في البيت، حيث كانوا لا يتوقفون عن طرح الأسئلة عليها، حول أي موضوع يريدونه، ولم تكن الأسرَّة أو الخزائن أو حتى صنابير المياه، تتوانى عن تقديم الإجابات؛ وإن كان أكثر مدعاة للقلق، هو حديث الأولاد المستمر مع الجدران، الجدران المصممة أيضا كأجهزة إلكترونية، لا كلّها بالطبع،

بل أجزاء صغيرة جدًا منها، بعد التوصّل إلى معرفة أسرار أدمغة معظم الكائنات، بما فيها الحشرات الصغيرة جدًا، كالنمل، وقدرة هذه الحشرات على إدارة شؤون حياتها بأدمغة لا تستطيع أن تراها حتى أعين البوم.

كان يؤرق راشد أن ابنته الصغيرة، منذ عامها الأول، وجدت في الجدار أفضل تسلية لها، هذه التسلية التي ما لبثت أن طوَّرت عندها موهبة طرح الأسئلة، وإن كانت أوقعتها أكثر من أخوتها في ما يمكن أن نطلق عليه البله الاجتماعي.

***

في الداخل كانت رائحة البيض المقلي المختلطة بتحميص شرائح الخبز لم تزل تفوح.

تأمّل راشد زوجته قليلا، وقال: أظن أن وجهكِ في الصباح يكون في أبهى حالاته.

فعلا، كانت في ذلك الصباح مختلفة، بحيث قرّر أن يلتقط لها الصورة المثالية التي يحتاجها.

طلب منها ألّا تتحرّك، فتوقّعتْ أنه سيأتي لها بهدية تُعوِّض ما حدث قبل أَمْسين، وكم كرهتْ أن يكون قد خطّط لرشوتها! لم تكن تريد أن تتأكد من أن ما حدث قد حدث، وأن زوجها وحبيبها متورّط في علاقة جامحة، أو حتى غير جامحة، مع تلك السكرتيرة التي لا يمكن إلّا أن تصفها بالجميلة. غلى الدّم في خديها الأحمرين الصغيرين وجبينها المصقول بيد إلهية كريمة ومتأنية في خلْقِها، واحمرَّ أنفها الروماني، وشعّ نور عسليّ مُخضرٌّ من عينيها المغسولتين بعتب مُرٍّ.

حين رأته عائدًا، لم ترَ في يده سوى كاميرا رقمية لم يكن سمكها يتجاوز ورقة، ضغط أحد مفاتيحها، فخرجت منها عدسة بقوة ثلاثة آلاف ميغا بيكسل.

عاد الدّم يتدفق في شرايينها من جديد، ولم يكن يفوته، وهو الذي يحبّها، أن تورُّدَ وجهها ازداد، وأنها غدت خلال دقائق أجمل مما تركها.

- كنتِ دائما أجمل امرأة وقعتْ عليها عيناي، ولكنكِ اليوم جميلة على نحو يدفعني لأن أبكي، تأثُّرًا، كما لو أنك زوجة غيري التي لا أستطيع الوصول إليها!

تورّد وجهها أكثر، فالتقط الصورة. أعاد الصورة إلى الخلف بلمسة رقيقة، وشاهدها، كانت هي المُراد.

دفع الكاميرا نحوها، تأمّلت الصورة، هزّت رأسها برضا، فتأكّد من أنها منحتْه موافقتها على اعتماد الصورة، رغم عدم معرفتها السبب الذي التُقِطتْ من أجله، أو الغرض من استخدامها.

قبَّلها، توارى قليلا في الداخل، نسخ الصورة مستخدما جهاز التلفزيون المثبت في السقف على شكل أنبوب، هبطت الصورة من الأعلى، ملتفّة بين راحتيه. خرج. وجدها حيث هي، لم تزل جميلة حتى بعد انقضاء خمس دقائق، رغم أن الضوء تغيّر قليلا بحيث لا يمكن أن تلمح تبدّله سوى عين خبيرة.

***

صباحٌ مثل ذلك الصباح، يمكن أن يكون مثاليًّا لبداية جميلة ليوم جميل، لكن ما نغّص ذلك، هي اللحظة التي فُتِحَ فيها باب المصعد ورأى نفسه وجها لوجه مع الرّاصد الجوّيّ، جاره في الدّور الأعلى، وهو جار لم يحبّه أبدًا، إذ بدا له أن فيه شيئًا مُنفِّرًا! وعلى مدى سنوات، بات هذا الإحساس يتفاقم يومًا بعد يوم، وما كان ينقصه سوى أن تؤكد له زوجته ما لم يكن قد تأكد منه، وهي تقول له: إنها حين وجدت نفسها أمام المصعد والجار يخرج منه، أوشكت أن تقول له: ما الذي أتى بكَ من العمل يا حبيبي، أليس من المفترض أن تكون هناك؟! لكنها كبحتْ جماح لسانها كما أكّدت له في اللحظة الأخيرة، وصعدت وهي تردّد: يخلق الله من الشّبه أربعين فعلا، سبحان الله.

كظم راشد غيظه، وانتابه حسٌّ بأن الرجل يخطط لأن يكون شبيهه،

لسبب ما، غامض، رغم وجود فرق لا يخفى بين قامتيهما؛ أوليس راشد نفسه يفكّر استراتيجيًّا في الشّبه الذي يريد؟ أولم يلتقط صورة زوجته ليستخدمها في ما لم يخطر ببالها؟!

كان جارًا مسالما على أيّ حال، لعله أول من أصيب بتبعات اختلاط الفصول، الفصول التي تداخلت كما لو أن سيدة بيت طيبة وضعتها في خلّاط عملاق وخفقَتْها.

***

ساد الصمت، وتوقّف الزمن. نظر الجار إلى ساعته ليستحثّ راشد على الدخول، لكن راشد الذي أبقى أصبعه على زرّ المصعد، خطا نصف خطوة إلى الأمام، وفي لحظة خاطفة، رفع يده عن المفتاح، وتلقّى الجار صفعة مفاجئة!

- سأقتلكَ إن واصلت هذا!

وقف الجار مصعوقًا في مكانه. أُغلق باب المصعد من جديد، وصعد لفوق، وظلّ يرتفع ويرتفع والأرقام تتصاعد على لوحته الإلكترونية، مع أنه لم تكن هناك طوابق بعدد تلك الأرقام! كما لو أن الصفعة قذفتْ بالجار والمصعد إلى السماء السابعة!

***

وصل راشد إلى باب المستشفى مثل دقة ساعة (بيغ بن)، أيام عزّها، في الثامنة صباحًا. هذه الدّقة كانت في الحقيقة ثمرة أيام العمل السّري، والكلّ يقدّسها، وكان هو يقدّسها ويقدّس تقديس أعضاء خليّته لها، ويحاول إعطاءهم انطباعًا متجدِّدًا بأنه الأدقّ.

بعد خمس دقائق من تمام الثامنة، كانت سكرتيرته تعرف أن الباب سيُفتح، دون أن تكون مضطرّة للنظر إلى الشاشة التي أمامها، وكان يُفتح. أما إذا تفقّد أحوال العاملين في الاستقبال، فإنه يدخل المكتب بعد ثماني دقائق.

فوجئت أنه دخل المكتب بعد ثلاث دقائق.

أخافها هذا. أخافها كثيرًا، هي التي أمضت الليل محاولة فهْم حقيقة ما حدث في المطعم.

مدّ يده إليها بالصورة، طلب منها أن تتأملها بهدوء، تقول له رأيها بدقة كاملة، وأعطاها عشر دقائق لتفعل ذلك، قبل أن تفتح باب مكتبه.

- عشر دقائق، لا أريد رأيًا قبْلها، قال وهو ينظر إلى ساعته الرّياضية.

***

خفق قلب السكرتيرة بقوة، ولم يخطر ببالها سوى أنه يريد أن يقول لها: أعذريني لقد وجدتُ سكرتيرة بديلة لكِ، وأريد منكِ أن توافقي على تعيينها مكانكِ، ففي موافقتك احترام لكِ وللشهور الطويلة الجميلة التي أمضيناها معًا.

وقفتْ غاضبة، وسارت نحو مكتبه. توقّفت في اللحظة الأخيرة. ألقتْ نظرة أخرى على ذلك الوجه باهر الجمال، وأخذتْ نفَسًا عميقًا:

- أوهامكِ ستُفسد كلّ شيء، ابدئي العدّ حتى العشرة، لتهدئي. بدأت تعدّ، لكنها لم تهدأ، تابعت نحو العشرين، الثلاثين، وصلت المائة. عادت وجلست:

- لو كنتُ رجلا لما اخترتُ سواها في الحقيقة، وليكن الطوفان!

كسكرتيرة جميلة، خبيرة، كانت قد عمِلتْ طويلا على ترويض اندفاعاتها. عادت وكبحت جماح ثورتها منقِّلة عينيها بين الوجه والساعة. حان الوقت. أغلقتْ بركان الجمال الخاطف بأن طوت الصورة برقة، سارتْ بخطى واثقة، طرقتْ الباب ثلاثًا كما تفعل دائمًا، وجدتْه يسند وجهه فوق قبضتين تحتضن الواحدة منهما الأخرى.

- أنا جاهزٌ لأسمعكِ.

- لو كنتُ رجلًا لما اخترتُ سواها! قالت له.

- هذا ما كنتُ أريد سماعه منكِ تمامًا. لم تخيّبي حسن ظنّي فيكِ منذ اللحظة الأولى التي رأيتكِ فيها.

- هل هناك شيء آخر؟ سألتْه.

- أريدكِ أن تستعدي للسفر.

- أفهم من هذا أن عملي انتهى هنا؟

رغم كلِّ هدوئها الذي افتعلتْه، وإيمانها المطلق بمبدأ الصراحة، اكتشفت أن يدها اليمنى جُنّت حين راحت تسحق يسراها، ودهمَها ألم شديد.

- أريدكِ أن تحفظي هذا الوجه جيدًا وتحبيه، لأنكِ سترينه كل يوم مستقبلًا. قال لها.

- ومتى سأسافر؟!

- بعد بضعة أيام.. معي.

- هل تسمح لي بالسؤال؟ إلى أين؟

- كلّ ما عليكِ هو أن تتأمّلي الصورة جيدًا وتتآلفي معها كما طلبتُ منكِ.

- حاضر، قالت له واستدارت لتخرج.

حين وصلتِ الباب، وقبل أن تلامس يدها مقبضه، سمعتْه يقول: لا أريد أيّ حرب من أي نوع بينكما الليلة!

- مَن تقصد؟

- أنتِ والصورة.

***

يمكننا القول: إن ما حدث كان بمثابة مأساة مكتملة الوجوه كما أحسّت السكرتيرة، لكن الأمر في الحقيقة غير ذلك.

***

كان الليل وحده في الخارج حين هبط راشد الدرجات العريضة لبوابة المستشفى، ليل باتت حلكته تتزايد يومًا بعد يوم، ومعها تزايدت روائح العفونة في كل مكان، بسبب الرطوبة الناتجة عن غياب الشمس، ودهم

البشر حسّ بأن أكتافهم لم تعد قادرة على احتمال ثقل العتمة الصّلبة، ورغم أن الأمر أفزع الناس كثيرًا في البداية، إلا أنهم بدأوا يتعاملون معه كحقيقة أبدية لا حلّ لها.

أما هو، راشد، فقد كان على يقين من أن الناس يمكن أن يتأقلموا مع أسوأ الظروف في النهاية، وإن أبدوا احتجاجهم في البداية، ويبرهن على رأيه بذلك الحدث الذي تبدأ به حياة كل إنسان، ويعني لحظة الميلاد، حيث يبدأ الإنسان مشوار عمره بالصراخ، احتجاجًا على مغادرته دفء الرّحم، ولكنه ما يلبث أن يعتاد العالم الجديد، وإذا كان يبكي بين حين وآخر، خلال عمره، فإنه لا يبكي، في الحقيقة، لأن حزنًا ألمّ به أو مأساةً أصابته فقط، بل لأنه يفتقد، دون أن يعي، ذلك الرّحم الدافئ.

لو كانت أمّه على قيد الحياة، ورأت الليل الحجريّ الذي يراه، لأعادت ذلك المثل القديم: لقد وقع الفأس في الرأس.

لمح سرب خفافيش يعبر الظلمة المضاءة بأنوار واجهة المستشفى، لكنه لم يكن متأكدًا إن كانت خفافيش فعلًا، فقد لاحظ أن بعض الطيور بدأت تتأقلم مع العتمة، وعدّلتْ ساعاتها وغرائزها البيولوجية، بحيث حدّدتْ أوقاتًا جديدَة لغنائها ومواعيد تزاوجها، لكن طيورًا أخرى لم تتمكن من ذلك، لذا كان يمكن سماع غنائها في كلّ الأوقات، وهذا ما أصاب القطط أيضًا، إذ تحوّلت السّنةُ كلّها إلى شهر شباط طويل مكون من أثني عشر شهرًا، في وقت غدا فيه طائرُ البوم، وكلّ المخلوقات التي تتمتّع بقدرته على الإبصار أسعدَ الكائنات.

***

وصل راشد إلى البيت في موعده، ضغط زرّ المصعد، رآه يهبط من أدْوار لا وجود لها أبدًا. حيّره الأمر أكثر. لم يكن يتخيّل! التفتَ خلْفه للتأكّد من أنه في مدخل العمارة التي يسكنها. تأكّد. وزيادة في الاطمئنان، نظر تحت حذائه وتأكد من لون أرضية الرّخام المائل إلى الخُضرة المعتّقة كالعفن.

رفع رأسه، كان المصعد ما زال يهبط. أخيرًا توقّف، أُشرِعَ البابُ فوجد نفسه مرّة ثانية أمام جاره الرَّاصد الجوِّيّ .

كم كان يشبهه!

- هل تسخر مني؟ هل تنتظرني في شرفتكَ، وحين تراني تركض صوب المصعد؟ تتحدّاني؟

- أبدًا، ردَّ الرّاصد بهدوء أثار أعصابه أكثر.

- هل يمكن أن تفسِّر لي ما يحدث إذًا؟

- أنا لم أستطع مغادرة المصعد منذ الصباح.

- تواصل السخرية مني؟ صرح راشد.

- أبدًا، ولكنني لم أستطع الخروج إلى الشارع وآثار صفعتكَ على وجهي!

- ما زلتَ تسخر منّي.

- أبدًا، وتقدّم الجار خطوة، وصل الباب، وتراجع راشد نصف خطوة، وبكل ما لدى الجار من قوة صفع راشد، ثمّ تراجع وأغلق باب المصعد تاركًا إياه في الخارج.

تحت وقْع صدمة ذهولٍ لم يعشه في حياته من قبل، تجمّد راشد؛ وللحظات عابرة، بدا، وهو يستعيد نفسه، معجبًا بالرّاصد الجوِّي، وعلى يقين من أنه يشبهه فعلا، وأن عليه أن يحترم هذا الشبه لأن صاحبه يتحلّى بشجاعة نادرة، هي شجاعته هو، راشد، حين كان هنالك تحت سياط رجال القلعة.

راقب راشد المصعد يبتعد صاعدًا، فانتابه إحساس غريب بأن جاره الرَّاصد الجوِّيّ ، لا يعمل في الأرض، بل فوق السّحاب!

أريدُ رشاشًا

أمضى راشد الليل متكدِّرا. لم يكن قد تلقّى صفعة منذ آخر تحقيق أُجري معه قبل الزّواج، وإن كان قدَّرَ للجار شجاعته، لكن إحساسًا غامضًا عبره بأن الرّجل يعمل في مؤسسة قد تكون فوق كل المؤسسات، وأن مهنة الرَّاصد الجوِّيّ ما هي إلا قناع؛ وتساءل إذا ما كان جاره قد أمضى اليوم في المصعد، فعلًا، منتظرًا عودته ليثأر لكرامته.

هو، راشد، كان سيفعلها، سينتظر وينتظر إلى ما لا نهاية، وما كان يمكن أن يندسّ في حضن امرأته قبل أن يُشفي غليله.

- إذا كان الجار قد أمضى أكثر من عشر ساعات في المصعد دون أن يهدأ، فماذا لو أنني التقيته بعد الصفعة بخمس دقائق أو عشر دقائق، كان سيقتلني بالتأكيد. همس راشد لنفسه.

قرر أن يطلب من الضابط مسدّسًا، فقد تتطوّر الأمور في اتجاه لا يتوقعه. اليوم صفعه، وغدًا يأخذه إلى تلك الطوابق العُليا، التي لم يستطع التحقُّق من عدم وجودها، ويذبحه، وقبل أن يعود المصعد ثانية إلى الأرض سيكون قد نزف دمه كلّه.

.. وفكّر أن سعيه للحصول على مسدّس، قد يقوده لارتكاب حماقة كبرى، لكنه اتصل بالضابط، ودون مقدّمات، قال له:

- أريدُ رشاشًا.

- رشاشًا؟! لماذا؟!

كانت الرّشاشات والأسلحة قد باتت محظورة منذ حرب الكلب. لكن راشد يعرف أن الضّابط لا يستطيع أن يرفض له طلبًا، وقد علَّمته الأيام، أن يطلب شيئًا كبيرًا منه لكي يحصل على ما هو أصغر، فالضابط أمضى حياته في المساومة، مساومة المعتقلين على الاعتراف. في العادة يبدأ بطلب اعتراف كبير مُزلزل، ومع صمود المعتقل، يبدأ بطلب أشياء أصغر مع رفْع حدّة التعذيب. كلّما كان الأمر مُنصبًّا على اعتراف صغير، اشتدّت العقوبة، لدفع المعتقل إلى إجراء عملية حسابية للمقارنة بين قيمة الاعتراف وقيمة وقف التعذيب.

راشد يعرف هذا الدّرس، ولذا، كلّما كان التعذيب يشتدّ كان يصبح أكثر إيمانًا بأنه موشكٌ على الانتهاء، ويرى في المحقق جيشًا منكسرًا قرر إطلاق كلّ ما لديه من قذائف قبل لحظة الاستسلام بدقائق أو ساعات!

الضابط الذي كانت تشغله كثيرًا مسألة انكشاف تزويد أيٍّ كان بالأسلحة، أخبر راشد: مسدّس. هذا أقسى ما يمكن أن أزوّدك به.

- مسدس؟! وما الذي يمكن أن أفعله بمسدس؟! قال راشد.

- رشاش؟! وما الذي تريد أن تفعله بالرشاش؟! ردّ الضابط.

- قتْل أحد الصراصير إن اضطررتُ لذلك.

- راشد! أنت تعرف أننا لم نزل ندفع ثمنًا باهظًا بسبب حرب الكلب. بصراحة، لن أكون الفتيل الذي يُشعل حرب الصّرصار، مهما كان الإزعاج الذي يسببه لك هذا الصرصار. راشد، نحن نعيش في بلاد هشّة، مهما حاولنا بأنوفنا الشامخة أن نكتب على السماء غير ذلك.

- لا بأس، سأكتفي بالمسدّس، ولكنني سأعترف لك: كان عليّ أن أطلب مدفعًا منذ البداية.

- مدفعًا؟! ولماذا المدفع؟!

- إنه لا يلزمني في الحقيقة.

- ولماذا تقول بأنه كان عليك أن تطلب مدفعًا ما دمتَ لستَ بحاجة إليه؟!

- لكي تقول لي: إحضار مدفع مسألة صعبة. أقصى ما يمكن أن أحضره إليك هو الرّشاش.

- فهمتكَ، كنت تساومني منذ البداية، وتضغط عليّ.

- لكنني أخطأت لأنني لم أضغط كثيرًا.

- قلتُ لك يا راشد، لقد أصبحتَ تشبهني.

- في هذه سأعترف أنني بتُّ أشبهكَ قليلا.

- ماذا قلت؟ سأل الضابط.

- قلتُ، في هذه سأعترف أنني بتُّ أشبهكَ قليلا.

- راشد، أنا أشكرك. أشكرك فعلا. كان بودّي أن أُحضر لك رشاشًا، قال بفرح مُصطنع.

- تشكرني على ماذا؟

- تخيّل! إنها المرة الأولى التي تعترف لي فيها بشيء.

- ولكنني لم أعترف! قال راشد.

- لقد قلتَ لي بعظمة لسانك: (أعترف أنني بتُّ أشبهكَ قليلًا) أليس كذلك؟

- أجل، ولكنه اعتراف ناقص، اعتراف لا قيمة له، لأنني قلتُ (قليلا)، وقليلا هذه لا تعني شيئًا، لأن الحقيقة لا تتجزأ، وأنا جزأتها.

- لا تريد أن تفرحني حتى بهذه؟ قال الضابط، وهو يدّعي الأسى.

- هذه مسألة مبدأ يا خال أُبنائي وبناتي.

- مبدأ إذًا. على أيّ حال سأرسل لك المسدّس.

- مع من سترسله؟! بعد انتهاء العمل سأستلمه منك شخصيًا.

- أين ألقاك؟

- في بيتك، حين أصل، أُهاتفك، تخرج وتسلّمني إياه.

- اتفقنا؟

- اتفقنا.

***

لم يكد راشد يُنهي المكالمة، حتى تلقّى اتصالًا من أحد المسعفين، نحن أقرب إليكم من أيّ مستشفى آخر، هناك مريض أحضرناه من الشارع السّادس، ضاحية النهار! إنه مصاب بعشر طلقات في صدره. لا أعرف إن كنا نستطيع الوصول به إليكم حيًّا أم ميتًا. خفق قلب راشد بشدة.

- من يكون، هذا الذي يتلقى عشر رصاصات؟ سأل راشد.

- لقد أخبرتنا زوجته حينما اتّصلت: ستهتدون إلى البيت بسرعة أكبر إذا ما سألتم عن دار الرَّاصد الجوِّيّ .

- الرَّاصد الجوِّيّ؟!

- نعم الرَّاصد الجوِّيّ، هل تعرفه؟

- لا، لا أعرفه شخصيًّا، وإن كنت أظنّ أنه جاري.

- هذا أمر جيد، إذن ستُكْرمنا بصورة أفضل من المعتاد هذه المرّة.

- اسمعني. هل هنالك من يسمع حديثنا؟ سأله راشد.

- لا.

- السائق؟ المحاسب؟

- لا، لا أحد.

- قلتَ لي إنكم الآن قربَنا.

- إنني أرى يافطة المستشفى على يميني.

- سأُكرمكَ، أُكرمك كثيرًا، ولكن، فلتخبر السائق أن يتوجّه إلى أبعد مستشفى في المدينة.

- بعد أن أصبحنا على هذه المسافة القريبة منكم؟!

- لا تناقشني؛ واطلب منه أن يخفف سرعته.

- لك ما تريد.

كان راشد واقفًا خلف الشبّاك يراقب سيارة إسعاف مُنطلقة، مقابل المستشفى، وحين أغلق الخط، هيئ إليه أن سائقها أبطأ سرعتها فعلا، فاستدار متوجّها إلى طاولته وابتسامة عريضة تحتلّ وجهه.

***

وصل راشد إلى بيت الضابط، هاتفه، لم يُجب، وقبل أن يهاتفه ثانية، وجد الضابط ينقر على نافذة السيارة. كان الظلام حالكًا والصمت ثقيلا كحجر. فتح النافذة، فسمع أصواتًا عالية لطيور مختلفة كما لو أنها حبست في قفص واحد.

- خذ، المسدس جاهز.

أخرج راشد المسدس من قطعة القماش التي لُفَّ بها بعناية.

- ما هذا؟

- مسدس، أَوَلَمْ تطالب مسدسًا؟

- وما الذي أفعله بمسدس قديم مثله، أريد مسدسًا حديثًا.

- هذا كل ما ستحصل عليه.

سحب راشد مخزن الرصاص بحركة خبيرة، فجَفل الضابط: إنه فارغ أيضًا! أين الرّصاص؟

- راشد، أنتَ طلبت مسدّسًا، وهذا أقصى ما أستطيع أن أزوّدك به. الرّصاص مسألة ثانية.

- لا مشكلة إذًا. نعم، لا مشكلة، ولكنني سأزعجك قليلا. أريد أن تزوِّدني بعشر قنابل.

- عشر قنابل! لماذا؟! هل تريدُ أن تعلن الحرب على دولة ما؟!

- أريد عشر قنابل. والآن.

- راشد، يمكنني أن أمنحك عشر رصاصات وهذا أقصى ما يمكن أن تحصل عليه منّي.

- بل عشر قنابل.

- راشد، أرجوك، لا تحرجني في مسألة أمنية كبيرة كهذه.

أطرق راشد قليلا، وهو يتأمل المسدس الموضوع في حجره:

- قبِلتُ.

دخل الضابط بيته ثانية، وحين عاد، ناوله الرّصاصات التي وضعت في كيس بلاستيكي مُحْكَم؛ وانطلق راشد مبتعدًا دون أن يقول له شكرًا.

ساعة اللقاء

في صباح اليوم التالي فتح راشد باب الشقّة متمنيًا أن يُطلَّ جاره، مع أن إحساسًا بالذّنب كبيرًا أرّقه طوال الليل، إذ اكتشف أنه غدا لا مبدئيًّا بحيث فكّر في موت جار له بالطريقة التي تخيّلها، وبالخسّة التي تخيّلها، وهو مصاب بعشر رصاصات.

راقب لوحة المصعد، لم تكن هناك سوى أربعة أرقام!

أغلق الباب، تناولوا طعام الإفطار، بيضًا مقليًّا وخبزًا محمّصًا.

قبّلا الأولاد؛ هي قبّلتْ الخدود الأيامِن، وقبَّل هو الخدود الأياسِر.

وقفا في الشرفة الواسعة، تابعا الأولاد حتى ارتقوا درجات الحافلة المدرسية. تأكّدا من أن كلّ شيء بخير، وقبل أن يستديرا عائدين إلى المطبخ الواسع، رأى الرَّاصد الجوِّيّ متوجِّها إلى سيارته، فهمستْ له امرأته: هل صدّقتني، لقد بات يشبهكَ، فألقى بحسّه الكبير بالذنب، نتيجة خيالاته القاتلة، في أعمق بحار العالم.

دخلا..

طلب من زوجته أن تُعدَّ له حقيبته، هي التي استغربت تباطؤه في الخروج، ولكنها لم تقُل شيئًا. علّلت ذلك برغبته في قضاء أطول وقت إلى جانبها.

- سأسافر اليوم؟

- اليوم! لمَ لمْ تقل لي ليلة أمس؟

- قلتُ في نفسي لتكن مفاجأة لأنك ستسافرين معي، وتعودين معي.
- لم أفهم، والأولاد من يعتني بهم؟!
- أنتِ، مَن يمكنه الاعتناء بهم مثلكِ؟
- فهمتُ، الآن فهمتُ، وضحكتْ. ألهذا التقطتَ لي الصورة، لأكون معك؟!

ابتسم، دون أن يشرح لها شيئًا، فانطلقتْ إلى الداخل لإعداد حقيبة سفره بنشاط نحلة.

***

يمكننا أن نتحدّث عن ضفّة الحكاية هنا كمأساة مستترة، مع أن ضفَّتها الأخرى، كانت حتى ذلك الحين، مأساة أيضًا بالنسبة للسكرتيرة، لكن الأمور ستنقلب تمامًا كما ذكَرنا.

***

كانت السكرتيرة في انتظاره في قاعة المغادرين في المطار، لا تعرف إلى أيّ جهة ستحملها الطائرة، لكنها كانت فرحة برحابة القاعات وأنوارها وارتفاعات سقوفها. سار نحوها بثقة غريبة، كما لو أنه سيودِّع آخر أيام الطيش إلى غير رجعة، دون أن يفارقه خوف وحيد، أن يكون زهوه أمام المدير العام، سببًا في إغلاق باب السفر في وجهه. وضع حقيبة يده في العربة، في الوقت الذي كانت فيه العربة الصغيرة الآلية تنتظر الجهة التي سيمضي إليها لتتبعه! هكذا خُيّل للسكرتيرة!

- هل يمكنني أن أسأل ما الذي نفعله هنا؟

امتدت يده إليها بتذكرة سفر من تلك التذاكر التي كانت تستخدمها شركات الطيران في القرن الماضي، أشبه بكتاب صغير جميل، تفنّنت الشركةُ في إخراجه، بعد أن غدت تلك التذاكر موضة تتسابق شركات الطيران في تصميم أغلفتها ووريقاتها الناعمة الداخلية، لكن الحصول على واحدة منها كان يرفع سعر التذكرة بنسبة لا تقل عن 15%. شهقتْ

السكرتيرة حين رأتها، كأنها تلقّت رسالة غرامية حارّة غير متوقّعة، وشهقتْ ثانية حين قرأت اسم المكان الذي سيسافران إليه.

- لم أكن أتوقع أن نمضي في أيّ يوم معًا إلى (هناك)!

لم يُعلِّق.

- هل ما زلتِ تحتفظين بالصورة؟

- بالطبع، كيف يمكن أن أفعل غير ذلك؟!

- على أي حال أرسلتُها الليلة إلى هناك لتكون الأمور جاهزة ما إن نصل، فلا نُضيّع وقتًا، أيَّ وقت.

- أيّ أمور؟!

- ستكتشفين هناك.

***

حين تجاوزا النقطة الآلية للتحقّق من شخصيات المسافرين، وارتفعت حقيبتا ملابسهما في الهواء نحو بوابة لم ترها، كما خيِّل إليها، قال لها بسعادة فائضة:

- باستطاعتكِ الآن أن تكوني على راحتك، باستطاعتكِ أن تقبّليني. لن يراك أحد!

فوجئتْ بما قاله، فمنذ أن عرفتْه كان حذِرًا ومحافظًا إلى أبعد الحدود، ولو كان هنالك مطعم أكثر ارتفاعًا من مطعم الرياح الأربع، لما تردّد في الصعود إليه، حتى لو احتاج إلى مركبة فضائية.

- هل تعني فعلا ما تقوله؟ سألته وهي على يقين من أنه قد قرر الزواج منها غير عابئ بشيء.

- كما قلتُ لكِ، باستطاعتكِ أن تقبّليني هنا، فلا أحد يرانا، أُنظري حولكِ.

نظرتْ حولها، كان المطار مكتظًا بصورة جهنّمية، كما لو أن البلد قررت أن تهاجر! وفي الأعلى كانت صعقات قاتلة تقتل الغربان التي تحاول

الهبوط على القبة الزجاجية الضخمة للمطار، لكن رائحة احتراق لحمها، التي تخيلتها معتمة كالليل، كادت تلقيها في مهبّ وصلة سعال جهنمية تفتّت صدرها.

خيّل لها أن راشد قال: هناك تقنية جديدة بدأ استخدامها في المطارات، نحن نجرِّبها وحدنا اليوم كمكافأة خاصة من شركة الطيران، ويجري اختبارها الآن في بعض المطاعم، حيث لا يستطيع أحد أن يرى من يستخدمها أو يسمعه، حتى لو كان بجانبه!

- وكيف يمكن أن يخدمكَ النادل؟ خُيِّل إليها أنها سألته وهي تستعيد أنفاسها بعد نجاحها في طرد الرائحة من رأسها.

- هناك أكثر من حلٍّ، ولكن يمكن أن تشغلي بالك بهذا حين نذهب إلى المطعم بعد عودتنا، أما الآن، فباستطاعتكِ أن تقبّليني.

مالت نحوه بحذر، وهي تسأله: هل أنت متأكّد من أنهم لا يروننا؟

نظر إليها مؤنّبًا..

قبّلتْه.

الغريب أن عينيها اللتين بقيتا مشرعتين، لم تريا أحدًا ينظر صوبهما، أو هكذا خيِّل إليها.

على مقعد الطائرة، سألتْه: هل يروننا هنا؟

- لا، قلتُ لكِ.

- صحيح؟! لأنني أرغب في أن أقبلكَ مرّة أخرى.

- لِمَ لا تفعلينها إذًا؟

قبَّلتْه، مُغلِقَةً عينيها، بعد أن باتت مطمئنة إلى أن أحدًا لا يراهما.

حين أشرَعتْهما، كانت هناك، في غرفة عمليات جراحية تشبه مركبة فضائية لم يصنعها بشر، كما خيِّل إليها.

***

سأله الطبيب وهو يتأمّل الصورة، صورة زوجته سلام، على شاشة ضخمة رباعية الأبعاد:

- أظنكَ وفِّقتَ كثيرًا في الحصول على صورة لهذا النموذج. هل هي صورة حقيقية أم مُركّبة من عدّة وجوه، بإتقان؟

نظر راشد إلى السكرتيرة التي استلقتْ على سرير في غرفة العمليات، ويفصلهما حائط من أشعة بنفسجية شفافة، عازلة طبيًّا، حائط لا يستطيع أحد اختراقه دون أن يتسبب لنفسه بأذى بالغ نتيجة القوة الطاردة التي ستقذف به بعيدًا.

لوَّحتْ له.

ابتسم لها، وتابع حديثه مع الطبيب.

- إنها صورة حقيقية.

- هل وافقتْ صاحبتُها على استخدام صورتها؟

- نعم، وافقت، بل بدتْ سعيدة هذا الصباح حين أخبرتُها أن الصّورة سترافقني.

- هل لي بسؤال قد لا يبدو مُلتزمًا بأخلاق المهنة، أعني مهنتي كطبيب؟

- تفضّل.

- هل يمكن أن تعطينا إذْنًا باستخدام هذه الصورة؟ أضمن لك أننا لن نُنتج سوى عدة نسخ، لنقل عشرين نسخة، أربعين؟ وإذا وافقتَ، سأعتبر أن تكاليف العملية التي سنجريها للآنسة، في الداخل، صفر!

- لا. قالها راشد بصورة قاطعة أرعبت الطبيب.

- هل يمكن أن أسألك لماذا (لا) الكبيرة هذه؟!

- لأن هذه الصورة هي صورة زوجتي.

- ولكن.. لم أفهم. لمَ أحضرتَ صورتها بالذات؟!

- ببساطة لأنني أحبّها.

- تحبّها؟!

- كثيرًا، ولم أرَ أجمل منها في حياتي.

حاول الطبيب أن يقول شيئًا، فأوقفه راشد:

- أظنني أخبرتكَ أكثر مما يجب.
فأقام بذلك سدًّا أجبر الطبيب على الصمت.
- أنت مُصرٌّ على أن نبدأ العمل؟ قال الطبيب أخيرًا.
- بالتأكيد. لقد جئتكَ من بلد آخر لهذا الغرض.
- لكن دعني أخبرك، بأن هذا أغرب حدث مرّ عليّ في حياتي.
ضحك راشد، وقال: وأنا أيضًا!
فلم يضحك الطبيب من قلبه مع أن التّعليق أعجبه.

***

أغلقت السكرتيرة المستلقية عينيها، وهي تقترب من دخول نفق معدني فضيّ مثل تلك التي طالما رأتها في الأفلام، الأنفاق المخصصة لعبور الزمن. لم تمسسها فيه يدٌ ولم تنزف قطرة دم؛ وبعد قليل، كما خيِّل إليها، فتحتْ عينيها، فإذا بها خارج النّفق المضاء.

نظرتْ صوب راشد، لم تجده على يمينها كما رأته في المرّة السابقة. حيّرها هذا. حاولت أن تتذكر شيئًا لم تستطع.

نظرتْ يسارًا.. رأته.

لوَّح لها راشد هذه المرّة. لوّحت له، لكنها لم تستطع أن تبتسم. حيّرها ذلك، همستْ لنفسها: لا بدّ أن الابتسامات تشبه الكلمات التي لا يستطيع الإنسان نُطقها في حالات معينة. أحسّت بالابتسامة في قلبها.

أغلقتْ عينيها.

***

في جلسة مع الطبيب، حرص عليها راشد، لكي يشكره على النتائج المُبهرة، ويتبادل معه بعض الأفكار حول تقنية الأنبوب تلك، وإمكانية نقلها إلى حيث يعمل، لم يكتم راشد دهشته وهو يقول: أظن أن هذا أعظم انجاز طبيّ حتى الآن: يدخل الإنسان من فتحة، ويخرج من الأخرى إنسانا آخر، بل على صورة أي إنسان آخر يريد أن يكون مثله!

- لا تنس سيد راشد أننا لم نستخدم أكثر من عشرة بالمائة فقط من قدرات هذا الاختراع.

- هل يمكن أن توضّح لي أكثر؟ سأله راشد وهو يحاول كبْحَ اندفاعه لامتلاك تلك التقنية.

- إننا قادرون على مناغمة كل تفاصيل الجسم، في وقت واحد، بحيث نتحكم في محيط الرقبة، الخصر، حجم الصدر، السّاقين، الأرداف، بدقّة متناهية؛ دون أن نكون مضطرّين لحقن الجسم بأي موادّ. كل ما نفعله هو تنشيط تكاثر بعض الخلايا، أو ترحيل بعضها إلى أجزاء أخرى، أو شطب الأجزاء الزائدة، وكل ذلك بيسر تام، بمعني أن الشخص، رجلا كان أو امرأة يستطيع تحديد مقاسات ملابسه كما يريد، ونحن نحقّق له ذلك، فقط بالضغط على مفاتيح الجهاز ومراقبة صورة نموذج الجسم الذي أمامنا على الشاشة بكل أبعادها.

- وهل في اعتقادك أن باستطاعتنا شراء مثل هذه الأجهزة؟ سأل راشد.

- هذا الجهاز، مع عشرة أجهزة أخرى، في عشر عواصم كبيرة، تملكها الشركة مباشرة، لا المستشفيات، وهي لا تنوي تعميمها أكثر من ذلك.

- ألا ترى أن في ذلك ملامح احتكار، وتمييز أيضًا؟ فشخص يمكنه أن يتنعّم بقدرات الجهاز، وآخر، أو أخرى، في مكان ما، لا يستطيع.

- لن أبوح لك بسرٍّ إذا ما قلت لكَ إن الأمر عكس ذلك، فالخطوة المقبلة هي طرْح النموذج الشخصيّ من هذا الجهاز.

- أتعني..؟

- تمامًا سيد راشد. سيكون لديك جهازك الخاص في بيتك، أو لنقل جهاز العائلة الخاص، بحيث يستطيع أيّ فرد فيها، خلال دقائق، أن يُنحِّف جسمه في موضع ما، أو يجعله أكثر امتلاء في موضع آخر، قبل أن يتوجّه إلى أيّ سهرة أو حفل أو زيارة. أي أننا بعد اليوم لن نتخلص من أي ملابس نحبّها لأنها ضاقت علينا.

- هل علينا أن ننتظر إذًا؟

- ولكن الأمر يستحق الانتظار، ثم إن سنة أو أقل، ليست فترة طويلة، مقابل تلك البهجة التي ستغمر نفوس مستخدمي هذه الأجهزة التي ستشكل ثورة في عالم التجميل.

- هل يمكن أن يحجز المرء جهازه؟

- سياسة الشركة المنتجة تمنع هذا. يؤسفني أن أقول لك سيد راشد، عليك أن تنتظر، ولا أظن أن لديك مشكلة، إذ باستطاعتك أن تركب الطائرة وتأتينا في أيّ وقت، فالجهاز الأكبر تحت تصرّفك.

***

كانت السكرتيرة مُتعَبة. خيّل إليها أنها نامت يومين على الأقل. باحت بذلك لراشد، فقال لها، بل نمتِ نصف ساعة لا غير بعد العملية.

- نصف ساعة لا غير؟!

- أجل، لا نستطيع أن نتركك وقتًا طويلًا، فما حدث كان يستحق أن نحتفي به قبل ربع ساعة!

- وما الذي حدث؟

- هل تستطيعين السير نحو تلك المرآة؟

- أظنّ ذلك.

أنزلتْ قدميها، حشرتهما في خفّين أبيضين طريين للغاية. وقفتْ.

- هل أسندكِ؟

- لا، كلّه تمام.

بوجل سارت نحو المرآة، غير عارفة بما بتُّم كقراء تعرفونه بالتأكيد! راقبها راشد فرِحًا، وتأكد للمرّة الألف من الشبه الكبير بين قامتها وقامة سلام. ومع تقدّمها، خيّل إليها أنها ترى في المرآة وجها تعرفه، وجهًا رأته، ولكنها نسيتْ أين، وتقدّمتْ أكثر. تذكّرتْ، تذكّرتْ جيدًا، بحيث خيّل إليها أنها ترى ما تراه حقًا، وأن تلك التي أمامها مجرد نسخة ورقية مؤطرة للصورة التي رأتها!

لكنها كانت مرآة، ولم يخيّل لها هذا! تحسّستها.

وقفتْ طويلا تتأمّل ذلك الوجه العذب، أجمل وجه تقع عليه عيناها، الوجه الجميل النابض بالصفاء والعذوبة. استدارتْ ببطء، ولكنها قبل أن تكمل الاستدارة، عادت ونظرتْ إلى المرآة ثانية خائفة من أن يختفي ذلك الوجه الذي لا تريد أن تفارقه. واصلتْ النظر إليه خمس دقائق أخرى. سمعتْ راشد يهمس لها، وقد غدا خلْفها تمامًا:

- أعجبكِ؟

وخيِّل إليها أنها راحتْ تبكي من شدّة الفرح.

استدارت واحتضنتْه، فعصفت بجسد راشد رغبة محمومة، لم تتقد فيه من قبل، فمنعته من التقدم نحوها أكثر مستخدمة راحتيها. همست في أذنه: ادّخر نيرانكَ، ألم تقل إننا سنبقى هنا عدة أيام. وحين ابتعد قليلا، بدا لها مثل حفنة ذُرة على النار تتقافز في وعاء زجاجيٍّ سميك.

عاصفة الهواجس

كان الضابط قد أضحى قلِقًا عندما اتّصل ببيت أخته مستطلعًا، فأخبرته أن راشد سافر. أكثر ما خشيه أن يكون راشد قد عاد إلى سنوات تهوّره الأولى، ولم يكن طلبه للمسدس إلا لتنفيذ عملية كبيرة.

لم يستول عليه سوى هاجس قيام راشد باختطاف طائرة. فبدأ يتنقّل بين مصادر الأخبار باحثًا عن ذلك الخبر الكارثة، رغم معرفته أن مُختطفي الطائرات ما عادوا يستقلونها إذا ما أرادوا السيطرة عليها، كما لم يعودوا بحاجة للمسدسات.

مرّ اليوم الأول لسفره بخير، فأعاد ترتيب المشهد من جديد: يبدو أن راشد قد اخترع حجة السفر لتمضية عدة أيام مع السكرتيرة.

اتصل براشد، لم يتلقّ جوابا، اتصل بمكتبه، سمع صوتًا لا يشبه صوت أي صوت، صوتًا غليظًا لرجل بدا له أنها المرة الأولى التي يستخدم فيها الهاتف. سأله إن كان باستطاعته أن يتكلّم مع راشد، فردّ كأنه يلاكمه: غير موجود.

- متى سيعود؟
- إنه مسافر.
- هل يمكنني التحدّث مع سكرتيرته؟
- إنها غير موجودة.
- متى ستعود؟

- إنها في إجازة.

- معه؟

- لا ليست معه، قلت لك إنه مسافر وهي في إجازة، فكيف يمكن أن تكون المُجازة مع المسافر؟!

وأغلق السكرتير البديل الخطَّ.

انطفأت هواجس الضابط الأمنيّة وقد نحّاها جانبا، وكم أراحه هذا؛ ولكي يقطع الشكّ باليقين، طلب من أمن المطار إعلامه إذا ما كان راشد، قد غادر المطار، وعلى أيّ رحلة، إن حدث ذلك.

- هل تريد أن نمنعه من المغادرة إن لم يُغادر؟

- أبدًا، فقط أريد أن أعرف.

بعد ثلاث دقائق اتّصل به أمن المطار: لقد غادر البلد فعلًا.

- إلى أين؟

- إلى هناك، هل تريد منّا أن نعتقله فور عودته؟

- لا، فقط كنتُ أريد أن أطمئن عليه.

- سأتصل بحضرتكَ فور وصوله.

- أشكركَ.

***

فكّر الضابط يومها أنه أساء الظنّ، أمنيًّا، بصهره، ولكي يخفِّف من حسّه بالذنب، أرجع ذلك إلى طبيعة مهنته القائمة على الشكّ في الناس إلى أن تثبتَ إدانتهم!

مظاهرة الجمال

أكثر سعادة أصبح راشد، فقد كان نجاح العملية الجراحية، غير الجراحية! وعدم ظهور أي بادرة عداء من المدير العام، أشبه بنصرين كبيرين في معركة واحدة.

أما ما لم يستطع تفسيره، فهو ذلك التحوّل الذي ظهر على السكرتيرة بعد العملية، إذ اتحدتْ حرارتها القديمة مع ذلك السرّ الخفيّ لجمال زوجته، ليشكلا معًا كائنًا ثالثًا، سكن السكرتيرة، تكوّن من أجمل ما في المرأتين من سحر، مُطلِقاً عاصفة من فتنة قد يحسّها المرء، ولكنه يحتاج إلى موهبة نادرة كي يراها.

وقت طويل سيمرّ قبل أن يسمع راشد شيئا آخر عن ذلك التحوّل.

***

يخرج راشد من الشقة مودّعًا زوجته، يصل مكتبه، فيجدها هناك في استقباله! حتى أنه أعاد صياغة ما قاله لأمّه ذات يوم، فأصبح: الدنيا جميلة، وهي عادلة أيضًا. وعلى الرغم من أنه، عاش حياته، مؤمنًا: أن الهدايا الثمينة لا تُقدَّم إلا كثمن لجسد المرأة أو لإسكاتها، أما الهدايا الجميلة البسيطة فإنها تقدَّم للوصول إلى قلبها، إلا أنه أفرط في إهداء السكرتيرة هدايا الصنف الأول، رغم عدم اضطراره لذلك.

***

لاحظ جميع من في المستشفى أن راشد صار يصل إلى المستشفى قبل ربع

ساعة من السابق، وأعادوا ذلك، بهمساتهم النميميّة، إلى أنه لا يطيق فراق السكرتيرة الجديدة. ما حيّرهم أن زلازل فترة الظهيرة وارتداداتها كانت متواصلة بالوتيرة نفسها، بل بمقاييس رِخْتريّة أعلى!

أما هو فقد عاد من جديد ووحّد هويته الجنسية التي اختلّت لوقت غير قليل، واختفى ذلك السؤال الذي كان يهبط عليه بين حين وآخر، وهو على وشك بلوغ قمم لحظاته الحميمة فيكاد يحيلها وديانا: أهو مع زوجته أم مع السكرتيرة؟ وتلاشى تمامًا ذلك الحسّ بالذنب لأنهما اتّحدتا في كائن واحد، كالنهر، بضفّتين. ولم يعجبه شيء مثلما أعجبه وصفهما بالنهر، إذ لم يزل يتذكّر مقطعًا لأحد الشعراء، نهايته:

وهل يصبح النهرُ نهرًا إذا ما تجمّع في ضفةٍ واحدةْ؟!

***

راشد كان قد فكّر في طريق عودته من (هناك)، ببعض المنغّصات التي تنتظره، مثل: كيف يمكن أن يُعيِّن سكرتيرة مكان سكرتيرته، وكلاهما تحملان الاسم نفسه، وهما مختلفتان تمامًا؟

قبل أن تفتح السكرتيرة عينيها على أرض المطار كان قد وجد الحلّ. سيقول إنه عيَّن سكرتيرة جديدة، وبما أنه صاحب قرار التعيين هذا، فأنه سيتكفّل بنفسه بدفع كلّ مستحقات السكرتيرة القديمة التي فُصِلتْ تعسّفًا، ودفْع رواتب السكرتيرة الجديدة من جيبه الخاص.

طرَح المسألة بوضوح لا لُبس فيه ما إن حضر المدير المالي للمستشفى، في اليوم الثالث لعودتها، ليستفسر عن الموظفة الجديدة، ولم يكن همّه في الحقيقة سوى التمتّع بسحرها الذي غدا على كلٍّ لسان.

حين قرع جرس الباب، سمع صوت رجل يدعوه للدّخول، لم يكن في الحقيقة سوى صوت راشد نفسه.

فوجئ المدير المالي بأن مكتب راشد أصبح مكان مكتب السكرتيرة، وهذا أمرٌ لا يمكن أن يحدث، ولم يره في أيّ مكان.

- تفضّل. دعاه للجلوس.

المدير المالي قلّبَ الغرفةَ بعينيه باحثًا عن السكرتيرة، حتى أنه استرق النظر، بأن أسقط قلمًا، وتناوله، متوقِعًا أن يراها مُتلبِّسةً تحت الطاولة!

لم يرها.

- أعرف ما الذي تريد أن تعرفه. السكرتيرة، مكتبها في الداخل، ومنذ اليوم هذا مكتبي.

- أليس ذلك غريبًا؟!

- أبدًا، لعلْمكَ، ما تقوم به هي، أكبر بكثير مما أقوم به، ولذا يجب أن يتوافر لها جوٌّ العمل المناسب.

- وكيف يمكنها إدخال القادمين لرؤيتك؟!

- ولماذا توجد كاميرا أمام الباب؟ ومكبر صوت يستخدمه المراجعون؟

- أقنعتَني، قال بغباء، ولكن هل تعتقد أن هذا يكفي؟

- بالطبع يكفي، إذا ما جعلنا الناس يعتادون القدوم في المواعيد المحددة تمامًا، وألزمناهم بذلك.

- ألا تعتقد أن أحدهم قد يأتي في موعده، ويكون لديك اجتماع لم ينتهِ؟

- لا، لأن الاجتماع يجب أن يبدأ في وقت محدّد وينتهي في وقت محدّد. قال راشد.

- أي لا ضرورة لأن ينتظركَ أحدهم على كرسيّ مريح في حال وصوله مبكرًا، احترامًا له ولكَ أيضًا؟

- الذي يحترمني، ويحترم نفسه، يأتي في الوقت المحدّد. قال بحزم.

- أقنعتَني! قال، وقد أدرك خطأ مجيئه بلا موعد.

***

خرج المدير المالي دون أن يرى السكرتيرة. قيل له: لديكَ فرصتان كلّ يوم لمشاهدتها: عند خروجها صباحًا للتمتّع بأشعة الشمس أمام المستشفى، وعودتها، وعند خروجها مساء لتأمّل النجوم، وعودتها!

كان نصف موظفي وأطباء المستشفى في ذلك الممرِّ عند الساعة الخامسة مساء، وقد جاء بعض المرضى وهم يتكئون على حوامل أكياس الجلوكوز، ووصل بعضهم على عربة صغيرة يدفعها ممرض أو ممرضة، وطلب بعض أولئك الذين حملتْهم سيارات الإسعاف أو ذووهم، التمهُّل قليلا لاستطلاع ما يدور. حين لمحوها، أوشك بعضهم أن يقفز من سرير الطوارئ ذي العجلات لكي ينعموا بالاقتراب منها أكثر. أما المدير المالي، فقد أقسمَ أنه على استعداد لمنحها راتبه كلّه، لقاء عملها، لا كسكرتيرة له، بل مديرة عليه.

وقفت أمام المستشفى، رفعتْ رأسها بهدوء، تتأمل، كما لو أنها الشخص الوحيد على وجه الأرض. تجمعوا حولها، نظروا حيث تنظر، إلى حيث النجوم، فرأوها تتكاثر أمامهم، وتتكاثر، حتى تلاشت العتمة.

استدارت عائدة، فساروا خلفها مسحورين، إلى أن سمعوا الباب يغلق خلفها، فانتبهوا.

***

أدرك راشد معضلة الممرّ وما تسببه من ارباك وإزعاج له. رغم زهوه الشديد بكونها له، له وحده، ويستحقّها؛ فقرر أن يفتح بابًا خاصًا للطوارئ، بعيدًا عن مسار مشوارَي دخولها وخروجها. لكنه لم يستطع التحكّم بطوفان العاملين والأطباء والمرضى المقيمين.

كان عليه أن يجد حلًا، وإلّا فإن الأمر سيفلتُ من يده؛ فمظاهرة الاحتفاء بالجمال، لا يمكن لأحد إلّا أن ينضمّ إليها، ما إن يلمح، ولو خطفًا، ذلك الوجه الباهر.

ترك لها حرية الخروج للتنزه من الباب الذي تختار، ناصحًا إياها بالاعتماد على حاسّتها السادسة. تلك الحاسة التي كانت تشير عليها، دائمًا، أن لا تخرج إلّا من الباب الذي ينتظرها أمامه أكثر عدد من الناس!

حاول راشد أن يتذكر إذا ما كان أمر كهذا حدث مع زوجته. فوجئ أن

ذلك لم يحدث أبدًا، أو على الأقل في كلّ مرة كانت فيها معه، إذ لم يسبق أن تجمع الناس حولها، لمشاهدتها، كما يحدث مع السكرتيرة. بحث عن إجابة مقنعة للأسئلة التي انهمرت في رأسه، فازداد السرُّ غموضًا.

عصير الملح

انتظر الضابط أربعة عشرة يومًا قبل أن يطرُق باب أخته. أمضى كلَّ لحظة منها ينتظر وصولها منفوشة الشعر، ذائبة الكحل.

لم يحدث شيء من هذا.

فكّر أن يتّصل، في غياب راشد، تراجع، لم يكن يريد أن يطوف حول موقع الجريمة التي ارتكبها مثل أي مجرم ساذج.

شاهد فيلم الفضيحة الزوجية، الذي صُوِّر في مطعم الرياح الأربع من أربع زوايا، عدة مرات. كل ما فيه يكفي لطلاق لا رجعة عنه.

لم يفتْه أن يتساءل في نفسه، خائفًا، عن شجار قد اندلع بعد عودة الزوج لزوجته في ذلك اليوم، وانتهى بمقتلها، ومغادرته للبلد.

سيكون قد ارتكب جريمة، فعلا، مستخدما يدَي زوج أخته.

***

اتصل براشد ما إن علِمَ بعودته، سأله مباشرة:

- هل استخدمتَ المسدس؟
- لا، ما الذي يجعلك تعتقد أنني استخدمتُه؟
- لأنني خشيتُ أن تكون فعلتها وقتلتَ الصرصار.
- لا لم أفعلها.
- هل تعني أن خطتكَ ما زالت قائمة؟
- بل ألَغيتُ الفكرة من أساسها.

- منٍ أساسها؟! ما الذي حدث؟
- لنقُل حسِّيَ بالذَّنب.
- هذا يعني أنك لم تقتله.
- لقد فكرتُ في قتْله. كان شيئًا فظيعًا أن أصل إلى هذه الدرجة من التهوّر والرّعونة.
- المهم أن الأمور انتهت عند هذا الحدّ؛ ولكن إذا كنت غاضبًا عليه حقًا فيمكنني أن أساعدكَ. هذا سيخفّف غضبكَ عليه تمامًا، بحيث لا تعود للتفكير ثانية في قتْله!
- هل يمكنك أن توضّح لي أكثر؟! سأله راشد.
- نعتقله عدة أيام ونعذِّبه، ونعيده محطّمًا بحيث لا يزعجكَ أبدًا.
- هل تتحدّث بجديّة؟
- طبعا بجديّة.
- لا أعرف كيف يمكن أن تخطر ببالك فكرة كهذه! تُعذِّبه؟! علّق راشد مستنكرًا ومُبديًا اشمئزازه.
- ولكنك كنت تريد أن تقتله!
- لكنني تراجعتُ.
- لم يحدث شيء، سأسحب عرضي، هل يرضيكَ هذا؟
- بالطبع يرضيني، لا يمكن أن نكون بشعين إلى درجة أن نتعامل مع تعذيب الآخرين كلعبة.
- أعتذر لك. أظنني أخطأت فعلًا. ولكن، لديّ طلب بسيط: ما دمتَ تراجعتَ عن فكرة استخدام المسدس فأرجو أن تعيده إليّ.
- المسدس؟ كيف يمكن لي أن أعيده إليك؟! وإذا خطرت ببالي فكرةُ قتْله مرّة أخرى، بماذا سأقتله؟!

***

وجد الضابط أن أفضل طريقة للخروج من ذلك الموضوع فتْح موضوع آخر يجمعهما:

- ولكن قلْ لي، كيف أنت وسلام والأولاد؟ منذ زمن لم أركم.

- كلّهم بخير، أعذرني، لقد سافرت، ولهذا لم أستطع الحديث معك في الفترة الماضية.

- رحلة عمل؟

- رحلة عمل بالطبع، قال راشد، لقد مضى ذلك الزمان الذي كنّا فيه شبابًا ونذهب في رحلات عاطفية.

لم يُعلّق الضابط، سأل:

- متى تتوقّع أن نراك؟

- في أيّ وقت، ما رأيك أن نلتقي الليلة في مطعم الرياح الأربع؟

جفل قلب الضابط.

- مع سلام؟

- لا، أظن أننا بحاجة لجلسة خاصة! يمكن أن تمرّ وتزور سلام والأولاد قبل أن تأتي إلى المطعم. ما رأيك؟

- نلتقي في التاسعة مساء إذًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

***

سبع كلمات أقلقت الضابط: رحلات عاطفية، مطعم الرياح الأربع، جلسة خاصة!

- هل يكون راشد استطاع تفكيك رموز لغز إطباق سلام عليه متلبّسًا؟ ولماذا لم يختر مطعمًا آخر؟ هل ليعيدني إلى موقع الجريمة رغمًا عنّي ويراقب ردود فِعلي؟

الضابط يعرف أن راشد غير سهْل، ولو تُرِك الأمر للعاملين في القلعة عشرين سنة أخرى، لما كان باستطاعتهم الإيقاع به، لا بالعصا ولا بالجزرة. ولولا أنه بات يعرف نشاطاته كلّها، التي تصل إلى درجة عالية من درجات الاتّجار بالبشر، لقال: إن راشد يخطط لشيء كبير ضدّ البلد!

***

مساء ذهب الضابط لزيارة شقيقته. أوقف السيارة في الشارع، مقابل البناية تمامًا، راقب البناية بقوة إبصار 4 بوم، لم يُثر انتباهه شيء، ترجّل، أُشرِع الباب الخارجي، لفحته رائحة العفونة كصفعة، وبعد خطوات، وجد نفسه وجهًا لوجه مع راشد. ارتبكَ، كان على وشك أن يقول شيئًا.

- أنا لست هو، أنا الرَّاصد الجوِّيّ.

تلعثم الضابط. لا بدّ أنه يمزح.

- راشد؟!

- قلتُ لكَ أنا لست هو. وابتعد.

راقب الضابطُ الرَّاصد الجوِّيّ، فتأكد له أنه الرَّاصد الجوِّيّ فعلا، أو أي شيء آخر، فقد مضى نحو سيارة يبدو أنها جُمِّعَتْ من سيارات مختلفة الأنواع، وأقام هذا الكائن الذي لا ينتمي لعالم السيارات الحديثة أبدًا.

جأر محرّك السيارة سبعًا، قبل أن ينفث دخانًا أغلق مدخل البناية كواحد من حجارة أزمنة الكهوف.

أغمض الضابط عينيه للحظات، انطبقت رئتاه، وفي عتمة ذلك الدخان مضى يصعد الدرجات متعثرًا، لا يستطيع أن يعرف إن كان يضع قدميه في المكان الصحيح أم لا.

قرع جرس باب بيت أخته، وأنتظر. لم يُفتح الباب، وهيئ إليه أنه سمع صوت أقدام تسير بخفّة. عاد وحدّق في عدسة الكاميرا، ثم قرع الجرس مرّة أخرى.

كان على وشك الانصراف حينما فُتح الباب وأطلّتْ أخته.

فوجئ بها سعيدة كما لم يرها من قبل.

- لقد رأيتُ شخصًا يشبه راشد تمامًا، أم أنني أتخيّل؟! قال لها وهو يفرك عينيه.

- لا، أنت لا تتخيّل، قالت وهي تدعوه للدخول بسرعة.

- إنه مثله تمامًا، لولا سيارته التي صعد إليها لقلتُ إنه هو! كيف يمكن أن يتطابق جاران إلى هذا الحدّ؟

- لا أعرف. راشد سيشرح لك، فهو على يقين من أننا حين سكنّا هنا، لم يكن ذلك الرجل يشبهه في شيء، لكن الأمر اختلف فيما بعد حين قلتُ له أنا: إنه يشبهكَ! راشد يقول: ربما حدث ذلك مع تبدّل الأحوال الجوية، وتداخُل الفصول التي تكاد تكون فصلا واحدًا مجتمعًا في يوم واحد! لقد لاحظتُ مرارًا أن الفكرة ترعبه.

وصمتتْ سلام وهي تنظر إلى أخيها، فسألها:

- وماذا هناك أيضًا؟

- لا شيء. لا شيء. هل صادفتَ من قبل أحدًا يُشبهكَ؟

- أنا؟ أبدًا، أظنني سأقتله لو حدث ذلك.

- تقتله؟!

- أكيد، أظن أن مرآة واحدة تكفيني. وجود شخص يشبهكَ، يعني أن تخرج كل يوم إلى عملكَ، أو أي مكان آخر، ومرآة الصالة معك. هذا جنون، أليس كذلك؟

- بالنسبة لي لم أتعامل مع الأمر هكذا؟

- ماذا تعنين أنكِ لم تتعاملي؟! هل حدث وأن رأيتِ واحدة تشبهكِ؟

- لا، لم أرَ، صديقة لي قالت إنها رأتْ واحدة تشبهني، فضحكتُ كثيرًا، وقلتُ لها، لأنكِ تحبينني أصبحتِ ترينني في كل مكان، أم أنني كابوسكِ؟ فقالت لي بلطف: ليتَني أراكِ كل يوم! لكنْ إذا ما سألتَني، سأقول لكَ إنني لست مطمئنة تمامًا، لأنني سمعت بأن هناك حالات شبه كثيرة بدأت تظهر بين الناس. هل هذا صحيح؟

- حتى الآن لم نتأكّد من شيء، وما دمنا نحن لم نتأكّد، فأستطيع أن أقول لك إنها مجرد إشاعات.

عادت سلام إلى صمتها وكأنها تذكّرتْ شيئا ما كان عليها أن تنساه، وحين فتحتْ فمها قالت له:

- أخبرني راشد بأنكما ستتناولان العشاء معًا هذا المساء.
- هل قال لكِ أين؟
- بالطبع، في مطعم الرياح الأربع.
- إنه مطعم جيد، ألا تعتقدين هذا؟
- أفضل مطعم دخلته وأكلتُ فيه، لولا أنه يذكرني...
لم تُكمِل.
- يُذكِّركِ بماذا؟
- لا شيء، هل قلتُ: يُذكِّرني؟
- أجل قلتِ.
- لا أظنّ، يبدو أنني كنت أفكِّر في شيء آخر، ولكن قل لي: لماذا لم يختر مطعمًا آخر؟
- ماذا تعنين؟
- مطعمًا أقرب. في الحقيقة أسوأ ما في ذلك المطعم بُعده.
- لا أعرف لماذا اختاره، فهو الذي دعاني، وليس من اللائق أن أحدّد المطعم الذي سأُدعى إليه.
- معكَ حقّ. ولكن، ألم تلاحظ أنكَ لم تجلس بعد؟!
- لأنكِ أخذتِنا للبعيد في حديثكِ ناسيةً أنني ضيفكِ.
- أيّ بعيد تعني؟
- الحديث عن العشاء والمطعم.
أشارت إليه أن يجلس.
- أنت لم تزرْنا منذ زمن طويل، منذ أسبوعين على ما أظنّ! بل منذ أسبوعين بالتمام والكمال.
- أشغال، أشغال كثيرة.
- لم تسألْني عن وضع العائلة، وما إذا كانت أمورنا جيدة كالعادة؟
- ولماذا أسألكِ، وأنا متأكدٌ من أنها جيدة؟

- ولكنكَ كنتَ تسألني دائمًا عن ذلك.
- ربما في بداية زواجكما؟!
- لا، حتى في زيارتك الأخيرة سألتَني، وحيّرني أنكَ ألححتَ.
- ربما لم يكن لدي شيء أقوله في ذلك اليوم.
- وماذا عن اليوم؟
- ماذا عن اليوم؟ أبدًا، منذ أن دخلتُ رأيتكِ سعيدة كما لم أركِ من قبل.
- لهذا لم تسأل!
- كان سؤالي سيبدو غبيًّا لو سألته وأنا أرى السعادة في عينيكِ؟
- أنتَ تحيرني اليوم، تأتي بعد أسبوعين، وتقول لي إنكَ مشتاق إلينا، ثم تبدو مستعجلا إلى هذا الحدّ!
- ومن قال إنني مستعجل إلى هذا الحدّ؟

نظر الضابط إلى حيث أشارت سلام، وهاله أنه كان يجلس على طاولة بجانب الأريكة.

نهض بسرعة، وقال: اعذريني. لم أنتبه.

- كيف تقول شيئا كهذا: اعذريني! وحاولتْ تقليده. أنتَ أخي، أم أنكَ نسيتَ هذا أيضًا؟
- كيف لي أن أنسى؟
- استرح، هذه الأريكة هي أريكتكَ المفضلة. أنا أعرف ذلك. كل منّا له أريكة مفضلة في كلِّ بيت يزوره، وفي بيته بالطبع، أليس كذلك؟
- أجل.
- ماذا تحبّ أن تشرب؟
- عصير، أيّ عصير.
- أنت تطلب، وطلباتك منفّذة، ليتَ راشد لم يدْعُكَ الليلة، لكنتُ أعددتُ لك طعام العشاء بنفسي.

- كان هذا سيسعدني.

- لا مشكلة إذن، سأتحدّث مع راشد وأقول له لقد غيَّرنا مكان الدعوة، وأنا سأدعوكما.

صمت الضابط قليلا، وفكّر: أي ليلةٍ جحيمية تلك التي سيُمضيها في هذا البيت لو أن الاثنين اجتمعا عليه.

- لقد وعدتُه، وأظن أن سكرتيرته قد حجزتْ لنا طاولة منذ الظهر.

توقّفت قبل أن تصل باب المطبخ، وسألتْه: سكرتيرته؟

ارتبك.

- هذا ما أظن أنه جزء من عمل السكرتيرات بين حين وآخر.

- هل سبق لك أن رأيتَها. يقال إنها سكرتيرة دقيقة في عملها.

- لم أستطع تكوين انطباع عنها.

- ولا عن جمالها؟! سألتْه ضاحكة بخبث وأسى، قبل أن تسأله، هل تريدُ عصيرًا طازجًا؟

- طازجًا بالتأكيد، فأنا أعرف أن حصول راشد على الفواكه الطازجة لم يزل ممكنًا.

غابت سلام. سمع صوتها يأتي من داخل المطبخ:

- الأولاد، آه من الأولاد، كارثة، لا يتركون سوى الفوضى، أتعرف؟ هوايتهم إيقاع بعضهم بعضًا في مقالب لا تحتمل.

- إنهم أولاد في النهاية! قال بصوت مرتفع.

أمسكتْ بحبة برتقال في السلة الموضوعة على طاولة المطبخ، تأمّلتها، ثمّ أعادتها إلى مكانها. فتحتْ علبة صغيرة، أخرجت منها كبسولة. وضعتْها في كوب وسكبت عليها ماء من الصنبور، حرّكتها بسكِّين، فانتشر اللون البرتقالي، سارت نحو باب المطبخ. توقّفتْ، فكّرت قليلا، ثم

همست: ملح، فانفتح باب إحدى خزائن المطبخ وامتدت لها ذراع بعلبة ملح، ملأت ملعقة كبيرة وسكبتها في الكوب، في وقت كانت الذراع تعيد العلبة إلى جوف الخزانة. حرَّكتها بالسكين.

خرجتْ.

ناولتْه إياها.

أخذ جرعةً، فوجئ بطعمها.

- كأنكَ لم تحبّ العصير؟!

- بالعكس، جيد، جيد جدًا.

شرب نصفها.

حرب نصف الكلب

ما إن وطأت قدما الضابط رصيف الشارع حتى صفعته العفونة ثانية، قبل أن يسمع صوت رصاص كثيف، تمنى أن تكون هناك معركة! لكنه كان يعرف أن المسألة متعلّقة بوجود عرضٍ أوّلَ لفيلم مغامرات جديد، قامت الشركة المُنتجة، كالعادة، بتنظيم مهرجان للأسلحة التي استُخدِمتْ في الفيلم أمام السينما، ليدخل الجمهور الصالة بحماسة أكبر.

قبل عامين رافق الضابط أولاده لمشاهدة فيلم عن الفضاء الخارجي، ورأى بنفسه مركبات فضائية تهبط أمام السينما وتُقلّ بعض من فازت أرقام حجوزاتهم برحلة استطلاعية.

بالنسبة إليه، كما كثير من مُشاهدي الأفلام، أصبحت هذه العروض أكثر إثارة من الأفلام نفسها، الأفلام التي تعيد استنساخ الأفلام القديمة التي قام بالأدوار الرئيسة فيها ممثلون حقيقيون مثل آرنولد شوارزنغر، وبروس ويلس، وجورج كلوني، وجودي فوستر، والجيل التالي لهم مثل: جوزيف شورازنغر، والممثلة رومر ويلس، ونوكس براد بيت..

ولولا أن ذاكرته تحتفظ بشيء من تلك الأفلام، لما استطاع أن يؤكّد لنفسه بأي طريقة أنها وجِدَتْ، فقد اختفتْ نسخ تلك الأفلام تمامًا كما اختفت أجهزة وأقراص البلو ري Blu-ray والـ DVD والتلفزيونات ذات الشاشات الصلبة.

لقد قامت شركات الانتاج السينمائي، أيضًا، بسحب الماضي من

الحاضر كي يبدو الحاضر في عيون المتفرجين الجدُد هو الأصل، وتبدو السينما كما لو أنها اختراع جديد! ولا شيء أكثر إثارة للبشر من اختراع جديد.

تواصل إطلاق النار، فاستعاد تلك المعركة التي شاهد ضحاياها بأمّ عينيه في الشارع الذي كان يسكنه وأهلُه. تلك المعركة التي تجاوزت الشارع، إلى الحيّ، إلى المدينة، إلى البلد، فالتهمت نيرانها كل شيء بسبب كلب.

بالنسبة إليه كشاهد، كانت أغرب حرب تقع، بعد حربَي داحس والغبراء، والبسوس، عربيًا[3]، وحروب عانت منها البشرية مثل: حرب الإيمو(1932) التي لم يكن البشر أحد أطرافها، بل طائر الإيمو في أستراليا الذي شُنّت عليه الحرب بسبب تزايد أعداده؛ وحرب الفطائر (1886) بين المكسيك وفرنسا بسبب الاعتداء على صاحب مخبز فطائر فرنسي؛ وحرب الدّلو (1325) بين مدينتَي مودينا وبولونيا الإيطاليتين، والتي كما هو واضح سببها دلو؛ وحرب أُذن جنكينز (1739) ودامت تسع سنوات بسبب قيام القوات الإسبانية بقطع أذن قبطان إنجليزي يدعى جينكينز أثناء قيادته لسفينة قرب سواحل إسبانيا؛ وحرب الآيس كريم (1980) التي شهدتها مقاطعة جلاسكو الأسكتلندية بين عائلات صُنَّاعه؛ والحرب الأنجلو زنجبارية (1896) واستمرت 38 دقيقة فقط، وهي أقصر حروب التاريخ، إضافة للحرب التي لا علاقة لها بهذه الرواية، ولا بحربها، وهي

---

3 – حرب قامت سنة 494م بين قبيلة تغلب بن وائل وأحلافها ضد بني شيبان وأحلافها من قبيلة بكر بن وائل بعد قتل الجساس بن مرة الشيباني البكري لكليب بن ربيعة التغلبي ثأرًا لخالته البسوس بنت منقذ التميمية بعد أن قتل كليب ناقة كانت لجارها سعد بن شمس الجرمي، ويذكر رواة أن هذه الحرب استمرت أربعين عاما، ويقول البعض أكثر من عشرين سنة بقليل. وهنالك أيضا حرب داحس والغبراء، أيام الجاهلية، التي نتجت عن سباق فرسين (داحس والغبراء) ومحاولة أصحاب الغبراء إعاقة داحس، واستمرت الحرب 40 عاما!

حرب الكلب الضال بين اليونان وبلغاريا في عام 1925، وهي أكبر دليل في ظنّي، أعني هذه الحروب، كما قال أحد الروائيين القدماء، على أن التاريخ لا يعيد نفسه، بل إن البشر يكررون الأخطاء!

***

الضابط لم يستطع أن يفهم، وحتى بعد أن أصبح ضابطًا كبيرًا كيف تطوّر خلاف صغير على ثمن كلب، لينتهي بإحراق بلد بأكمله.

طبعًا، كل السجلات التي تمّ فيها تسجيل مسارات المعركة وخلفيّاتها تمّ إتلافها، في محاولة لمحوها من الذاكرة، باعتبارها من أشدّ الصفحات سوادًا في تاريخ البلد.

لكنه، واستنادًا إلى ذاكرته كطفل، يستطيع استعادة ما جرى بدقّة لا بأس بها:

باع رجل كلبه لرجل آخر بعد أن اتّفقا على مبلغ، دفعَ الشاري نصفه، وأبقى النصف الآخر لنهاية الشهر، كما جرت العادة في تلك الأيام.

لم يدفع الشّاري النصف المتبقّي في موعده، فذهب صاحب الكلب وذكَّره بالأمر، فوعده أن يدفع في نهاية الشهر التالي. لكن ما أغاظ البائع كثيرًا أن كلبه نبح بشدة عليه، وكان على وشك أن يهاجمه! فرأى في ذلك انحيازًا فجًّا ليس من صفات الكلاب في شيء.

في نهاية الشهر الثاني، ذهب البائع، فخرجت امرأةُ الشّاري، التي عملتْ كثيرًا على كبح جماح الكلب النّابح بأن حجزته بإغلاق الباب خلفها. قالت له:

- إن زوجي في بيت عزاء، وكانت تلك البيوت منتشرة في تلك الأيام، فقد كان الناس يموتون فرادى، ولم يكن الموت الجماعيّ أمرًا معروفًا سوى في مذبحة هنا أو مذبحة هناك، تفصلهما سنوات..

غضب البائع، وأدرك أنه لن يستطيع الحصول على النصف الآخر، لأن أيّ قضية يمكن أن تُرفع على الشّاري سيهدّده الكلب فيها، كشاهد إثبات،

بأنيابه ونباحه، كما لو أنه يقول: لا أعرفك!

استدار البائع مبتعدًا، وقبل أن يخطو ستّ خطوات، سقطتْ كتلة ملتهبة من السماء بين كتفيه، وراحت تنهشه.

لقد استطاع الكلب القفز من فوق السور.

مات البائع.

حمل أهل القتيل قتيلهم، وذهبوا بأسلحتهم إلى بيت العزاء، وهناك، نادى أحدهم الشّاري؛ خرج، فقتلوه، وحين ثار أقاربه أطلقوا النار صوبهم، فاشتعلت المعركة، وتعارك البقية، فاتسعتْ.

في بلد صغير، كان لهؤلاء أقارب هنا، ولأولئك أقارب هناك، فوصل رذاذ الدّم خلال أقلّ من ساعة إلى وجوه أناس كثيرين، وهكذا تطوّرت المعركة متجاوزة الحيّ، نحو المدينة، ثم المدن البعيدة، وتجاوزت بعض المعارك الحدود، ووصلت إلى أكثر من مهْجر بسبب وجود أقارب لهؤلاء، أو لأولئك، هنا أو هناك، بحيث يمكن اعتبار ما حدث حربًا كونية من نوع مختلف، لم ينج من طرفيها المباشرَين سوى الكلب؛ وهذا ما دفع الضابط وكثير من الناس، الذين لم تأكلهم نيرانها، إلى تسميتها: حرب الكلب، وليس هذا من قبيل السخرية، مع أنها في الحقيقة حرب نصف كلب، لأنها اندلعتْ بسبب عدم دفْع نصف الثمن المتّفق عليه. وإذا ما أردنا العثور على مكان لها بين الحروب التي ذكرناها، تبدو حربًا فريدة من حيث اتساعها. لكن ما لم يتنبّه إليه الناس حينها، وإلى زمن بعيد، بداية اختفاء ظاهرة الوفاء عند الكلاب.

***

اتّصل الضابط براشد مدعيًا أن هناك معركة ما، في مكان ما، فردّ عليه: يبدو أنك تتهرّب من دعوة العشاء.

- أبدًا. فأنا أنتظرها منذ وقت طويل.

- ما دام الأمر كذلك، فيمكنك أن تتّصل بالقلعة وتعرف ما يدور،

فليس مثلكم أحد يعرف حقيقة أمر كهذا.

لقد اكتشف الضابط أنه فعلا لا يودّ لقاء راشد بعد أن رأى سلام.

أحسّ بألم ما في بطنه.

لو لم ير سلام لكان يمكن أن يكون الوضع أفضل.

اتّصل راشد. كان هناك افتتاح لعروض النسخة الجديدة من فيلم ماتريكس الذي شغل الناس في الماضي، بعد أن تمَّ دمج أجزائه القديمة الثلاثة في جزء واحد.

- اطمئن يا سيدي، كل ما في الأمر أن هناك افتتاحًا لفيلم ماتريكس. أتذكره؟ ربما لا تستطيع ذلك فأنا عجوز بالنسبة لك.

وقبل أن يُعلّق الضابط سأله راشد: هل تستطيع الوصول بسبب الزحام، أم أرسل لك سيارة إسعاف؟

- لا مشكلة، سأسلك طرقًا جانبية.

***

قرّر الضابط أن يشاهد مهرجان الافتتاح في السيارة، لعله ينسى ألم بطنه، فترك أمر قيادتها للسائق الآلي. انفتحتْ شاشة عرض، هي امتداد للزجاج الأمامي للسيارة.

تتابعت المحطات عارضة بعض الأخبار التي سمعها منذ الصباح: بدء استيراد المياه العذبة من المريخ؛ فتح أبواب الهجرة إلى خمسة كواكب جديدة عذراء مع بداية شهر سبتمبر؛ فضائيو الكواكب السبعة المأهولة يستقبلون على أبواب مجرَّتهم، الفوج الثامن من مهاجري كوكبنا.

***

أدرك الضابط أنه أضاع فرصة مشاهدة احتفال انطلاق فيلم ماتريكس في تنقُّله بين المحطات، فطلب زوجته.

ردّت عاتبة: لا تقل لي إنك ذهبت لحضور عرض ماتريكس وتركتَنا نتابعه على الشاشة!

- لا، لم أذهب، لهذا أتصل بك لتخبريني، أيّ محطة تلك التي تبثّ وقائع الاحتفال؟

- ألا تعرف؟!

- لا، لا أعرف أجابها غاضبًا.

- محطة بارامونت، ألا تعرف أنها منتجة الفيلم؟!

- لا، لا أعرف.

- هل أنتَ في الطريق إلى البيت؟

- لا. سأتأخر الليلة، هنالك عشاء، لا تنتظريني.

- عشاء؟! مع مَن؟

- مع شارون ستون.

- مع مَن؟

أنهى المكالمة.

قال: بارامونت.

فانفتحت الشاشة الأثيرية عن احتفال باهر.

- أكبر، قال.

اتسعت الشاشة، وأعاد: أكبر، فغدت بعرض الشارع أمامه على بعد عشرة أمتار من مقدمة السيارة.

- أعلى، قال. فارتفعت الشاشة، بحيث أصبحت السيارات القادمة، المواجهة له، تمرّ من تحتها، وظهر شريط إعلاني صغير: إذا أردتَ حضرة الضابط مشاهدة عرض الفيلم بعد قليل، قل: ماتريكس، وسيتم اقتطاع ثمن المشاهدة مباشرة من حسابك.

- ليس الآن. قال بصوت واضح.

وظهر شريط: شكرا لكَ، نتمنى لك مساءً طيبًا.

فخاخ شفّافة!

فوجئ الضابط حين دخل المطعم أن هناك امرأة تجلس مع راشد، لكن بصره المعزز بقوة 4 بوم، لم يُتح له مشاهدة وجهها. كان ظهْرها للباب، لم يعرف من هي.

تباطأ قليلا، وهو يمسح المطعم بنظرة دائرية.

- أيكون راشد قد اكتشف أنني وراء فضيحة المطعم قبل أسبوعين، فأتى بالسكرتيرة، ليقول لي: لا شيء يهمّني، ولا يهمّ سلام؟ أيكون قد مهّد لذلك بطلبه منّي زيارة بيته للتأكد من متانة أركانه؟!

أشار له راشد أن يتقدّم، وابتسامة عريضة تصل ما بين أذنيه.

رغم ذلك، تقدّم الضابط بحذر شديد، هامسًا لنفسه: أخشى أن يكون هذا الراشد قد دعا سلام أيضًا! لا ينقصني سوى هذا!

نهض راشد، سار خطوتين باتجاهه، بحيث أصبحت الضيفة المجهولة خلْفه. صافح الضابط، شادًّا على يده، وربّت على كتفه الأيسر يدعوه. في تلك اللحظة نهضت المرأة ففوجئ بنفسه وجهًا لوجه مع سلام!

- ما هربتُ منه يسبقني، هذا ما كان ينقصني، همس لنفسه، وانقبضتْ ملامحه.

- تفضّل، دعاه راشد، ولم تتوقّف سلام عن الابتسام.

طحنتْه ابتسامتها، بعثرتْهُ. ابتسامة واثقة، لكن فيها أمرًا غريبًا لم يستطع فهمه، فيها اصفرار ما، قد يكون وعيدًا أو غضبًا أو تشفّيًا أو إعلانًا يقول له: ها أنت أخيرًا هنا!

- سلام؟! كان لا بدّ أن يقول ليبدو أنه فوجئ، وقالها، وأضاف: كيف استطعتِ الوصول قبلي؟!

هزّت رأسها وابتسمتْ، وقال راشد:

- استخدمتْ أفضل الوسائل وأسرعها: سيارة إسعاف.

- لذلك سبقتْني!

- لذلك سبقتكَ، وأنا كذلك سبقتكَ، ولكن هذا من أصول الضيافة، أعني: أن أصل قبلكَ، مع أنكَ لستَ ضيفًا، وسلام بالتأكيد ليست كذلك.

كان ثمة سؤال كبير يقلق راشد، فسأله: قبل أن نبدأ، هل رأيت المدير العام هذه الأيام؟

- منذ يومين؟

- يومين فقط؟ هل استغبتماني؟ سأل راشد شبه ضاحك.

- كثيرًا.

- ماذا؟

- كثيرًا، إلى حدّ أننا لم نأتِ على سيرتك.

- أظن أن هذا أسوأ من الاستغابة، أليس كذلك؟ وقبل أن يجيب الضابط، سأله راشد وقد اطمأنّ: ولكن، قل لي، وأمامنا الليل بطوله، ماذا تحبّ أن تشرب؟

- ما تشربه أنتَ، كالعادة؟

- أترى كم أصبح الواحد منّا يشبه الآخر. قال راشد.

- هذا صحيح، لقد أصبحتَ تشبهني!

- بل أنت الذي أصبحتَ تشبهني يا حضرة الضابط، فأنا لم أتغيّر؟

- سامحني، لا أحد مثلنا يعرف كم تغيّرت يا حضرة المدير.

لم يعرف لماذا قال ذلك مستخدمًا ضمير الجماعة، أيكون، دون أن يعي، يسعى لإفساد اللقاء حتى يغادر؟ أم يشنّ هجومًا قبل أن يبدأ الهجوم عليه؟

- كنت أعتقد أننا لم نعد مختلفين على شيء لتحدّثني و (كأنكم) فريق وأنا فريق آخر! علّق راشد مشدّدا على كلمة كأنّكم.

- ما رأيكِ سلام؟ إنه يضع الكلام في فمي. أنا لا يمكن أن أقول شيئًا كهذا. قال الضابط.

ابتسمت سلام، فضاعفتْ بابتسامتها التّهمة التي وجَّهها له راشد، لكن شيئا غريبًا أحس به الضابط لم يحسّ به من قبل وهو يكلّم شقيقته، كان مشدودًا لها على نحو غريب، أخافه هذا، فحاول طرد ذلك الإحساس بقوله:

- تعرفان، أظن أن وجودي خطأ فادح هذه الليلة بين طائرَي حبّ لم أرَ مثلهما أبدًا. وابتسم.

- لا،لا، لا، ما هذا الكلام؟ سلام في النهاية شقيقتكَ، وأطمئنكَ بأن الواحد منا يحبّ الآخر منذ خمس عشرة سنة، ولدينا ثلاثون أُخر كما أتمنى؛ ووجودك هذه الليلة هو أشبه ما يكون بوجود زهرة بين عاشقين! أم أن كلامي غير دقيق يا سلام؟

وابتسمت سلام مرّة أخرى، وربّتتْ بأصابعها الرّقيقة على يد الضابط، فأحس بجسده يشتعل أكثر فأكثر، وحيّره أن سلام لم تفعل هذا، أيّ التّربيت على يده طوال عمرها؛ حتى عندما مات والدهما، وانخرطَ في موجة بكاء هستيري، لم تُربِّتْ على يده أو كتفه، أو تشدّ أزْرَه بكلمة واحدة.

هذه الليلة تُربّتُ عليه، ولكنها لا تقول شيئًا. هل تكون كبرتْ ونضجتْ؟! وربما لو عادت بهما الأيام إلى يوم الوفاة لعانقتْه ومسحتْ دموعه؟! قال في نفسه.

حضر النادل، وسأل: ماذا تحبون أن تشربوا؟

- كالعادة.

- هل أحضر كأسين أم ثلاثة؟

- كأسين، وثالث للمدام، كالعادة أيضًا، ولكن كعادتها، وليس كعادتنا! وضحك راشد، التفتَ إلى الضابط، فوجده محدّقًا في سلام بكل أعين أولئك الذين يتجمهرون في ممرّ المستشفى! فأضاف: ما دام العشاء قد ابتدأ، فإن مغادرتكَ باتت مهمّة مستحيلة. بالمناسبة، ما دمت ذكرتَ لي اليوم افتتاح عروض النسخة الجديدة من ماتريكس، هل تتذكر الجزء الأخير من فيلم توم كروز (مهمّة مستحيلة)؟

- لا، لا أتذكّره.

- لقد بتّ أفهمك تمامًا، كلّما سألتك عن حادثة أو فيلم قديم تقول لي: لا أتذكّر! وكلّ هذا لماذا؟ فقط لتثبت لي أنك أصغر مني عمرًا، أو لتواصل تذكيري بذلك! بالمناسبة، ومع أنك تعرف ميلي للنسخ القديمة من الأفلام، إلّا أنني رأيت في النسخة الجديدة من (مهمّة مستحيلة) الجديد، شيئًا أكثر إقناعًا، وبدا لي هذا الكائن الرقميّ أكثر تفاعلا مع المرأة، بطلة الفيلم، مما كان عليه توم كروز! تعرف، أحيانا أحسّ بأن الحقّ كان مع نيكول كيدمان حينما تركته، فرغم حرارته في مشاهد الحركة، كان يبدو لي باردًا في المشاهد الرومانسية، وبصراحة، أستطيع أن أقول لك، إن الرجل الذي لا يعرف كيف يُحبُّ، لا يعرف كيف يقاتل، وعمّن يقاتل، ولماذا يقاتل فعلًا. أليس كذلك يا سلام؟

وابتسمت سلام ابتسامة أوسع، والتقت أعينها بأعين الضابط، فتدفق عرق غزير خلف رقبته.

وجد الضابط في انحراف الموضوع باتجاه كروز وكيدمان أمرًا كان بحاجة إليه فدخل ذلك النقاش التاريخيّ بحماسة، متحاشيًا النظر إلى سلام:

- ولكنني قرأت، أن توم هو الذي تخلّى، أيامها، عن نيكول من أجل ممثلة شابة اسمها بينلوبي كروز، أليس كذلك؟

- ربما يكون هذا صحيحًا، فأنا لست متأكدًا من هذه النقطة بالذات. قال راشد.

- أؤكد لكَ أن ذلك ما حصل، فقد صدف أن شاهدها توم في فيلم اسباني، فوقع في حبها. وأنا أستغرب كيف يقع ممثل في حبّ ممثلة يراها على الشاشة! هذا الأمر غريب جدًا، فالطبيعي أن يقع المشاهدون في حبِّ الممثلات على الشاشة، لا أن يقع الممثلون! لم يتركوا لنا شيئا، تخيّل! ثم بالمناسبة، لا أفهم كيف كان الناس يكتفون بالألوان، وبعض التقنيات الساذجة، معيارًا لحداثة الفيلم وأهميته!

- بل تخيّل لو أن أجدادنا الذين عاشوا في زمن الأبيض والأسود عاشوا حتى اليوم ورأوا ما نراه، علّق راشد، وأضاف، آسف، لقد قاطعتكَ.

- أبدًا، كنت أريد أن أقول، إن توم أحبّ الفيلم وأحبّ أكثر بطلته، وهي كروز أيضا! فلم يجد وسيلة للتقرّب إليها أفضل من أن يشتري حقوق الفيلم، لا ليعرضه، بل ليعيد إنتاجه ويدعو بينلوبي لتمثّل الدَّور أمامه.

- تعرف، هذا ما كنت أفكر فيه منذ مدّة، علّق راشد، لماذا كان عليه أن يدور كل تلك الدورة لينفّذ خطته؟! كان يمكن أن يأتي إلى بينلوبي ومخرج النسخة الاسبانية ويقول لهما، باعتبارهما زملاء توم في عالم السينما: يمكنني أن أقدم لكما عرضًا لشراء حقوق إعادة انتاج الفيلم، ولكنني بصراحة لا هدف لي غير التقرب إلى بينلوبي، وإفساد حياتكما الزوجية. قال راشد ذلك، وهو لا يعرف في الحقيقة عن حياة المخرج أو حياة الممثلة الخاصتين شيئًا.

ارتبك الضابط وأحسّ بحلْقه يجفّ، وعينيه تغادران محجريهما. كرع ما في كأسه دفعة واحدة، اقترب النادل ليملأ الكأس من جديد، فأشار راشد له أن لا ضرورة، وملأ كأس الضابط بنفسه، حتى راح يفيض.

اعتذرَ له.

- يبدو أنك قد فوجئت بأن المخرج كان زوج بينلوبي؟ سأله راشد.

- الصحيح فوجئت.

- على الأقل، ما يجعلني أغفر لتوم فعلته تلك أن له سببًا وجيهًا: وقوعه في حبها، ليقوم بفعلة شنيعة مثل تلك، أعني، إفساد الرابطة الزوجية؛ وكما كان يقول أجدادنا، إذا عُرف السبب بطُل العجب، لكن المحيّر في حياتنا اليوم أننا وصلنا إلى مرحلة نرى فيها ونعرف العجب دون أن نعرف السّبب. أليس كذلك يا سلام؟

ضحكت سلام، واعتصَر الخوف قلب الضابط بقبضته القوية، فتساءل في نفسه، محاذرًا أن تقع عيناه عليها:

- إذا كانت قد أمضت السهرة تبتسم وتضحك، فإنها تخبئ كلامًا كبيرًا ستقوله في النهاية، بل سيكون كلامًا كبيرًا جدًا بالتأكيد. وأضاف بصوت مسموع: عن إذنكما، بما يشير إلى أنه سيذهب إلى الحمّام.

- تفضّل.

حين استند إلى ذراعَي كرسيه ليقف، أحس بقوة ما تشده للكرسي، قاومَ، توجّه إلى الحمّام، وحين عاد كان يبدو أكثر انشراحًا، لكن راشد، بذكائه المفرط، أدرك أن الأمر أكبر من تخفُّفِهِ من عبء أمعائه أو امتلاء مثانته..

أمسكَ الضابط بكأسه، وأطلق ضحكة مرتبكة، وتساءل: أين كنا؟ في اللحظة التي انطلقت فيها موسيقى هاتفه، فبدا أنها خارجة من أذنيه، معلنة عن مكالمة.

- أعتذر لكما، هذا رقم لا يمكن إلّا أن أجيب عليه.

- تفضّل.

لم يتحرّك، ولم يلمس شيئا.

- ألو..

- ...

- هل الأمر خطير إلى هذا الحدّ؟

- ...

- يمكنني أن أُنهي عشائي وآتي؟

- ...

- إذًا لا حول ولا..، سأعتذر لشقيقتي وزوجها، سيتفهّمان الأمر. أنا قادم حالًا.

- Stop قال، مغلقًا الهاتف؛ وفرَدَ ذراعيه كما لو أنه يقول: أعذراني.

- عذرك معك، لا أحد يمكنه أن يتفهّم وضعك مثلي، لا تنس أنني كنت الطريدة الصعبة حينما كنتَ الصياد المثابر.

- شكرًا لكما.

- بل الشكر لمشاركتكَ لنا هذه السهرة.

- سأكفِّر عن ذنبي بأن تسمحا لي بدفع الحساب، على قاعدة، من ينسحب يخسر!

- لا عليكَ، سأحرص على أن نكون ضيفَيْكَ في المرّة القادمة.

- وعد؟

- وعد.

ابتسمت سلام ابتسامة أوسع وهو يصافحها، فحمد الضابط الله على نجاته من كلام كبير كان ينتظره خلف سبع ابتسامات واسعات.

***

حين خرج، مال راشد إليها، وقال لها بسعادة بالغة: أرأيتِ؟ لم يعرفكِ!

وأمام مطعم الرياح الأربع، كان الضباط محرجًا مع نفسه، وهو يلعنها، مُقاوِمًا بقوة رغبته المجنونة في تشمّم راحة يده اليمنى التي صافحت سلام، فلم يجد وسيلة أفضل من أن يخنقها في جيبه!

العودة إلى مطعم الرياح الأربع

في يوم عيد ميلادها، كان الأمر مختلفاً.

هبطت السكرتيرة الدّرج الخارجي لمدخل المستشفى، كان راشد في انتظارها. رأت مئات الناس حول السيارة، وخلْف السيارة كان ثمة ما يشير إلى عصر آخر: قلاع في البعيد، وغابات وطيور من أنواع نادرة، ربما تكون هي نفسها التي يطلقون عليها اسم: طيور منقرضة. رأت كائنات ضخمة، لم تعرف إن كانت آلات حربية أو حيوانات مفترسة.

حيّرها الأمر، نظرت خلْفها، كان المرضى بالباب بملابسهم البيضاء مثل ملائكة مكسّرة الأجنحة، وخلْفهم وقف أطباء تتدلّى من أعناقهم، كألسِنتِهم، سماعات أنيقة. رفعتْ عينيها للأعلى فرأت بوضوح واجهة المستشفى واليافطة المُنارة التي تحمل اسمه.

راشد قال لها بصوت غليظ: هيا بنا، لقد تأخّرنا. كان صوته مهيبًا مثل صوت القادة والأبطال في مسلسل (لعبة العروش) الذين سمعتْ عنهم في طفولتها، أو هكذا خيّل إليها.

استدارت باتجاه مصدر الصوت، متوقّعة أن المشهد خلف السيارة الحمراء المكشوفة سيختفي. لم يحدث ذلك.

أدهشها أن الناس راحوا يبتعدون مع كل خطوة تخطوها نحوه، كما لو أنهم حرس شرف. سوّت وضع حقيبتها التي اشترتها من (هناك) بعد العملية السحرية التي أجرتْها، ودفعت شعرها الطويل الذي استراح على الجهة اليمنى من صدرها في حركة ساحرة خلف ظهرها.

راقب راشد المشهد بفرح شديد، أو هذا ما خيّل إليها.

هبط من السيارة قبل وصولها بثلاث خطوات، أمسك بيدها، ساعدها في دخول العربة؛ وأعين الناس محدّقة فيها مثل كشافات ملاعب كرة القدم، وهي واحدة من الألعاب الرياضية التي لم تتخلّ البشرية عنها، وإن كان اللاعبون البشر قد استُبدِلوا بلاعبين آليين على درجة عالية من حسن الخلق، بعد أن أوشكت هذه اللعبة الجميلة أن تُشعل حرب الكرة الثانية، أكثر من مرة، بسبب رعونة الجمهور والفرق المتنافسة[4].

***

قرر راشد، وهو يتأملها بعين الرّضا طوال الطريق، أن يرسل رسالة شكر للطبيب الذي هناك على المعجزة التي حقّقها.

- وإلى أين سنمضي هذه المرّة؟ سألتْه بتوجّس اختطف بعض جمالها.

- كنتُ وعدتكِ أن نمضي إلى الرياح الأربع ما إن يُدخِل المطعم تقنيات الاختفاء، لتختبري ما قلته لكِ عن أن الناس لن يروْنا.

- وهل أنت متأكد من أن الضابط لن يأتي؟ بصراحة لقد أربكني وجوده خلال العشاء السابق.

- لا لن يأتي.

- كأن غيره سيأتي، لماذا أحسّ بهذا؟

- إحساسك في مكانه فعلا، هذه المرة ستأتي زوجتي!

- زوجتك؟!

---

[4]- مع أن استمرارنا في التذكير بالماضي يمكن أن يكون سببًا في منع هذه الرواية، وبخاصة حديثنا عن الحروب، إلا أن حرب كرة القدم الأولى اندلعت بين هندوراس والسلفادور عام 1969 واستمرت ستة أيام، أي بعد عامين من حرب الأيام الستة، العربية الإسرائيلية، وراح ضيحتها 6 آلاف قتيل، و 12 ألف جريح، وتشريد 50 ألفا، كما صادرت حكومة هوندوراس أملاك 300 ألف مهاجر سلفادوري استقروا في هوندوراس. ومع وصول البشر إلى عصر الظلام، كان يتربع على قمة هذه اللعبة فريقان آليّان هما الأقوى: أبِل وسامسونج.

- أرجوك.. لا أريد أن أذهب.
- هذا لا يجوز، لقد دعوتُها بنفسي.
- دعوتَها بنفسك؟!
- أجل، لكي تتأكّدي من أنها لن تراكِ.
- وأنا، هل سأراها؟
- سترينها، ثم إن هناك غموضًا لا أحبّ أن يستمرّ، لأنني أحسّ بأنه يحجبك عنّي أحيانًا.

***

توقّفت السيارة أمام مطعم الرياح الأربع. ترجّل راشد، في الوقت الذي فتح لها الباب أحدُ عاملي المطعم، فترجَّلت، في وقت كان فيه صهريج الأبخرة الطبية متوقفًا في باحة المستشفى نافثًا ما في جوفه كتنّين طيّب.

جلسا إلى الطاولة نفسها، وكانت هناك أغنيات معروفة لها، من تلك التي سمعتها في طفولتها، أغنيات لمحمد عساف وشيرين، من تلك التي يطلقون عليها لقب: أغاني الزمن الجميل، وكان هناك جهاز تلفزيون UHD بحجم خمسين بوصة ربما، من تلك التي تحوّلت إلى أشياء أثرية يحتفظ بها بعض هواة الماضي، كشاشات LED التي اندثرت قبله.

السكرتيرة لا تعرف سرَّ تعلّق الناس بالماضي، ولذا باتت تسميها: محطات الحنين، يهبطون فيها للحظات بذاكرتهم، يستعيدون ما كان من أيام جميلة، قبل أن يواصلوا جريهم الدائري في حاضرهم. لقد رأت في طريقهما إلى المطعم، جبالا من سيارات رباعية الدّفع، تلك التي اندفع الناس لشرائها على أربع ذات يوم، كما يستميتون للحصول على ربطة خبز في أيام الحروب، لكنها غدت مهملة، وملقاة على أطراف الشوارع، لا أحد يلتفت إليها، بل يعتبرها أطفال اليوم دليلا دامغًا على تخلّف أجدادهم وما تبقّى من آبائهم.

أسعدها أنها منذ زمن باتت متخفّفة من كثير من هذه الأشياء!

- أين وصلتِ؟ سألها راشد، في الوقت الذي طار فيه النادل وتناول سترته الحريرية، وسار بها كمن يحمل طفلًا نائمًا نحو سرير من غيم!

- إنه يرانا! قالت السكرتيرة فجأة.

- أجل، وإلّا لما كان حضر لأخذ حلّتي.

- ولكن زوجتك قادمة؟

- قلت لكِ اطمئني. هذه مقصورة مخصّصة للزبائن .

- أتعني أن هناك آخرين في المقصورات الأخرى لا نراهم.

- بالتأكيد. وسترين النُّدُلَ يحملون صحون الطعام ويقدمونها لنا، ولكنكِ لن تستطيعي مشاهدة من يأكلونها.

- وزوجتكَ؟

- زوجتي سترينها، لأنها ستجلس في القاعة مقابلنا، لهذا أحضرتكِ.

***

بعد تناولهما حساء من خضروات جديدة طُرحتْ كمياتٌ قليلة منها في الأسواق، لزبائن محدّدين، رأت السكرتيرة أمام الباب تلك القامة، لكن شدّة الضوء، المنبعثة، في الخارج، من كشافات ضخمة، تذكّرهم بالشمس، وغيوم الأبخرة الطبية، حالت دون رؤية وجهها.

- لقد وصلتْ، قال راشد.

لم تستطع السكرتيرة إلا أن تستدير بوجهها بعيدًا خائفة، رغم تأكيدات راشد بأن أحدًا لا يراهما. وظلّت كذلك، إلى أن قال لها راشد: وبعدين؟!

رفعت السكرتيرة وجهها ببطء، وحركته ببطء أكبر. التفتتْ صوب الطاولة المجاورة عبر الزجاج، وعندها فقط، أحست بشيء غريب يحدث. قالت له هامسة: هل ترى وجهكَ في جدران المقصورة التي نحن فيها؟!

فسألها: لماذا تسألين؟

- لأنني أرى وجهي.

- هل أنتِ متأكدة من هذا؟ قال بلؤم شديد وهو يخفي ابتسامة ماكرة.
- أقسم أنني أرى وجهي! ونظرت إلى ملابسها، وقالت، ولكنني لا أرتدي الملابس نفسها! هل هذا بسبب المقصورة التي نجلس فيها؟!
- لا، ليس بسببها، فأنتِ لا تشاهدين نفسكِ، أنت تشاهدين زوجتي.
أدارت السكرتيرة وجهها بسرعة، أو هكذا خيِّل إليها، فسمعته يقول:
- متى ستصدّقين أنها لا تراكِ؟
- هل هي زوجتكَ حقًا؟
- هي زوجتي.
- ولكنها... أعني من أنا؟!
- أنتِ أنتِ. إطمئني.
عادت السكرتيرة تنظر برعب إلى سلام:
- ولكنها ستسمعنا.
- لن تسمعنا أيضًا، لو كان الأمر كذلك لسمِعتْنا.
- ولكن كيف سنخرج من هنا؟
- لن نخرج قبل أن نراها تخرج.
- وأنتَ، ألن تذهب للقائها؟ ألم تدْعُها للمطعم؟
- دعوتُها لأتيح لكِ رؤيتها، أما أنا فسأتصل بها أمامكِ وأعتذر لها عن عدم قدرتي على المجيء.
- وكيف ستتّصل بها؟!
ضغط على زر جهاز صغير، فجاء النادل. كتبَ له رسالة، وطلب منه أنه يوصلها للسيدة الجالسة إلى الطاولة المجاورة. وقف النادل مرتبكًا، منقّلا عينيه بين وجه سلام ووجه السكرتيرة، إنهما متشابهتان تمامًا، ولكن ثمة أمرًا غامضًا، لم يفهمه، يشبه المغناطيس، في المرأة التي تجلس مع راشد، يدفعه للبقاء واقفًا بجانبها!
طلب راشد من النادل أن يتحرّك، تحرك مبتعدًا، لكن خطاه كانت تجرّه إلى الوراء!

- ما الذي فعلتَه؟! سألت السكرتيرة راشد؟
- أرسلتُ لها رسالة اعتذار، أخبرها فيها أنني أتيت مبكرًا، قبْلها، ولكن أمرًا ضروريًّا حدث، جعلني أغادر المطعم، وتمنيتُ لها شهيّة طيبة.
- وهل ستُصدِّقُ؟ أنا نفسي لا أصدِّق هذا.
- ستُصدِّق.

غاب النادل في الدّاخل بعد أن أخفى الرسالة في جيبه، وبعد دقائق عاد متوجّها إلى السيدة سلام. ناولها الرسالة، فتحتْها، قرأتْ ما فيها، وكم أدهش السكرتيرة أنها رأتها تبتسم.

- قلتُ لكِ، لا شيء سيزعجنا اليوم.
- ولكن هناك ما يزعجني، لمَ لم تجعلها على صورتي بدل أن تجعلني على صورتها؟!
- هل كان هذا سيرضيكِ؟!

صمتتْ.

وفجأة أطلّ ذلك السؤال الغريب وأطبق على جمجمة راشد: لماذا لا يتجمّع الناس حول سلام، وهي الأصل، كما يتجمّعون حول السكرتيرة، وهي الصورة؟!

***

أنهيا تناول طعامهما، ولم تتحرّك الزوجة، فسألته:

- ولكن لماذا تُريني إياها؟

بقي صامتًا.

بعد ساعتين من انتهائهما، كانت سلام لم تزل هناك، وهما في مكانهما.

- هل تريد أن تحذّرني بأن الأصل لديك، وتستطيع أن تستنسخ منها العدد الذي تريد من النساء؟!

بقي صامتًا.

- لقد تأخّرنا كثيرًا، قالت.

.. وهبط الظلام، وأشرقت الشمس، وغابت من جديد، والزوجة جالسة لا تغادر طاولتها.

وتوالت عصور وهي جالسة، أو هكذا خيّل لها، أعني السكرتيرة.

- هيا، لقد غادرتْ منذ مائة عام دون أن تنتبهي. قال لها راشد وكأنه يهزّها لكي تستيقظ من نوم عميق.

نهضتْ.

جائزة نوبل للآداب!

كلّ البشر لا يستطيعون ملء مرآة واحدة!

الخطة الكاملة

في ذلك الليل الطويل، كانت صفارات سيارات الإسعاف التي تملأ الشوارع وتهبّ كالرياح من جهات أربع، توحي بوجود حرب لا تتوقف عن ضخّ الجرحى، بحيث ضاقت أسرّة المستشفيات، لكن ذلك لم يدفع أقسام الطوارئ إلى إغلاق أبوابها.

توقّفت سيارة إسعاف أمام المستشفى، وبدل أن تُنزل مُصابًا، صعد إلى صندوقها راشد.

كانت سيارة مثالية، تتوسّطها طاولة صغيرة حولها أربعة كراس، وبجانبها بار صغير.

عادت السيارة وتوقّفت بعد عشر دقائق من انطلاقها، فُتح الباب، وصعد إليها المدير العام بنفسه.

فوجئ راشد، إذ كان على يقين بأن الدعوة ستكون في مطعم الجهات الأربع.

- لا تستغرب، أحببتُ أن أضعكَ في الجو الملائم لكي تصل إلى أفضل لحظات تجلّيك. قال لراشد حين رأى علامات الدهشة تُرمِّد ملامحه.

حاول راشد أن يبتسم، فتساقط بعض الرّماد على قميصه وربطة عنقه.

المدير العام السابق للقلعة أخبر راشد، بينما راحت السيارة تدور، بأنه ينوي إقامة عدد من المستشفيات، فما يحدث من فورة في الإصابات قد لا يتكرّر إلى زمن طويل قادم.

لم يتكلّم راشد، فتوقّف المدير العام عن إكمال حديثة.

- لستَ راضيًا عن الفكرة؟

- لقد كنتُ دائمًا مستقيمًا معكم، ولذا سأسمح لنفسي بأن أقول لكَ، إنني لستُ راضيًا. قال راشد وكأنه في مكان آخر.

كانت تلك فرصته لكي يعتذر للمدير العام عن تطاوله في اللقاء الأخير الذي جمعهما، لكنه بعناده الذي لا يعرف من أين ورثه، وجد نفسه يرفع الكرت الأصفر معترضًا، بعد أن انتابه شعور قوي، بأنه ليس مضطرًّا لأن يعتذر عن أي شيء، بل وأنّب نفسه على أفكاره اللينة، بل الرّخوة، حين تذكّر أنه رغم كونه واحدًا منهم تقريبًا، إلا أنهم لم يُلمِّحوا ولو بطيف اعتذار عن تعذيبهم له في الماضي.

ما كان يريحه، والكرت الأصفر مرفوع في وجه المدير العام، أن باستطاعته أن يكون دائمًا أقوى منهم، لأنهم مهما ارتفعوا، لا يستحقونه.

- هل يمكن أن توضّح لي سبب عدم رضاكَ هذا؟

كرع راشد ما في كأسه دفعة واحدة، بثقة فائضة، ونفض رأسه محاولًا إطفاء سيل اللهيب المنحدر نحو معدته.

- سيادتك تفكِّر في عدّة مستشفيات، لكنني أنصح بإنشاء مستشفى واحد من نوع آخر للذين تسببوا في الحوادث، وربما في سواها!

- بالتأكيد، أنت لا تقصد مستشفى!

- هذا صحيح.

- سجن؟!

- سجن سرّي كبير. فحيثما كانت هناك ضحية كان هنالك قاتل، وحيثما كان هناك مصاب، فهناك من تسبّب في الإصابة.

- لكن مسألة كهذه من المهمّات التي تركناها للدولة لتلهو بها، أو ما بقي من الدولة في الحقيقة.

- لذلك قلتُ سجنًا سريًّا.

- ومن أين لنا بالشرطة والسجانين؟! سأل المدير العام، وأضاف، هذا يحتاج إلى تكاليف كبيرة.

- لقد فكّرتُ في الأمر جيدًا. سيادتك تعرف جيشًا كبيرًا من المتقاعدين الأوفياء لك، وهؤلاء كما كلّ المتقاعدين، يكرهون الارتماء في البيوت، وستكون مهمّتهم العمل داخل السجن.

- ومن سيجلب لنا المرضى، أعني السجناء؟

- سنعتمد مبدأ سائقي سيارات الإسعاف والمُسعفين.

- تعني أن نستخدم سيارات الشرطة الرسمية.

- تمامًا. وبدل أن يمضوا بالمتّهم، أيًّا كانت تهمته، إلى سجن رسميّ، يبيعوننا إياه.

- وماذا نفعل به؟!

- نحوِّله إلى أسير أمل! يدفع ما عليه، حسب طاقته، لكي نخرجه.

- تعرف يا راشد، الفكرة رائعة، وبصراحة تبدو أكثر قربًا لنفسيَ من مسألة سيارات الإسعاف، أظنّها ستُشعل فيَّ طاقة كبيرة أحسّ بأنها بدأت تخمد منذ أن تقاعدتُ.

وراح المدير العام يستعرض شريط حياته منذ أن دخل القلعة ضابطًا صغيرًا حتى تبوأ أعلى منصب فيها.

- تعرف يا راشد، هذا أفضل مشروع فعلًا. ثم إن هناك قضايا مُعلّقة، سيساعدني هذا المشروع في حلِّها.

ارتطم طائر ضخم، لعله نسرٌ، بصندوق العربة، فاختل توازنها للحظات.

- ما الذي تعنيه سيادتك؟! سأل راشد وقد انقبض قلبه.

- تعرف، لقد ظلَّتْ بعض القضايا التي عملتُ عليها مُعلقة، ولن أمضي إلى القبر مستريحًا إن لم أُعِد فتح ملفاتها، وحلّها.

- أظن أنكَ بدأت تخيفني، سيادتك؟

أطلق المدير العام ضحكة عالية، وقال:
- اطمئن. أنتَ في حمايتي، ثمّ إنني معجب باستقامتك، وتخلِّيك عن الطريق القديم، حتى أنني أحسّ أحيانًا بأنك بتّ تشبهني.
أوشك راشد أن يفقد كلّ شيء دفعة واحدة وأن يقول له: بل أنت الذي صرتَ تشبهني! لولا أنه تذكّر في اللحظة الأخيرة أن الحديث لا يدور بينه وبين الضابط، وأن تطاوله الأول يكفي ويزيد، فقد أشبع غروره، لكنه أطلق دبابير مخاوفه.
- ولكن هل تعتقد أن وجود سجن كبير كالذي تتحدّث عنه يمكن أن يظل سرًّا؟ سأل المدير العام.
- هناك دائما ألف طريقة لضمان سرّية أمور كهذه، وكما ترى نحن استطعنا ضمان سرِّيّة أعمالنا فوق الأرض، فما بالك بسرِّية أعمالنا تحتها؟!
- راشد، ليس لدي سوى أمر واحد يمكن أن يجعلني مطمئنًا.
نظر راشد فوجد المدير العام يحدّق فيه:
- إلّا هذا، من الصعب عليَّ أن أشرف على/ أو أدير مشروعًا من هذا النوع.
- لماذا؟
- سأقولها، راجيًا من سيادتك ألّا تغضب.
- لن أغضب منك حتى لو عُدتَ مناكفًا لنا كما كنت في السابق.
صمت راشد، لاكَ شفتيه عدة مرات، وقال:
- مبادئي لا تتيح لي الانخراط، أكثرَ من هذا، في مشروع كهذا.
- لم أفهم، أهذه طُرْفة.
عاد راشد رغمًا عنه، وقال كلامًا كبيرًا كان يحاول منع نفسه من قوله!
- بل هي في الحقيقة مأساة، فأنا لا أطيق القيام بما قمتم به ضدّي. سيكون الأمر ثقيلًا على ضميري. يبدو أن ماضي الإنسان لا يمكن أن يُمحى أبدًا، حتى لو كُتِبَ بأقلام الرّصاص.

- ولكنك يا راشد صاحب الفكرة وشريك فيها!

- نعم صاحب الفكرة، لكن الفكرة كلّها بمثابة هدية لسيادتك، أما الشّراكة فيها فأظنّ أنني مضطرّ للاعتذار عن قبول هذا العرض السّخيّ.

ساخطًا كان راشد على نفسه، دون أن يدري، فها هم يفكرون بتحويله إلى نسخة طبق الأصل عنهم، كي يشبههم تمامًا.

- تعرف يا راشد، أنت أغرب إنسان مرّ عليّ في حياتي، ولولا أنني أعرف أنك واحد من أكثر المخلصين لي، والصّادقين معي، لافتتحتُ ذلك السجن بك، وراح المدير العام يضحك من كلّ قلبه.

- قد تستغرب سيادتك، إذا قلتُ لك، وأنا لن أعارض!

- مشكلتي معك يا راشد أنكَ تقول الصّدق، ولو أجريتُ مسحًا لدماغك لأُطلّ على ما فيه، لنجحت أنتَ وخسرتُ أنا. ولكن هل أنت متأكد من نجاح مشروع كهذا؟

- إنه ربح صاف يفوق ربح المستشفيات، كما أن مواد البناء الذكية، السهلة، تتيح لنا بناء المستشفى في أقل من أسبوع، مهما كان حجمه، وبأقل التكاليف، وفيه لا نحتاج إلى أطباء ولا إلى ممرضين ولا إلى أدوية وأجهزة. صحيح أنك ستكون بحاجة إلى غرفة عمليات واحدة إذا ما كنت تفكِّر في إعادة فتح بعض القضايا، أو غرفتين على الأكثر، لكن ما يلزمك فعلا عدد من السجّانين والحرّاس؛ وبالطبع سيلزمك بعض الطبّاخين، لأننا لا نستطيع أن نَفيد ممن يموتون في سجن سرّي كما نَفيد منهم في مستشفى علنيّ.

- ومتى ستقدّم لي الخطة الكاملة للمشروع؟

- الآن.

انحنى راشد، رفع حقيبة سوداء كانت بجانبه، وضعها على الكرسي المحاذي له. فتحها، وأخرج مِلفًا ضخمًا كُتب عليه بخط كبير: (مشروع أسرى الأمل 2)، وناوله للمدير العام، وقال: هذه هي النسخة الوحيدة، لضمان السِّريَّة، إنها الآن بين يدَي سيادتك.

- أتعني بأنني سأقرأ كلّ هذا؟

- ستكتشف سيادتك أن الموضوع صيغ بأسلوب يتفوّق على أكثر الروايات تشويقًا.

- مع أنني لا أحبّ الروايات، سأقرؤه، ولكنني أحذّرك، في اللحظة التي سأحسّ فيها بالملل، سأقتلكَ. وضحكَ.

- لن أُرهق ضميرك بموتي، ثق بي، إذا بدأتَ، لن تتوقف قبل الصفحة الأخيرة!

- والآن، أين تحبُّ أن ننزلكَ؟ أمام البيت، أم أمام المستشفى؟ سأله المدير العام وهو ينظر إليه بإعجاب.

مجرد أن يُعجب به المدير العام، أزعجه فجأة.

- هنا.

- هل تعني ذلك حقًّا؟

توقّفت السيارة.

بمجرد أن لامست قدماه الأرض، سعل، ابتعدت السيارة، فعاوده السعال بقوة أشدّ، وما هي إلا لحظات حتى راح السعال يتصاعد من أربع جهات، وسط ظلام كثيف لا تقطعه سكين!

جائزة نوبل للآداب!

مرهقًا بعينين محمرّتين جاحظتين، وصل راشد إلى بيته في الثانية فجرًا. التقط أنفاسه أمام الباب، وغاص في داخل نفسه دقائق، هدأ.

كانت سلام في انتظاره، وإن ادَّعت أنها سعيدة بمشاهدة الفيلم الذي تبثّه إحدى القنوات. كان الممثلون أمامها بأبعادهم الرباعية، يتدلّون من جهاز التلفزيون الأنبوبيّ الملصق بالسقف، في مقدّمة الصالون.

نزول تلك التقنية إلى الأسواق فتن راشد قبل أن يفتنها، فقد كان الأمر كما لو أنّ المرء يشاهد مسرحًا، وكان باستطاعة المشاهد أن يدور حول الممثل أو الممثلة، ويراه/ يراها، من كل الجهات، ويحسّ بملمس الجسم، إذ كانت طبيعة الأشعة المنبعثة تحيل مقادير محدّدة من الأكسجين والنيتروجين وثاني أكسيد الكربون إلى مادة لدنة، تتلاشى فور وقف عمل التلفزيون.

لم يُخفِ راشد أن في تلك التقنية قدْر كبير من الإثارة، حتى أن بإمكان المشاهد أن يدور ويصفع الممثلة أو الممثل على قفاهما، وهو في طريقه إلى المطبخ أو الحمّام، إذا لم يعجبه المشهد، أو غدا إيقاع الفيلم بطيئًا أو مملًا، مدعيًّا (المُشاهد) بأنه يستحثّهما على الإسراع!

راشد تمنّى لو أن تقنية كهذه كانت سائدة أيام صباه، فقد كانت الممثّلات حقيقيات، لا كما أصبحن: جمال افتراضي باذخ يتجاوز كل حدود الجمال التي يراها المرء في الحياة اليومية، لكنه بلا حياة. لقد أوجدت

تلك التقنية جنسًا جديدًا من النساء، صحيح أنه مُغْر ويمكن الوقوع في حبّه بيسر، ومغافلة الزوجة أحيانًا، بادّعاء الذهاب إلى المطبخ أو الحمّام أو إحضار أيّ شيء، فقط ليتاح للمرء أن يرى الممثلة التي أعطته ظهرها، المنهمكة يداها بفكِّ مشابك حامل نهديها، من الأمام.

بعض الفتيان الذين يحفظون مشاهد الأفلام غيبًا، كانوا يجلسون في الجهة المقابلة لكي يوفّروا على أنفسهم تقريع الآباء والأمهات إذا ما تحركوا للتمتّع بتلك المشاهد، لكن العبارة التي كان الآباء لا يتوقفون عن ترديدها في كل بيت: قم يا ولد وكن مؤدبًا، واجلس هنا بجانبنا!

راشد تمنّى لو أن تقنية كهذه توافرت حين كان وجيله منشغلين بجمال الجنوب إفريقية تشارليز ثيرون، والأمريكية سكارلت جوهانسون، والاسترالية نيكول كيدمان حتى منتصف مشوارها الفني، ولن ينسى بالطبع ممثلات مثل البريطانية نعومي واتس، والإيطالية مونيكا بيلوتشي، والفرنسية صوفي مارسو، والألمانية رومي شنايدر، وجميلة الجميلات الكونية كلوديا كاردينالي، وفاتنات السينما العربية، من نادية لطفي كما ظهرت في (النظارة السوداء)، وميرفت أمين كما ظهرت في (أبي فوق الشجرة)، ومديحة كامل كما ظهرت في كل أفلامها قبل أن تختطفها يد المنون، و...

تقنية كهذه كانت ستكون بمثابة أفضل وأعذب هدية تكنولوجية له ولجيله.

لا يستطيع راشد أن ينكر أن تقنية كهذه تطرح نماذج ذكورية لها سطوة بالغة على أحلام المراهقات أيضًا، وهو لا يحبّذ هذا، بل يرفضه، فقد سمع عن مراهقين ومراهقات، وأحيانًا ممن ينتمون إلى فئات عمرية تالية، يقومون بجرِّ الأسرَّة لتكون تحت أجهزة العرض المثبّتة في السقوف تمامًا، لتُعرض الأفلام، لا على الخشبات الافتراضية في الصالون، بل في الأسرّة نفسها!

***

كانت سلام لحسن الحظ تشاهد النسخة الجديدة من الجزء الثالث من فيلم أفاتار، وما إن دخل الغرفة حتى خفض رأسه بسرعة، وقد هيئ إليه أن عددًا من كائنات الفيلم الطائرة، ممن يمتطي صهواتها فتيان أشداء، على وشك أن تصطدم برأسه. كانت التقنيات التي استخدمت في الفيلم هي الأكثر تطوّرًا حتى ذلك الحين، حيث تستطيع شخصيات الفيلم أن تتنقّل من غرفة إلى غرفة عابرة الأبواب، وقد تغادر البيت كله إذا كانت إحدى نوافذه مفتوحة، ولكنها تعود دائمًا.

في الحقيقة لا أحد يعرف إن كانت هذه الكائنات ستعود مستقبلا، أم لا، فلا شيء تطوّر ويتطوّر كالسينما!

ضحكتْ سلام حين رأته ينحني، وقالت: لن يستطيع الإنسان التخفّف من مخاوف طفولته.

فضحك بدوره مداريًا ارتباكه، وتعبه من مشوار طويل قطعه على قدميه، لم يعرف إن كان عليه فعلا أن يتكبّد مشاقّ ظلمته، وروائح العفونة المختلفة التي أطبقت على صدره، أم لا، هو الذي ترفّع عن القبول بأقل من بـ 3 بوم، كان يمكن أن تمنح له لو تنازل وطلبها.

- عليكِ ألا تنسَي أنكِ التصقتِ بالحائط حين اندفعتْ سمكة القرش نحوكِ وابتلعتْ المقعد الذي تجلسين عليه، في النسخة الجديدة من فيلم (الفكّ)! قال وهو يجاهد ليبتسم.

لم تعلّق سلام، واصلت متابعة الفيلم كما لو أنها لم تسمعه!

جلس بجانبها، ودون أن يدري كيف حدث ذلك، سألها، هل رأيت الرّاصد الجوِّيّ في الفترة الأخيرة؟

- دعنا نكمل الفيلم، ما الذي ذكّركَ به الآن؟

- فعلا لا أعرف، ولكنه قفز فجأة وعَبَر رأسي.

- لولا سيارته المتوقّفة أمام البناية لقلتُ إنه رحل، هل تعتقد أنه يعاني من مرض خطير، أو ربما مات دون أن نعرف؟

لم يجب راشد، وإن كانت فكرة أخطر قد عبرت رأسه حول احتمالية أخرى، كأن يكون الرّاصد الجوِّيّ، مجللا بعاره، قد قرر ألّا يغادر المنزل منذ أن تلقى الصفعة التي رفعتْه إلى ما فوق السّحاب.

- هل تعتقدين أن عليّ أن أسأل عنه؟ سألها وهو يتابع ساهمًا الاستعراض الجوّي لتلك الكائنات الخرافية الزّاهية، ودبيب خطوات الندم يهزُّ قلبه.

فتحتْ سلام فمها لتجيب، في اللحظة التي سُمع فيها جرس البوابة الخارجية يُقرع. وظهرت على الشاشة الأثيرية زاوية صغيرة لأربعة رجال يرتدون زيًّا موحّدًا يقفون أمام الباب، بأعين لامعة لا تقلّ قوة إبصارها عن 2 بوم، تحيل الليل إلى نهار مضاء بخمس شموس لكل منها قوة سطوع الشمس القديمة.

لسبب ما، راح قلب راشد يخفق بقوة، فقد استيقظ فيه خوف قديم. حتى أشجع الشجعان تضطرب نبضاتهم بدرجة أو بأخرى حين تُطرَق أبوابهم، أو تُقتَحم في أوقات متأخرة كهذه.

هل يكون بترجّله من العربة قد أشعل غضب المدير العام عليه أكثر فأكثر؟!

وقف راشد، ضغط على أحد الأزرار الافتراضية، فتضخّمت هياكلهم، وغدوا وكأنهم أمامه بشحمهم ولحمهم. دار حولهم، كانت هناك أسلحة شبه مكشوفة، خلف ظهورهم، تحت انبعاجات ملابسهم السوداء.

أول شيء خطر بباله هو المسدس. نهض بسرعة، وتناوله من فوق خزانةٍ عالية قرب الباب، فارتعبت سلام:

- إياك أن تفكر في جنون كهذا.

فناولها المسدس. سألته:

- ماذا أفعل به؟

- سأعيقهم قليلًا، بينما تعرضين فيلمًا حربيًا فيه الكثير من المسدسات. حرّكي أحد المقاعد بحيث يكون تحت الفيلم، وضعي المسدس فوقه، سيبدو مثل مسدس وهميّ ملقى على أرض المعركة، يعود لواحد من أبطال الفيلم.

- وإذا ما اكتشفوه؟

- عندها، قولي إنه لأخيك، وقد نسيه عندنا في زيارته الأخيرة.

***

في الوقت الذي كانت فيه سلام في الداخل تمارس بحثها الصوتي شبه صارخة، عن فيلم حربيّ، كانت تراقب الرّجال الأربعة. وقبل أن تعثر على الفيلم الملائم، فتح راشد الباب، وخرج، وإذا بالرجال الأربعة يختفون ويتحوّلون إلى جزء من الليل.

لم يعد راشد.

ارتدتْ سلام أول حذاء صادفتْه قدماها، وخرجتْ راكضة نحو المصعد، فبوابة العمارة، دون أن تلاحظ أن المسدس لم يزل في يدها.

ما إن وصلتِ البوابة الخارجية، حتى انطفأت الأضواء التي خلْفها أيضا، فاختفى ظلُّها. تصلّب جسدها. رفعتْ يدها وتحسستِ العتمةَ، آملة أن تصطدم أصابعها بجزء من جسد راشد. تقدّمت خطوة أخرى، وحرَّكتْ يديها في كل الاتجاهات، مثل أي شخص يصحو في مكان معتم لا يعرفه.

لا شيء.

أوشكت أن تصرخ، إلّا أنها تذكّرت خطورة أمر كهذا في ساعة متأخرة من الليل. أمر كهذا سيتحوّل إلى دعوة مفتوحة للغموض القاتل لكي يتقدّم نحوها، ومن يعرف؟

عادت تتحسّس طريقها إلى الداخل.

عبرت بوابة الصالون الواسعة. مشعًّا كان الضوء، كما تركتْه، بحيث

أخفت عينيها بالمسدس الذي في يدها، تتّقيه. عندها فقط أدركت أن المسدس في يدها. أخفتْه وراء ظهرها، ورفعتْ راحة يدها اليسرى لتتّقي الأشعة. وقبل أن تدخل، سمعت إطلاق نار شديد في غرفة العرض التلفزيوني، وثمة رصاص مشع يخرج من الغرفة ويئز جوار وجهها. انحنتْ؛ لكنها أدركت أن الفيلم الحربي الذي كانت تبحث عنه قد انفجرت إحدى معاركه.

وجدتْ هاتف زوجها الذّكي على الطاولة الصغيرة أمام مقعده، الهاتف الذي رفض التخلّي عنه بعد أن تخلّى الجميع عن تلك الأنواع من الهواتف التي يدعوها الأطفال: الهواتف الغبية.

قلّة كانت ما تزال تستخدم تلك الأنواع، لكن كلّ من يستخدمها كان بحاجة إلى تصريح رسمي، لأنها باتت خارج نطاق سيطرة المؤسسات الأمنية التي تطوّرت أعمالها لمراقبة الأجيال الأذكى من الهواتف.

فكّرتْ سلام أن تتصل بأخيها لمعرفة ما الذي يحدث لراشد، لكنها قررت في النهاية ألا تلجأ إليه. هي تعرف أنه سينظر إليها من طرَفي عينيه، كما لو أنه يقول لها: أرأيتِ، كل بطولات زوجكِ لا تستطيع أن تدُلّكِ على مكانه إن لم يتدخّل هذا الذي طالما اعتبرتِه خائنًا.

قررتْ أن تنتظر، ساعة، اثنتين، ثلاثًا، أو حتى أربعًا، لعل خيطًا من الضوء يكشف لها مصيره.

***

أحنى المدير العام رأسه، مُخفيًا وجهه، حين رأى راشد يتقدّم نحوه، وحوله الرّجال الأربعة. ثم رفع رأسه بهدوء وهو يحدّق في راشد مباشرة.

- هل كنت نائما حين أتوا إليك؟!

- لا، لم أكن قد نمتُ بعد.

- كان يجب أن تكون نائمًا لأسرق النوم من عينيك كما سرقتَه من عينَي!

نظر راشد إلى الطاولة الجانبية بجوار مقعد المدير العام، فرأى ذلك المِلف الضّخم الذي أعطاه للمدير قبل ساعات في سيارة الإسعاف.

- أيكون المشروع لم يعجبه؟! ضاقت رئتاه.

قرر أن يهاجم: لا تقل لي سيادتكَ أن المشروع لم يعجبك!

ابتسم المدير العام عند ذلك، وقال: تعرف يا راشد، أظنّكَ لو طوّرته ونشرته كرواية ستكسب منه أكثر مما سأكسب حين أنفّذه، ولكنني لن أسمح لك بذلك، كما أن الأمر كلّه يحيرني.

- وما الذي يحيّر سيادتك؟ قال الكلمة الأخيرة كأنه يتجرّع كأس علقم.

- لو نشرته أنت كرواية في الزمان الفائت، فقد كان يمكن أن تفوز بجائزة نوبل مثلًا، أما لو نفذّتُه أنا قديمًا، بعيدًا عن الضمانات المطلوبة، فيمكن ببساطة أن أُعدم بسببه!

- هذا يعني أن سيادتك أحببته.

- لقد أطار النوم من عينَي، فقلت، عليّ أن أنتقم منك. وأشار إلى المقعد الذي بجانبه، وهو يقول: ولكن يا راشد، من أين تأتي بمثل هذه الأفكار؟! أتعرف، وصمتَ قليلا، مشيرًا للرجال الأربعة أن يبتعدوا. ابتعدوا، فأضاف بصوت خفيض:

- أرجو ألا تعتبرها مجاملة؛ أحيانا بتَّ تخيفُني؟

- أنا؟!

أخذ راشد نفسًا عميقًا، فأحس بهواء من نوع آخر يملأ المكان وصدره، كان أفضل تعويض له عن تلك العفونة التي عصفت به وأوقدت سعالًا جارحًا لم يعان منه منذ زمن طويل.

- نعم أنتَ.

- لماذا تقول كلامًا كهذا، سيادتك؟!

- لقد أصبحت تُشبهني!

فتح راشد فمه ليقول: بل أنتَ الذي أصبحت تشبهني. ولكنه استطاع بسرعة ابتلاع تلك الكلمات الخمس اللعينة، فقد كانت عينا المدير العام، بما فيهما من طيور بوم لا يعرف راشد عددها، مطبقتين عليه كفخّ جهنميّ.

موسم الفوضى
على أحدهم أن يقول لنا بوضوح ما الذي يريده الإنسان!

القشّة التي قصمت ظهْر البعير

بدا الأمر كلّه كطرفة، حين اتصلتْ إحدى صديقات سلام بها وأخبرتها أنها أصيبت بخيبة أمل شديدة: كيف يمكن أن تتجاهلي أُمّي إلى هذا الحدّ؟! لقد كانت بمثابة أُمٍّ لكِ، وفي أحيان كثيرة كنتُ على يقين من أنها تحبكِ أكثر مني.

– لحظة، لحظة! أرجو أن تُعيدي ما قلتِه، أحسّ بأنني لم أستوعبه.

أعادت صديقتها ما قالته، وهي على وشك الانفجار.

– ومتى حدث ذلك؟

– قبل ساعتين فقط، في مجمع سبيس مول.

– ولكنني لم أغادر البيت هذا النهار.

– سلام، أظنُّ أن أفضل شيء تفعلينه هو أن تعتذري لها بسرعة، لنُنهي الأمر، فأنتِ تعرفين أنكِ أقرب صديقاتي إلى قلبي.

– ولكنني..

– سلام، أرجوكِ، يكفي.

– هل تسمحين لي بسؤال؟ وأرجوك، تحت كل الظروف، ألّا تُنهي المكالمة، لأنني غير مستعدة لأن أغلقه لأيّ سبب.

– تفضّلي.

– هل تتحدّثين معي بصورة جديّة، أم أنك تُعدِّين لي مقلبًا مع بقية الصديقات؟ وبالمناسبة، يوم عيد ميلادي بعيد، ويوم عيد زواجي أبعد.

- سلام. فلننْهِ المسألةَ من بدايتها، واعتذري لها، ونصيحتي، لا تدخلي في التفاصيل. اعتذري فقط. سأحوّل لها مكالمتكِ، وكلّي أمل أن تنجحي.

- ماما.

وساد الصمت لثوان. حاولت سلام أن تتذكر إن كانت قد خرجتْ من البيت، رغم أنها لم تخرج، وحاولت أن تتذكّر إن كانت مضت إلى سبيس مول، وهي تعرف أنها لم تذهب إلى هناك منذ شهر، بالتّحديد منذ شهر، بعد سفر راشد المفاجئ.

- ألو..

- ألو خالتي.

- سلام! وهل لكِ عين لكي تتّصلي بي بعد ما حدث؟!

- آسفة خالتي، لم أنتبه.

- لم تنتبهي؟! كان يمكن أن تقولي أيّ كلام غير هذا لو لم تُصافحيني بذلك البرود القاتل، وتسأليني: هل أعرفُكِ؟

- أنا آسفة خالتي، وأُقبّل رأسكِ، راجية أن تسامحيني. سأصارحكِ، ولكن أرجو ألّا تُخبري أحدًا، هل تعدينني؟

قررتْ سلام أن تستعين بالمأساة، للخروج مما هي فيه.

تغيّر إيقاع صوت أمِّ صديقتها على الطرف الثاني:

- سلام، هل أنتِ مريضة؟

- هل تعدينني بأن يبقى السرُّ بيننا؟

- لن أقوله حتى لنفسي! شغَلْتِ بالي.

- إنني أصابُ بين حين وحين بفقدان الذاكرة لوقت قصير، ولا أعرف أين أنا، أو من أنا! واليوم فهمتُ من أولادي أن هناك من أحضرني إلى البيت دون أن أعرف كيف حدث ذلك!

بدأ النشيج، على الطرف الثاني، خفيفًا، ثم ارتفع قليلًا قليلًا، إلى أن غدا بكاءً مرًّا.

- يا خالتي أنتِ وعدتِ أن تكتمي السرَّ، أرجوكِ.
- خلاص، إنني أمسح دموعي الآن، هل تسمعينني أبكي؟!
وكانت لم تزل تبكي، لكن سلام قالت لها:
- لا، لا أسمعكِ، ولكن لي طلبًا واحدًا؛ أرجوكِ، لا أريد أن يعرف أحد بهذا.
- حتى..
- حتى ابنتك.
لفحتها أنفاس ثقيلة كما لو أنها خارجة من صدر إنسان يحتَضر، ثم صمتٌ طويل، بعد أن أعادت الأم تحويل المكالمة لابنتها!
- ألو، أنا معكِ، قالت صديقتها.
- ما الذي قلتِهِ لها حتى انقلب غضبها عليكِ إلى رضا؟!
- لا شيء، المهم أن المسألة انتهت.
- انتهت بالنسبة لأمّي، لكنها لم تنْتهِ بالنسبة لي.
- صدّقيني، لا شيء يدعو للقلق.
- هذه الجملة لا تقال إلّا إذا كان هناك ما يدعو إلى القلق.
- لقد اخترعتُ سببًا. أرجوكِ، دعينا نضع نقطة في آخر هذا السّطر الذي لم أفهم حتى الآن أيّ كلمة منه.
- كما تريدين، ومتى سنلتقي؟
- ما رأيكِ يوم الثلاثاء، في مطعم الرياح الأربع، قالت سلام.
- الثلاثاء مشكلة كبيرة، ومن الصعب الحصول على حجز.
- إذا كان الأمر متعلّقا بالحجز فسأطلب من راشد أن يدع سكرتيرته تحجز لنا، وسيصنعون لنا طاولة بكراسيها إن كانت طاولاتهم محجوزة.
- المشكلة أننا لن نستطيع أن نتكلّم، فكما تعرفين، هذا هو يوم الكلام، وكل من صمت طوال الأسبوع عما حدث له ومعه، فإنه يأتي ليقول كل شيء دفعة واحدة.

- هل تعرفين أنهم في السابق كانوا يفعلون ذلك ليلة الجمعة، وفي الغرب يوم السبت وليلة الأحد؟!

- قرأتُ شيئًا عن هذا. شوفي، مسألة اختيار المطعم، اتركيها عليّ. اتفقنا؟ قالت صديقتها حاسمة الأمر.

- اتفقنا.

***

قُرِع جرس الباب،

سمع راشد الصغير أمَّه تقول له من الداخل: ليرَ أحدكم مَن على الشاشة.

وعاد الرّنين يدوي لفترة أطول.

أطفأ راشد الصغير، كما باتت أمّه تدعوه، لفرط شبهه بأبيه، أطفأ شاشة الكمبيوتر الأثيرية، التي كان يدور حولها مُفكرًا في إجابة لسؤال ما، وضغط على زرّ افتراضي على لوحة المفاتيح الأشبه بورقة، فظهرت صورة مَن بالباب.

- إنها صاحبتكِ.

- مَن؟

- صاحبتكِ.

***

القشة التي قصمت ظهر البعير، حسب قول الأجداد في ذلك المثل الذي انقرض بانقراضهم، كانت لقاء سلام مع خالة لها. صحيح، أن لا علاقات تربطها بتلك الخالة التي هاجرت مباشرة بعد أن تزوّجت، لكنها تبقى خالتها، وعليها أن تفهم سبب عودتها لتموت على أرض الوطن، أو ما تبقّى منه، أسوة بكثير من المهاجرين الذين يشبُّ في داخلهم حنين التراب للتراب حين يهرمون.

كانت سلام تشتري أغراضها بنفسها، وهي عادة قديمة ورثْتها من أيام العائلة المستورة، حين وجدت نفسها مع خالتها وجهًا لوجه.

في سلام شيء نادر، هو اندفاعها، إذ ما إن ترى شخصًا تربطها به علاقة حتى تنطلق إليه كطفلة. كانت قد أصبحت على بعد خطوتين، وهي تتقدّم ضاحكة: خالتي، خالتي. لكن الخالة استدارت وابتعدت بسرعة لا تتماشى مع عمرها.

تصلّبت سلام مكانها، ودهمَها حسٌّ بأنها فعلا فقدتْ ذاكرتها، ليس القصيرة، بل البعيدة، أو أن تلك المرأة التي فرّت هاربة ليست خالتها.

لم تجد أحدًا تتّصل به سوى صديقتها. أخبرتها بكل شيء، والصديقة صامتة، إلى درجة أن سلام سألتْها سبع مرات على الأقل: أما زلتِ معي؟! فيأتيها صوت همهمة على الطرف الثاني مؤكِّدًا أنها معها، وفي النهاية، قالت لها صديقتها:

- اتّصلي بخالتكِ وحاولي أن تعرفي شيئًا.

- أنت تعرفين، كبار هذه الأيام لا يختلفون أبدًا عن كبار الماضي. حين يحرنون، فإن العالم كلّه لا يمكن أن يجبرهم على أن يتكلّموا.

- اتصلي بإحدى بناتها، أبنائها، وتأكّدي من أن ما حدث قد حدث فعلا! ولكن قبل أن تتّصلي، أحبّ أن أخبرك أن بعض الأشياء التي تحدُثُ معكِ، تحدثُ معي، بل تحدثُ مع عدد غير قليل ممن أعرفهم، فالأشباه باتوا يظهرون في أماكن كثيرة، وإن كان بعض الناس يتكلمون عن هذا كطرفة، ولكنني بصراحة، بدأتُ أرى فيه ملامح مأساة ما، لم أفهمها بعد. وهناك أناس لا يتكلّمون، وأحسّ بأن لديهم ما يخفونه، وبصراحة، أشعرُ أن هؤلاء قد اختصروا الطريق وتعاملوا مع الأمر كمأساة منذ البداية، وإذا ما أردتِ رأيي، فإنني أُصدِّق صمت هؤلاء لا ضحكاتِ أولئك.

وصمتت قليلا، بحيث اعتقدتْ سلام أنها أغلقت الخط. همست: هل ما زلتِ معي؟

- سلام، اتصلي بخالتك، ببناتها، بأبنائها، وتأكّدي، لأن هذه الحادثة لن تكون الأخيرة.

مفاجآت أُخرى!

ما أصاب راشد بالجنون، أن الرَّاصد الجوِّيّ حين عاد للظهور، كان يقلّده في كل شيء، مشيته، طريقة كلامه، بل ودفع الأمر نحو منطقة أبعد حين اشترى سيارة حمراء مثل سيارته.

أما ما أصبح يرعبه فعلا، فهو اختفاء الاختلاف بين قامتيهما.

فكرة واحدة أطبقتْ على عقله: إنّه يمهِّد الأرض لاحتلالي والسيطرة على كلّ شيء لديّ: سلام، الأولاد، الوظيفة. وفكّر: والسكرتيرة، السكرتيرة، كيف نسيتُ السكرتيرة، فلا شيء سيمنعه من الوصول إليها إذا ما تجاوز خطوط الدفاع الثلاثة الأولى!

كل تلك الأفكار، كان من الصعب أن يبوح بها راشد لأحد، لأن تهمة الجنون ستكون في انتظاره.

فكّر بتكليف شخص ما بمراقبة الراصد الجوِّيّ، فوصل إلى أن النتيجة ستكون نفسها. استعاد ذلك المثل القديم: ما حكّ جلدَك مثل ظفركَ.

بعد يومين من تردّد قاتل، لم يستطع إغماض عينيه أكثر، اتصل بسكرتيرته وأخبرها أنه سيتأخر.

صُعقت، أو هكذا بدا ردّ فعْلها.

- ماذا؟

- كما قلتُ لكِ. وأنهى المكالمة، تاركًا إياها تتخبَّط، فلم تخطر ببالها سوى فكرة واحدة: إنه على وشك التخلّي عني، بعد أن بدأ يملّ وجودي هناك ووجودي هنا.

***

انتظره راشد وهو يكافح، مغلقًا فمه وأنفه براحته اليمنى، روائح العفونة المختلطة برائحة غريبة لم يستطع معرفة أصلها، لكن الرَّاصد الجوِّيّ لم يظهر. وحتى لا ينتبه أحد لوجوده المريب أمام العمارة، مضى نحو بائع الخُضر عند الزاوية البعيدة. كان باستطاعته أن يرى مدخل العمارة بوضوح من هناك.

الرجل الضخم، مالك المتجر، رحّب به، مبديًا استغرابه لأن راشد فعلها وجاء ليشتري منه أخيرًا!

اعتذر له راشد، وقد فهم الملاحظة، قائلا إنه يوكِل مسألة شراء الخُضَر والفواكه لأحد سائقي عربات الإسعاف الذين يشترونها من مكان قرب المستشفى، أما فواكه الحبوب فإنه، راشد، يحضرها من صيدلية المستشفى.

ناوله البائع كيسًا، نظر راشد إلى أكوام الخضر والفواكه، وارتبك.

- لا ترتبك يا سيد راشد، هذا الأمر يتكرر في الأسابيع الأخيرة مع كثير من الناس، وبخاصة الرجال الذي لا علاقة لهم بالمطبخ. أنت لا تستطيع التفريق بين الخيار والكوسا، ولا بين الطماطم والتفاح، ولا بين البطاطا والجوافة، أليس كذلك؟!

هزّ راشد رأسه، مؤكدًا ما يقوله البائع.

- مشكلتنا يا سيد راشد أن الفواكه باتت تشبه بعضها بعضًا إلى حدٍّ كبير، وأخشى أن يأتي يوم تصبح فيه متشابهة تمامًا، بحيث لا نعود قادرين على معرفة البرتقال من الخيار، والموز من العنب.

- هل تعتقد أن هذا التشابه يمكن أن يتطوّر إلى هذا الحدّ؟

- سيد راشد، عليك أن تسير عشرِ خطوات لا أكثر وتنظر داخل المحل الذي يبيع الطيور، سترى العجب حقًّا هناك.

- ما الذي تعنيه؟

- لقد باتت الطيور تشبه بعضها بعضًا، لقد تفوّقت على الخُضَر

والفواكه والحمضيات وغير الحمضيات في ذلك! إنها في طريقها لأن تصبح نوعًا واحدًا. ولكن أكثر ما يخيفني هو كيف غدت الأرانب تشبه الكلاب، بدل أن تشبه القطط!

- لا بدّ أنكَ تحاول حياكة طُرْفة في هذا الصباح لأغدو من زبائنك الدائمين.

- بل أحاول أن أقول لك إن هنالك مأساة تتقدّم، وأرى أن الكثيرين لا يدركون هذا.

تركه راشد، وتوجّه مباشرة إلى المحلّ الذي أشار إليه، وهناك، ببابه، وقف متسمِّرًا، كما لو أنه سحابة ضائعة.

بعد دقائق، تحرّك عائدًا. مرَّ أمام بائع الخضر الذي سأله:

- هل رأيت الطُرْفة بعينيك؟ لكن راشد لم يجب.

- على أي حال، سأوصِل لك الأشياء التي اشتريتها لمنزلك، لا تقلق، كما أن لدينا حبوبًا بديلة لأنواع كثيرة من الفواكه المهددة بالانقراض، إذا ما احتَجْت.

صعد راشد درجات البناية، حشر نفسه في المصعد، دخل شقته، وجلس فوق أحد المقاعد كما لو أنه فقد عقله.

***

مع اقتراب صباح اليوم التالي، تذكّر أنه خطط أمس لمراقبة جاره، فنهض، فتح الباب وخرج، دون أن يتناول إفطاره أو يقبل الخدود الأياسِر لأطفاله.

لم يذهب راشد باتجاه بائع الخُضَر، فقد بات يعرف ما الذي ينتظره هناك. انتظر وانتظر أمام البناية داخل سيارته الحمراء، وهو لا يعرف أيهما أكثر قسوة: انتظاره لجاره أم احتماله للرائحة.

ما إن حرّك الرَّاصد الجوِّيّ سيارته الشبيهة الواقفة أمام العمارة، حتى تبعه.

***

كان الرَّاصد الجوِّيّ يقود بتمهّل، محاذرًا تجاوز السيارات في الأماكن التي يُمنع فيها التجاوز، أو يُسرع. وعندما وصلا إلى انعطافة، وكانت سيارة راشد على بعد عشرين مترًا على الأكثر، تمهّل، ووقف، وسمع بنفسه عشرات السيارات خلف الرَّاصد الجوِّيّ تُطلق أبواقها احتجاجًا، كما لو أن القاعدة المرورية الصحيحة هي الالتفاف بجنون.

كاد راشد أن يحبه. إنه شخص مثاليّ فعلا، يُذكِّره بكل التفاصيل الصغيرة التي على العضو الحزبيّ الالتزام بها، كما كان يفعل هو في تلك الأيام البعيدة. وحين رآه يُعطي الأولوية لكثير من السيارات، داعيًا سائقيها للخروج بأمان من شارع فرعي، أو بوابة عمارة، أو للانطلاق من المكان الذي أوقفوا فيه سياراتهم بجانب الرصيف، بدأ راشد يحسّ بأن الرَّاصد الجوِّيّ يتفوّق عليه في آداب السلوك، لأنه، أي راشد، كان يبرّر الكثير من الأخطاء لنفسه متذرعًا بأمور مستعجلة، إلى أن تبيّن له أنه يتعامل مع كل شيء كأمر مستعجل لا يؤجّل، وربما تكون هذه المسألة أيضًا من بقايا تربيته الحزبية التي كانت صارمة أكثر مما يجب.

بدأ راشد يفكر في إيقاف مهمة المراقبة، فترك عينًا تراقب الرَّاصد الجوِّيّ، وأخرى تراقب الشارع بحثًا عن فتحة تتيح له الدّوران للعودة، مع اكتشافه لخجل ما بدأ يتسلل إلى نفسه، ووصل إلى حدٍّ يكاد معه أن يُصدّق الضابط الذي قال له: بل أنتَ الذي أصبحتَ تشبهني.

كانت بعض المحلات التجارية قد بدأت بإغلاق أبوابها، مع أن الصباح لم يكد يبدأ، فأدرك كيف أصبح كثير من الناس، كما تقول آخر الاستطلاعات، ينامون تسع عشرة ساعة يوميًّا.

في اللحظة التي رأت عينه اليسرى ذلك السّهم الملتوي باتجاه الخلف، رأت عينه اليمنى الضوء الأيمن لسيارة الرَّاصد الجوِّيّ يرفّ، فأعطى راشد شارة الانعطاف نحو اليمين ليتبعه، وحسنًا أن لم تكن هناك أي سيارات مسرعة على ذلك الجانب.

تباطأت سرعة سيارة الرَّاصد الجوِّيّ أكثر فأكثر، فأدرك راشد أن ذلك الشبيه يبالغ في احترام قواعد السير، بحيث يساهم في إعاقة حركة انسياب السيارات كثيرًا!

حنَقَ عليه، لاعتقاده الراسخ أن مثل هؤلاء يعيقون أيّ تطوّر، تمامًا مثل أولئك المتسرِّعين الذين يحرقون المستقبل قبل أن ينضج.

الغريب، أن ارتياحًا ما سكنه مع تسلّل الغضب إليه، فوبخ نفسه لأنه تسرّع واحترم الرَّاصد الجوِّيّ قبل أن يتأكّد من أنه يستحق الاحترام.

قبل أن يصل بوابة العمارة الضخمة التي دخل باحتَها شبيهه، قرأ يافطة زرقاء كُتِبَ عليها: دائرة الأرصاد الجويّة!

انطفأ راشد.

حين حاذى الباب، كان على وشك أن يُغلق، ومن ذلك الشقّ الذي لا يتجاوز عرضه نصف متر، رأى بأم عينه خمسة رجال على الأقل يصافحون الرَّاصد الجوِّيّ ويضحكون كما لو أن الشمس عادت لمواعيد شروقها وغروبها الأولى. كانوا يرتدون الملابس نفسها، وكاد راشد أن يُقسم أنهم يشبهونه.

دون أن يشعر، وجد نفسه يكبح تهادي السيارة، ويضع الغيار الخلفي ويرجع ليتحقّق من أن ما رآه، رآه حقًا.

كان الباب قد غدا مقفلًا تمامًا، وسمع صوتًا عاليًا: السيارة رقم 777888، تحرَّك فورًا.

كان جهاز مراقبة حركة المرور محلّقًا فوقه.

تحرّكَ.

***

تشوّش راشد أكثر، لكنّ تشوّشه لم يمنعْه من البحث عن فتحة في منتصف الشارع تتيح له العودة إلى عمله.

وجدها..

***

بتثاقل غريب، شاهده حرّاس المستشفى عبر الشاشات الأثيرية المنتصبة أمامهم يصعد الدرجات. تبادلوا النظرات غير مصدّقين كيف يصعدها كشاحنة هو الذي كان على الدّوام منطلقًا كسهم، بحيث يتوقعون أنه لفرط سرعته لن تراه الكاميرات.

بتثاقل مرّ أمام واجهة قسم الاستقبال دون أن يُلقي التحية. كل من رآه، رفع ساعته ليتأكد من الوقت: موظفات وموظفون وممرضات وممرضون وأطباء، بل وبعض المرضى الذين يروحون ويجيئون أمام مكتبه منتظرين أن تدقّ الساعة دقتها الخامسة، معلنه عن خروج السكرتيرة لتأمل النجوم، قبل ساعات طويلة من حدوث ذلك!

تسع ورود حُمْر

فوجئت زوجة الضابط بتغيُّرات غير معهودة في علاقتها بزوجها. أكثر رقَّة أصبح، واختفى من عينيه ذلك البريق الغامض الذي لم تكن تجد له تفسيرًا. اختفتْ سهراته الليلية الغامضة، السهرات التي كان من الصعب أن يتحدّث بشأنها معها، لأنها سهرات ذات طابع أمنيّ، سرّي، كما أوضح لها بحزم ذات مرّة. ورغم أن الورود باتت كائنات نادرة، من الصعب الحصول عليها، بات يحمل لها وردة، مرَّة كل أسبوع.

كلّ تلك التغيّرات التي نضجت على نار هادئة، أقلقتْ زوجته، ودهمها إحساس بأن العالم على وشك الانتهاء، وأن كلّ ما يفعله زوجها هو التكفير عن تقصيره، وإهماله لها، منذ صبيحة اليوم التالي لزواجهما. فكّرت أن الأمر متعلّق بمعلومات سريّة يعرفها، ولا يريد أن تنتشر فتغدو ظاهرة فزع عامة لن تورث البلد إلا الفوضى. كانت على ثقة، أنه بهذا يفعل الشيء الصحيح، فما دامت النهاية الحتمية قادمة، فليمت الناسُ بهدوء ودون أن يكونوا مضطرّين، مدفوعين بغريزة البقاء، إلى التهام بعضهم بعضًا.

تحت ظلال تلك الفكرة، جلست زوجته صامتة، مكتفية بفائض المحبّة الذي غمر بيتها وحوّله إلى حديقة.

***

كانت المراقبة الدقيقة التي بات راشد فريسة لأعينها الإلكترونية والبشرية، قد جعلت الضابط يقتنع أخيرًا بأن بعض الظنّ إثم. ففي كلِّ

مكان شوهد فيه راشد، كانت معه امرأة واحدة هي سلام، زوجته!

يقين لا يتزعزع سكن الضابط: أن راشد قد تغيّر، وأنه قرر أن يكرّس حياته لأسرته، وزوجته التي تحبه أكثر مما تحبّ أخاها، هو.

لسبب غامض، لا يدركه أحد، حتى الضابط نفسه، كان راشد مُلْهِما ومِثالًا يمكن الاقتداء به، رغم الاختلاف الكبير الذي كان بينهما في عزّ شبابهما.

هكذا، فكّر الضابط أن يسبق راشد خطوة، فإذا كان زوج أخته قد ارتدع بعد فضيحة، فإنه سيُعفي نفسه من هذا، وسيتخلّى عن صاحبته قبل أن تضبطه زوجته متلبِّسا، ولم يكن يستبعد أن يمرّر لها راشد معلومة بهدف الانتقام.

تخلّى الضابط عن صديقته، وغدت كل تصرفاته مع زوجته تكفيرًا مُبالغًا فيه، كما أحسَّتْ، عن ماض مجهول لا يعرفه أحد.

في البداية، لم يكن الضابط يصدّق التقارير والصّور التي أمامه، بل لم يصدّق نفسه حين رأى راشد مع سلام، في المطعم نفسه الذي شهد الفضيحة. لكنه في النهاية استسلم، وانتابه حسّ عميق بأن علاقة زوج أخته بالسكرتيرة كانت منذ البداية علاقة عمل، وأنه، الضابط، ظلّ ينفخ فيها إلى أن غدت ضخمة إلى حدٍّ لا يمكن بعده إلا أن تنفجر، وانفجرتْ، ولكن في وجهه هو، لا في وجه شقيقته وزوجها.

بعد شهرين، قرر أن يُكفِّر عن سوء ظنه، بأن يتبسّط ويزور راشد في مكتبه، في المستشفى، ودون موعد مُسبق.

ذهب إلى هناك.

قرع الجرس وانتظر. لم يُفتح الباب، سألتْه السكرتيرة إن كان على موعد مع راشد، رغم أن معلوماتها تقول إن ذلك غير وارد في جدول المواعيد، فقال لها: إنها زيارة شخصية.

فأخبرته أنها تعرفه تمامًا، ولا مبرر لأن يُعلِمها بالعلاقة التي تربطه براشد، وطلبتْ منه أن ينتظر ثواني لا غير.

- أدخليه، قال لها راشد، وكم فوجئتْ بذلك.
- ولكنه جاء بلا موعد مُسبق.
- لا مشكلة. أرجو أن تخرجي إليه وتستقبليه!
- أنا؟!
- نعم أنتِ.

فتحت باب غرفتها الدّاخلي، مرّت بجانب مكتب راشد، فتحتْ الباب، فوجد الضابط نفسه وجهًا لوجه مع شقيقته. تراجع خطوتين، وقد لفحه ذلك الإحساس الحارق بها، الإحساس الذي بات يخشاه، ويجعله يخشى نفسه! وفي أقلّ من لحظة، كان عددٌ من زوار المستشفى وممرضيه وممرضاته ومرضاه، قد تجمّدوا في أماكنهم وهم يحدّقون في ذلك الجمال الذي بزغ فجأة، ولم يتمالك أحد المرضى نفسه فصاح: أخرجي قليلا لباحة المستشفى لكي يعود النهار ثانية إلينا.

التفتَ الضابط إليه بغضب، وكان بودّه أن يقتله، لولا أنه رآه موصولًا بعدة أكياس دوائية مُعلّقة على جانبَي كرسيّه المتحرّك.

***

ما حير الضابط أن سلام قد اختفت حين استدار نحوها. لم يكن هناك سوى راشد الذي لوّح له، طالبًا منه الدخول.

دخل، محاولا بصعوبة أن يلملم شتات نفسه، سأل:
- هل رأيتُ سلام، أم أنني كنتُ أتخيّل؟!
- بل رأيتَها.
- وأين هيَ؟
- إنها في الداخل.
- أين؟!
- في الغرفة المجاورة، وأشار راشد نحو الباب المغلق.
- هل هي في زيارة لك؟

- لا، إنها تعمل هنا، تعرف أن الأولاد كبروا قليلا وأصبح بإمكانها أن تُشغِل أوقاتها بأشياء مهمة أخرى.

- تعني أنها تعمل كسكرتيرة لك؟!

- تمامًا، ولكنني أنصحكَ: لا تفتح موضوع العمل معها أبدًا، لسبب ما، لا أعرفه حتى أنا، زوجها، لا تحبّ أن يتحدّث معها أحد في هذا الموضوع.

- والسكرتيرة؟ أعني سكرتيرتك السابقة؟

- ببساطة انتهى عملها.

- هل تسمح لي بأن أُلقي التحيّة على سلام، فهي في النهاية شقيقتي؟

- لن أمنعكّ، ولكنني أنصحك: صافحها، واخرج بسرعة، كي لا تخسرها.

- ولماذا أخسرها؟!

- لقد تبين لي أنها تقدّس العمل، ولولا أنني طلبتُ منها أن تفتح لك الباب لما فتحتْه، لأنك جئت بلا موعد مسبق. هنا هي امرأة أخرى تمامًا غير التي تعرفها.

- لا ضرورة لمصافحتها، قال وهو يقصد ذلك تمامًا.

- بل من الضروري أن تفعل ذلك الآن ما دمتَ دخلتَ. ربما ستغضب أيضًا حين تعرف أنك غادرتَ وكأنها ليست شقيقتك.

نهض راشد، سار صوب الباب الداخلي، أشرعه، وقال:

- حضرة الضابط يريد أن يُلقي التحيّة.

هزّت رأسها، فأيقن راشد أنها تحفظ الدّرس جيدًا.

أطلّ الضابط، وأشار لها من بعيد محيّيًا، خائفًا أن تتقدّم فتتلاشى المسافة بينهما. رفعتْ يدها وأشارتْ له، ونصف ابتسامة تحاول بالكاد الوصول إلى نهايتَي شفتيها.

- لن أزعجكِ، مبروك. قال لها وهو يتراجع، وخرج.

***

- أن يعيّنها سكرتيرة له، طاردًا السكرتيرة السابقة، فهذا يعني الكثير.

قال الضابط لنفسه.

في ذلك المساء، عاد الضابط إلى البيت مبكرًا، وهو يحمل الوردة الحمراء التاسعة في يده!

المأساة

قررتْ سلام أن تباغته في المستشفى.

ارتدتْ فستانا أسود كالليل، على حوافّه السفليّة طُرِّزتْ نجوم بخيوط حريرية رقيقة. غادرت الشقّة. كانت مرتبكة، على موعد للقاء مع نفسها! كل ما مرّ خلال الأشهر الماضية فرّخ في روحها أسئلة صادمة لا إجابات لها: كانت في عدة أماكن في آن، لكن أكثر ما حيرها أن المكان الذي ظهرت فيه أكثر من أي مكان آخر كان مكتب زوجها!

في البداية ظنّت أن من يحملون إليها تلك الأخبار، كانوا يشيرون إلى صورتها الشهيرة التي التقطها لها، معتقدة أنه عَمِل على تأطيرها، ووضعها في صدر المكتب، فكانت تضحك بسعادة، لكنها اكتشف فيها بعد أن ضحكاتها العالية، كانت أعمق مستنقع خوّضتْ فيه في حياتها، لأن ذلك الأمرٌ الذي تفتَّح كطرْفة لن يكون أقلّ من مأساة.

***

خرجتْ من المصعد ففوجئت براشد أمامها، تراجعت خطوتين، ودهَمَها حسّ بأن راشد قد حضر بنفسه ليمنعها من اللقاء بنفسها. ولكن كيف استطاع أن يعرف؟!

- إلى أين؟ سألها برقّة بدّدت كلّ مخاوفها.

- مشوار، مشوار صغير.

- أظن أن لدينا مشوارًا أهم، ووضع يده على كتفها، ففهمت.

بأصابع خفيفة كجناح عصفور دفعها إلى داخل المصعد، استجابت، وما إن أنغلق الباب، حتى مال عليها وقبّلها كما لم يُقبّلها في أيّ يوم من الأيام، هي التي كانت على يقين من أنه لا يجرؤ على تقبيلها في أيّ مكان عام.

في غرفتهما، كان ثمة راشد جديد يولد، راشد شاب، مجنون، لا يختلف عن ذلك الذي عرفته في مطلع زواجها.

كان الحسّ الوحيد الذي غمرها بالبهجة، أن كل ما قيل عن شبيهات لها مجرد وهم، لأنها لا تتكرّر، ولن تتكرّر، ما دام كل ذلك الشوق يتّقد في خلايا زوجها.

حين انتهيا، قالت له: سأعترف لك، كنت ذاهبة إلى مكتبك؟

- ولماذا تذهبين إلى مكتبي؟

ابتلعت سلام كل أفكارها السوداء، وقالت:

- كنت مشتاقة إليك.

- تعرفين، ربما يبدو الأمر غريبًا بعض الشيء، ولكنني أحسست بنارك تهب عليّ هناك، تلفحني كريح دافئة، فألقيت كل ما بين يديّ من أشغال لا تنتهي وأتيت.

- ما زلتَ تحبني إذًا؟

- أحبك! لو لم يكن جمال هذه الكلمة قائما في بساطتها، وأحرفها القليلة، لاخترعتُ كلمة من ألف حرف مكانها لأقولها لكِ وأردّدها إلى ما لا نهاية.

- صحيح؟

هزّ رأسه بتأثر، حتى أنها رأت طيف الدّمع في عينيه. نظر إلى ساعته، وقال: عليَّ أن أذهب الآن.

- تعني: عليك أن تعود.

- أجل، عليَّ أن أعود إلى المستشفى، ولكنني سأحرص على أن أرجع

بسرعة إلى البيت هذا المساء، لكن لدي طلبًا بسيطًا هو أن تعتبري هذا اللقاء سرّنا كعشاق، همس في أذنها بنعومة أشعلتْها.

ضحكتْ، وعلّقت:

- تعني أن أحرص على أن لا يعرف زوجي بما حدث!

- أظن أن هذا أفضل، أليس كذلك؟ لا أريد أن يتهوّر، فأنا أعرف كم يحبك، لا أريد أن يُقدِم على عمل مجنون إذا ما عرف بلقاءاتنا.

- لقاءاتنا؟! قالت وهي تحتضنه.

- منذ اليوم سأعمل على أن أفاجئك بين حين وحين بلقاءات سريّة أكثر. وضحك بسعادة وهو يبعد وجهها عنه بلمسة العصفور نفسها التي أدْخلتْها المصعد. مال نحوها وقبّلها، وقال: بعض العمل لن يكون مضرًّا بعد كلّ هذا الحبّ.

في السرير تركها غيمةً بيضاء تملؤها البهجة وتُمرجحها ريح رقيقة ساحرة؛ وقبل أن يصل إلى الباب، وضعت رأسها على المخدة. مُخدَّرَة كانت بجرعة حب زائدة افتقدتها طويلا.

سمعت الباب يُغلق قبل أن تُغلق عينيها، وما إن أغلقتهما، حتى سمعتْ هاتفها. كان راشد! توقعتْ أنه سيقول لها كلامًا أجمل مما سمعته، قبل أن يبتعد.

- أعرف، اشتقتَ إليّ.

- كثيرًا.

- ما رأيكَ أن تعود؟

- تقصدين أن أترك العمل وآتي الآن؟ كنت أتمنى ذلك، لكن الأمر صعب.

مثل مجنونة انطلقت سلام نصف عارية نحو الشرفة. كادت تسقط حينما نظرت إلى الأسفل.

لم يكن هناك أحد.

وسمعت راشد يسألها: هل تسمعينني؟

وقبل أن تجيب، رأته يخرج من بوابة المبنى، ينظر إلى الأعلى، حيث هي. فوجئ بوجودها. وللحظة، أوشك أن يلوّح لها مودِّعًا، لكنه تدارك الأمر وأعاد يده إلى جانبه، وهو يلقي نظرة سريعة على الشرفات المطلّة عليه، وبسرعة، اندسّ في سيارته، وانطلق كقذيفة.

المأساة ثانية

مُتعَبًا بدا راشد وقلِقًا في المساء، وصامتة كانت سلام.

- هل هنالك شيء؟ سألها.
- لا، هل هنالك شيء؟ سألته.
- لا.

وجلسا صامتين كميتين في قبر ضيّق. ولعدة أيام، تكرر المشهد، وتكرر السؤال كطاحونة هواء في مهبِّ ريح أبديّة.

كان لا بدّ من أن يحدث شيء، أي شيء، ليفهما ما حدث.

راشد كان قلقًا من زيارة الضابط المفاجئة، التي لا يعرف، ولا يستطيع أن يتنبأ بنتائجها، وسلام ملقاة في قعر ما حدث، تنتظر يدًا تلقي لها حبلا وتنتشلها، وإن أصبحت على يقين، من أنها لن تبلغ حافة هوَّتها، مهما كان ذلك الحبل طويلا وتلك اليد قويّة.

***

بعد أقلّ من أسبوع عادت حوادث ظهور سلام في أماكن مختلفة، وفي مكتب زوجها بشكل خاص، ولم يكن هنالك من شيء يمكن أن يخرجها من القعر سوى مكالمة من أخيها: صحيح أنك لم تستقبليني في مكتبكِ الجديد بابتسامتك الجميلة التي أحبّها، لكنني سعيد من أجلك فعلا. أظن أن عملك في مكتب راشد سيكون مفيدًا لكِ كثيرًا.

انطبق صدرها، وبصعوبة استطاعت أن تقول: شكرًا لك، سأتصل بك، أنا الآن مشغولة قليلا.

- أنتِ في المكتب إذًا.
- أجل في المكتب.

***

أشرعت باب منزلها، يملؤها خوف جارف، أن تجد نفسها وجها لوجه مع الرّاصد الجوِّيّ. لم يحدث.

هبطت الدرجات القليلة نحو البوابة الخارجية، كما لو أن الراصد الجوي يلاحقها صارخًا: إلى أين أنت ذاهبة، أنا هنا! في وقت تهبّ عليها رائحة عفونة غريبة لم تعرفها من قبل، لم تفهم إن كانت تدفعها إلى المستشفى أم تدفعها إلى البيت!

كانت النجوم الصغيرة البيض على أطراف ثوبها السفلية تهتزّ وتسقط كالثلج، مع كل خطوة تخطوها.

***

لم يكن فستانًا جديدًا، إنه واحد من فساتين ما قبل الظلام؛ فقد اختفت النجوم تمامًا عن ملابس الناس الجديدة، وكذلك القمر، وغدت صوَر الشمس بكل أشكالها، هي التي تُزيّن ما يرتدي الرّجال والأطفال والنساء والشيوخ. لكن سلام احتفظت بذلك الفستان وهي على يقين من أنها ستحتاجه في يوم ما.

لم تكن هناك من مناسبة أفضل لارتدائه من أن تذهب للقاء نفسها، وإن خشيت كثيرًا أن تلتقي بأكثر من شبيهة لها في مشوار واحد.

فكّرت فيما يمكن أن تفعله إذا ما حدث هذا، وهل عليها أن تقول الكلام نفسه أم تقول شيئًا آخر في كلِّ لقاء؟

فكّرتْ أن ترجع، لولا أنها اكتشفت أنها غدت في السيارة التي جاءت لتحملها إلى المستشفى.

كانت وحيدة، فالسيارة بلا سائق، ككل سيارات التاكسي المستخدمة، بل مثل معظم السيارات. لكن بعض الناس ظلّوا متشبثين بخيار السيارة التي يقودونها ويوجّهونها كيفما شاؤوا مستخدمين أطرافهم.

دراسات كثيرة أثبتت أن هناك ظاهرة ضمور في الأعضاء، بدأت تعاني منها نسبة عالية من الناس، بسبب اعتمادهم المتزايد على السائقين الآليين الذين هم في الحقيقة مجرد حواسيب فائقة الذكاء يمكن للمرء أن يتحدث معها في أي موضوع يريد.

الشيء الوحيد الذي كان مريحًا في ركوبها لتلك السيارة، أن الرائحة القاتلة اختفت، وأن السائق الآلي بدا منطويًا على نفسه، لا يحب الكلام، وأراحها أكثر أنها لن تصادف أحدًا يُشبهها، أو يشبه راشد، مثلما يمكن أن تصادف في حافلة أو قطار أو طائرة أو زقاق، أو في مدخل البناية، أمام المصعد. كانت سلام هناك وحدها، وحين تقول: وحدها، تعني ذلك تمامًا.

***

راشد الذي كان مغرمًا في زمن ما بفستانها الأسود، غدا واحدًا من أشدِّ أعدائه، وكانت تستغرب كيف يمكن لإنسان أن يعادي فستانًا ويُضمر له حقدًا كهذا! صحيح أنه حاول أن يُفهِمها أن الأسود بالنسبة إليه أشبه بجدار يرتطم به الإنسان.. ويرتطم، مع أنه لا يستطيع أن يلمسه ولا يستطيع أن يراه، ولكنه يصطدم به على نحو ما، مُربك، فيهشّمه، وحين يمدّ يده ليلمسه يختفي. جدار مُعَدٌّ للارتطام ليس غير! لحظة واحدة يحسّ به، لحظة سماعه لصوت تهشّم وجهه أو أحد أطرافه.

***

توقّفت السيارة، وحين رفعت سلام رأسها، عرفت أنها أمام المستشفى. فُتِح البابُ المجاور لها، فباغتتها رائحة مختلفة، خليط بين رائحة الموت والعفونة والجراح والمواد المطهرة النفّاذة. ترجّلتْ، أُغلِق الباب من جديد، وانطلقت السيارة بهدوء انسيابِ روح، مغادِرةً ساحة المستشفى المكتظة بكل شيء.

***

لم يُفتَح مكتب زوجها حين قرعتْ الجرس ووقفتْ محدّقة بالباب، حتى مع وجود أكثر من كاميرا ترسل صورتها إلى الداخل.

تجمّدت السكرتيرة حين نظرت للشاشة الأثيرية أمامها. صحيح أنها رأت سلام في مطعم الرياح الأربع، وعن قرب، لكن سلام لم تكن قادرة على أن تراها في ذلك اليوم.

تمنّت لو أنّ راشد في الداخل ليتصرّف. اتّصلت السكرتيرة به، لم يُجب. بدأ فزع ما يتسللِ إلى أوصالها ويهزّها، كما لو أن أربع رياح تهبّ عليها من أربع جهات دفعةً واحدةً.

راحت حركة ما تدبّ حول سلام، التفتتْ. كانت مئات عيون المرضى والزوار والأطباء والممرضين والموظفين مطبِقة عليها. خفق قلبها بشدة، قرعت الجرس ثانية. وتصاعد صوتٌ من بين الجموع: أخرجي قليلا لباحة المستشفى لكي يعود النهار ثانية إلينا.

عادت السكرتيرة تتّصل براشد، دون أن تفارق عيناها الشاشة أمامها، وتزايد عدد الناس الذين أغلقوا الممرّ، فنظرت إلى ساعتها كما لو أنها تبحث عن ملجأ فيها، كانت تشير إلى الحادية عشرة تمامًا. لمحت راشد في الزاوية اليمنى العلويّة من الشاشة يتقدّم من بعيد محاولا بصعوبة شقّ طريقه نحو باب المكتب. التفتتْ سلام خلْفها وقد شعرت بوجوده، لم يكن يظهر منها سوى وجهها الذي احتلّه الفزع، أسرع راشد أكثر، وقبل أن يصيح في وجوه المتحلّقين حولها كقطيع، كانوا قد بدأوا بالتراجع عائدين إلى أماكنهم ذابلين من تلقاء أنفسهم، كما لو أنهم أصيبوا بخيبة أمل! ذلك حيّر راشد أكثر وأكثر، وصل إلى سلام، صرخ مؤنبًا: ما الذي يجعلك تقفين هنا في الخارج؟

هزّت سلام رأسها مرتبكة، ضائعة، فمرّر يده على الشاشة الإلكترونية، دفعها أمامه، وقبل أن يغلق الباب نظر نحو أولئك الموجودين في الخارج، كانوا يهزّون رؤوسهم بأسى بالغ، في الوقت الذي راحت السكرتيرة، في مكتبها، تدور حول نفسها باحثة عن مكان تختفي فيه.

استدار راشد لاهثًا خلف طاولته، وقبل أن تلامس مؤخّرته الكرسي، رأى الفستان الأسود المطرّز بالنجوم، الفستان الذي يكرهه. عاد، ونهض. توجّه إلى باب غرفة السكرتيرة، أشرع جزءًا ضيقًا منه، ونظر إلى حيث تجلس، فرآها تدور حول نفسها. أغلق الباب بهدوء، وعاد إلى طاولته، وقبل أن يجلس، كانت سلام قد نهضتْ. توجّهت نحو باب غرفة السكرتيرة، دفعتْه برعبها، وتجمّد كل شيء: الهواء، الأصوات القادمة من الخارج، راشد نفسه، السكرتيرة، ويد سلام.

كانت أمام نفسها.

القاتلة!

لم تعد سلام إلى البيت؛ ولم تفكّر بالذهاب إلى بيت أخيها، كان ذلك أسوأ ما يمكن أن تفعله، سارت في الشوارع المظلمة، سارت في الرائحة العفنة، في العفونة ذاتها، العفونة اللزجة ذات الملمس الخفيّ على الجبين، كالريح المحملة بالغبار، كانت تخشى أن ترفع يدها لتمسح وجهها فتعود إليها خضراء كالطحالب الداكنة في العتمة الأدكن. بعد نصف ساعة شعرتْ بتعب شديد. كان حذاؤها الضيّق يُطبق بقوة على قدميها مع كل خطوة تخطوها. وجود ذلك السوق الضخم على يسارها، كان أشبه ما يكون بطوق نجاة أنْساها كلّ ما مرّ بها! وعجبتْ كيف أن التحرُّر من حذاء مُطبق على القدمين، يصبح في لحظة ما، أكثر أهمية من التحرّر من راشد نفسه، والتحرّر من نفسها أيضًا، بعد تلك المفاجأة التي خبأها طويلا، بعيدًا عن عينيها، وبعد تلك المفاجأة التي حاكها الرّاصد الجوّيّ لها ودفنتْها في داخلها، بعيدًا عن عينيه.

أمّا ما لم يخطر ببالها أبدًا، فهو استخدام راشد لصورتها لإعادة إنتاجها ثانية.

استعادت حكايات والدة صاحبتها، وحكايتها، هي، مع خالتها، وأوشكت تقسم لفرط غيظها أن كلَّ تلك الحوادث الغريبة كانت السكرتيرة وراءها!

أشبه بمحطة فضائية عملاقة من تلك التي بدأ البشر يقطنونها في أكثر

من كوكب، كان السّوق التجاري. استرجعت تقارير مصوّرة رأتها في التلفزيون، وهيئ لها أن ما تراه هو مجرد مسرح عملاق رباعي الأبعاد، وأنها ليست أكثر من مشاهدة وحيدة. كان الكثير من رواد المقهى يتابعون باستغراق شاشات أثيرية، ثلاثية الأبعاد، لا يراها سواهم، شاشات خفيّة، يستمتعون بما تعرضه مستخدمين نظارات مشفّرة. بعضهم يضحك، آخرون عابسون، أو يحاولون منع تدفق الدموع من أعينهم، وبعضهم مستثار بشكل ملفت.

***

حين وصلت النادلة تحمل كأس العصير الذي طلبته سلام، ارتجف الكأس في يدها، مثل يدَي سلام المرتجفتين، جسدها المرتجف. لكن سلام لم تنتبه، كانت منشغلة بتحرير قدميها من الحذاء الضيّق.

وضعتِ النادلةُ الكأس بسرعة على الطاولة، وقبل أن تستدير تمامًا، لمحتْ سلام نصفَ وجهها. لكن شعرها المتموِّجة أطرافه، فضح الجزء المختفي من ذلك الوجه. كانت هي، كانت نسخة عن السكرتيرة التي تركتْها وراءها. نادت بصوت مرتفع محموم:

- إذا سمحتِ.

تجمّدت النادلةُ في مكانها، لكنها لم تملك في نفسها القوة لكي تستدير. نهضتْ سلام، دون أن تتمكن من إعادة قدميها المرتجفتين إلى الحذاء، سارت نحو النادلة حافية. وقفتْ أمامها، كانتا تملكان القامة ذاتها. نظرت سلام إلى يدَي النادلة، كانتا يديها هي!

تحوّلتِ عيون كلّ من في المقهى إليهما. وسط ذهول الناس بمدى تطابقهما، أُشرعت أعين الهواتف التي كان بعضها معلّقًا في الآذان كبتلات الزّهور، أو فوق الصدور كقلائد ناعمة بألوان زاهية، أو خواتم بألوان كهرمانية، في سباق لالتقاط صورة نادرة. عمَّ الصمتُ، وما لبث أن امتدّ إلى سلالم السوق التجاري والممرات العالية المطلّة على باحة مدخله الواسعة.

- هل تتبعينني؟ سألتْها سلام، وأضافتْ، بعد كل ما فعلتِ، كيف تتجرئين وتتبعيني؟!

- أنا؟ إنني أحاول التخلّص منك منذ شهرين دون جدوى، ألا يكفيكِ أنني تركتُ عملي بسببكِ، وتركتُ البيت، وتركت المدينة؟ كم مرّة عليَّ أن أختفي لأختفي فعلًا، ولْتختفي أنتِ إلى الأبد؟! ألا يكفيكِ تلك المصيبة التي أوقعتِني فيها حين اتُّهمتُ بجريمة قتْل أنتِ ارتكبتِها؟

تجمّدت سلام، كان صوت الشبيهة صوتها.

- أنا؟!

- ومن غيركِ، لقد كنتُ أُخطط للعودة ثانية إلى بيتي، لكنهم قالوا لي إنهم رأوكِ هناك. كيف استطعتِ أن تعرفي بأنني هنا؟ وراحتْ النادلة تبكي بحرقة. فلم تجد سلام من حلٍّ ينقذها سوى الابتعاد هاربةً، في وقت راحت فيه النادلة تصيح:

- كيف استطعتِ الهرب من السّجن؟ كيف؟ وارتفعت وتيرة انهيارها فصاحت:

- اقبضوا عليها، مجرمة، مجرمة!

قبل أن تصل سلام، حافية، إلى الباب، أطبق عليها رجُلا أمْن، وضع أحدهما القيد في يديها، في وقت أمسك بها الآخر من كتفها بقبضة طاحنة.

بذهول سارت سلام بينهما، في الوقت الذي لم تتوقّف فيه النادلة عن الصياح:

- مجرمة، مجرمة، اقبضوا عليها.

نهض أحد الرجال، وسار نحو النادلة، وهو يطلب من الناس أن يخلوا له طريقًا:

- ابتعِدوا رجاء، أنا طبيب، ابتعِدوا.

وما كاد يصلها حتى صاح رجلٌ من أحد الممرات العالية المطلَّة على باحة المدخل:

- إنه نصاب، أنا الطبيب!

التفتَ الناس إلى الأعلى، فوجدوا الطبيب الذي في الأعلى نسخة عن الطبيب الذي في الأسفل! استداروا للتأكّد مما يجري، فرأوا الطبيب الذي في الأسفل يركض نحو البوابة الخارجية.

صاح الطبيب:

- مجرم هارب، اقبضوا عليه. لكن أحدًا لم يتقدّم لتنفيذ المهمة، لأن رجلَي الأمن كانا قد غادرا وهما يقتادان سلام إلى الخارج.

بعض رجال الأمن في الطوابق العليا، رأوا الطبيب المزيّف يركض، فاندفعوا خلفه، دون أن يعرفوا ما فعل. لم يستطيعوا اللحاق به. وما هي إلا لحظات حتى عمّت الفوضى، فقد كان الناس يركضون في الاتجاهات كلّها، وأصوات أطفال ومُسِنِّين وشباب، وحتى رجال أمن، يصرخون الصرخة ذاتها:

- مجرم، مجرمة، أمسكوا به، بها...

وما هي إلا لحظات حتى راح الأشباه يتطايرون في باحات المبنى الضخم وممراته كالشّرر!

نهاية العالم!

استغرب الضابط ورود مكالمة من مركز أمني لم يسبق له التعامل معه، ولا تربطه بأيّ من أفراده أيّ علاقة.

تردّد في الردّ، فسألته زوجته:

- لم لا تجيب؟

- أظن أنني لست المقصود باتصال كهذا.

كان يعيش لحظة هدوء نادرة. أشار إلى زوجته أن تقترب، اقتربت، فضمّها إلى صدره بذراعه الأيمن القوي.

- تعرفين، لفترة قريبة، كنت أعتقد أن سلام وراشد أسعد زوجين على الأرض، إلى أن تأكّد لي أننا يمكن أن نكون أكثر سعادة منهما، وإن كان الفضل يعود إلى راشد الذي فهمتُ منه، دون أن يقول لي، بأن العائلة هي أهمّ شيء في الكون.

- ألهذا تخفّفتَ من أعمالك ورأيتَني من جديد؟ سألته زوجته.

- لقد اكتشفتُ، أن العمر ينتهي والعمل لا ينتهي، كما كان أجدادنا يقولون. وصمتَ، ثم أضاف: تعرفين، إن بعض الحِكَم والأقوال تبقى مهمّة، لأنها خلاصة ما فكّروا فيه طوال الزمان.

لم تعلّق الزوجة، اكتفت بالضغط على صدر الضابط برأسها، كأنها تريد أن تكون كلّها في داخله، وحين لم يتحقّق لها ذلك همست:

- ألا تعتقد بأن علينا القيام بزيارة لراشد وسلام، لقد مضت شهور دون أن نعبر عتبة بيتهما معًا.

- تعرفين، أظن أنني مدين لسلام بزيارة حقيقية، ومعكِ. أريد أن أفتح صفحة جديدة معها.

وعاد له ذلك الإحساس الغريب بشقيقته، فأضاف: ولكن ليس الآن، ليس الآن!

تململت زوجته وسألتْ:

- تتحدّث عن صفحة جديدة، فهل هناك ما عكّر بياض الصفحة القديمة؟

- أبدًا، أبدًا، قال وكأنه ينفي تهمة. واستغرب أنه يتصرّف كأي متّهم ضعيف ينهار بعد السؤال الثالث!

استعاد صورة وصلابة راشد تحت التعذيب، فهمس لنفسه: لن أرى أحدًا بصلابة ذلك الراشد ولا باستقامته، فعلًا رجل.

عاد رنين الهاتف من جديد، كان المركز الأمني نفسه هو المتّصل.

- أظن أن وراء إصرارهم أمرًا مهمًّا.

- **Open**. ألو..

- نعم، أنا نفسه. هل هناك شيء؟

- ... ...

- هل يمكن أن تعيد ثانية ما قلته؟

- ... ...

- أنت متأكد إذًا!

- ......

- أنا قادم في الحال.

- هل حدث أمرٌ سيء؟ سألت زوجة الضابط بقلق.

لم يُجب.

فأحسّت أن تلك المهمات التي تخلّص منها زوجها عادت لملاحقته ثانية في مهمة سرّية كبرى لا يستطيع التحدُّث فيها.

احترمتْ صمته، سبقتْه إلى غرفة النوم تناوله ملابسه وحذاءه، وهو يرتديها على عجل، صامتًا، وكأنه أوّل من يتلّقى خبر نهاية العالم.
خرج بسرعة.

***

أمام باب المركز الأمني الذي بُنيَ في فسحة واسعة بعيدًا عن البيوت، كان العالم قد تحوّل إلى نهار، فالأضواء الساطعة مثل كشافات ملاعب كرة القدم تنير كل زاوية.
بصعوبة استطاع شقَّ طريقه بين الناس الذين كانوا يصيحون: مجرم، مجرمة، أعدموه، أعدموها!
حين وصل المدخل الرئيس للمركز، فتح له رجل شرطة ضخم الباب.
دخل، فوجد نفسه وجهًا لوجه مع سلام.
كانت منهارة.

***

في طريق العودة إلى بيتها، سمع منها التفاصيل كلّها، منذ وصولها إلى مكتب راشد، مرورًا بالسوق التجاريّ، وتلك الشبيهة، حتى وصوله إليها.
كانت تحكي وتبكي وهي تعمل على إخفاء قدميها العاريتين، وحين أوشكت أن تبوح له بما حدث بينها وبين الرّاصد الجوِّيّ، مدفوعة، دون وعي، بطوفان الاعترافات، عضّتْ يدها وراحت تصرخ بصوت مرتفع.
فكرة واحدة كانت تشتعل في داخل شقيقها: لو أن راشد أمامه ليطلق النار عليه، عشر طلقات، عشرين طلقة. واختلطت في داخله دوافع كثيرة لم يعرف ما هو منها الأقوى، ما حدث لسلام، أم لأن راشد خدعه ثانية واستطاع الاحتفاظ بالحقائق كلّها لنفسه، أم لأنه دفعه للتخلّي عن صديقته، مع أنها كانت امرأة جميلة وجيدة، وكان سعيدًا دائمًا بالوقت الذي يُمضيه معها أكثر من ذلك الذي يمضيه مع زوجته؟! أم لأنه أوقعه في براثن تلك الشهوة الرهيبة، حينما قدّمه إليها؟

في تلك اللحظة السوداء، التي لم يتخيلها، كان أجمل ما حدث أن رائحة الأخوّة عادت تهبّ عليه ثانية، حين مدّت له سلام حبل النجاة، بما اكتشفتْه، لتنتشله في بئر الوهْم الذي ألقاه فيه زوجها.

أوصلها إلى البيت:

- سأصعد معكِ لكي أطمئن.

- لا بأس، من الأفضل أن أصعد وحدي.

- متأكدة؟

- متأكدة تمامًا. وهناك مسألة أخرى، ما حدث لا يعرفه أحد غيركَ وغيري، اتّفقنا؟

صمت الضابط مبديًا عدم رضاه.

- لم أسمعكَ تقولها!

- ماذا؟

- اتّفقنا.

- هل تعنين..؟

- لا أريدكَ أن تتحدّث مع راشد في الأمر أبدًا، سأحلّ المشكلة بنفسي.

- أرجو أن لا تفكري باستخدام المسدس.

- ماذا تقول؟! صرختْ في وجهه.

أدرك أنه تجاوز الحدود كلّها، فراح يعتذر.

- ولكنني سأبقى هنا قليلًا، وأُراقب. لا أريد أن يتطوّر الشِّجار إلى..

- قبل قليل كنت أقول لنفسي حسنًا أنني فعلتُها واتصلتُ بكَ، لا تجعلني أندم على ذلك. قالت سلام تؤنِّبه.

هزَّ رأسه، وقاد سيارته مبتعدًا. كان محرِّكها يجأر عاليًا، كما لو أن الليل تحت عجلاتها بحيرة من طين سميك، وبعد خمس دقائق وجد نفسه يعود، يوقف السيارة في طرف الساحة المقابل لشقة راشد، ويراقب عبر شقوق الستائر، كل حركة في الداخل، كبيرة أو صغيرة، بعينين قوتهما 4 بوم.

أنياب ومخالب

اتّصل راشد بسائق إحدى سيارتَي الإسعاف التي يملكهما. بعد أقلّ من عشر دقائق كان أمام باب المستشفى. أخبار فرض حظر التجوال كانت قد وصلته. قرار صارم لا يسمح لأي سيارة بالتحرّك، باستثناء سيارات الإسعاف والشرطة، وتمّ تفعيل الحواجز الإلكترونية وإشارات المرور على الطرق بحيث لا تسمح سوى لسيارات الإسعاف والشرطة بالمرور.

بعد خمس دقائق تأكّد لراشد أن ما يراه حقيقة؛ كانت الشوارع خالية تماما، وليس هناك سوى سيارات الإسعاف والشرطة.

الصمت الثقيل أعاد له بعضًا من ذكريات ما بعد أيام حرب الكلب.

- لقد لاحظتُ اليوم أن الناس لم تعد تتعارك وتختلف لتجرح، بل لتقتل، قال السائق.

- تقتل نهائيًّا؟!

- نهائيًّا، كما لو أنهم متّفقون على قاعدة تقول: من مكان الشجار إلى المقبرة!

- دون المرور بالمستشفى؟!

- دون المرور بالمستشفى.

- هل يحاولون التخّفف من مصاريف العلاج؟

- لا أظن المسألة كذلك، لقد قرّروا التخفّف ممن يشبهونهم إلى الأبد.

- ولكن كيف تطوّر الأمر فجأة؟ هذا ما لا أفهمه!

- لا أحد يعرف، منذ الساعة الحادية عشرة نبتَ الشّبيهون كالفِطْر بعد المطر. أصبحوا في كلّ مكان.

- منذ الحادية عشرة؟!

- منذ الحادية عشرة.

- وأنت، هل رأيت أحدًا يشبهك؟ سأله راشد.

- حتى الآن لم أرَ، ولكنني أخشى منذ العصر أن أنظر في المرآة فأكتشف أنني بتُّ أشبه واحدًا غيري. إن أسوأ مكان يمكن أن ينظر فيه الناس اليوم ليروا أنفسهم، هو المرايا!

كان راشد على وشك أن يستدير ليرى وجه السائق، مع أن العتمة لم تكن ستسعفه. أحسّ السائق بذلك، فقال:

- أرجوك، لا تنظر نحوي، لا أريد أن أعرف!

احترم راشد رغبة السائق، السائق الذي قال بعد صمت طويل:

- أظننا نستحقُّ هذا، أو إذا شئت، يمكنني القول: هذا تطوّر طبيعيّ بدأ قبل حرب الكلب وأشعلها، ثم تزايد بعد ذلك دون أن نلاحظ، كما لو أننا لم نكن نملك عيونا ولا عقولا!

كان راشد مفتونًا دائمًا بالحديث مع الطبقة العاملة، وهي عادةٌ من مخلّفات أيام شبابه. كان يحبّ أن يستمع إليهم، محاذرًا أن يُضيِّع الوقت بالنقاش معهم، إذ لم يكن يؤمن أن ذلك يؤدي إلى نتائج مهمة!

- هل تظنّ..؟ سأل راشد.

- تمامًا! قاطعه السائق وأضاف: لا تؤاخذني حضرتك، أنا واحد ممن أمضوا ثلاثة أرباع أعمارهم في الشوارع، ويمكنني القول لقد رأيت كلّ شيء.

- تعني...؟

- تمامًا.. لقد جرَّح الناس بعضهم كثيرًا، ولأتفه الأسباب. مرّة قرأت رواية تنبأ فيها كاتبها بحرب الكلب، كان يتحدّث فيها عن الصّرع العام الذي أصاب الجميع، بحيث تحوّل الناس إلى وحوش فجأة، بأنياب ومخالب، ينقضّ الواحد منهم على الآخر لأتفه الأسباب.

- أظن أن الأمر..

- تمامًا.. حتى الاختلاف في الرأي حوْلَ أيّ مسألة! كان الواحد منهم يريد أن يكون الناس كلهم مثله، مثله تمامًا، أو كما قيل: على شاكلته! يفكّرون كما يفكر، ويعملون ما يعمل، والآن، تفضّل وانظر لما يحدث، لقد أصبحوا يشبهونه، فماذا فعل، هل احتضنهم؟ لا، بل قتَلَهم!

- وهل هناك..؟ قال راشد ولم يُكمل متوقِّعًا أن يقاطعه السائق.

- لا تؤاخذني، كأنني لم أسمع بقية سؤالك؟

- صحيح، كنتُ أريد أن أقول وهل هناك...؟

- أكيد، هناك حلّ: أن يُمنع الناس من الخروج في ساعات النهار القليلة الباقية، وأن تمنع الدولة استخدام أيّ شكل من أشكال الإضاءة ليلا.

- ولكن ذلك..

- لا، ليس كما تظنّ حضرتك، يمكن أن يتواصل العمل، ويتواصل عملنا أيضًا، فبدل أنوار السيارات نستخدم مناظير ليلية من الطراز القديم، أي تلك التي تسمح لنا بمشاهدة ما أمامنا، لكنها ليست كافية لمشاهدة الملامح بدقة؛ أما القلعة، وأنا أثق بك لأقول ما سأقوله، فلا تعاني من أي مشكلة، ما دام جيشها ورجال أمنها واستخباراتها يتمتّعون بقوة إبصار، كما يقال، لا يتمتّع بها سواهم.

- إنه تفكير..

- جيد؟ أشكركَ، وهناك شيء آخر لا بدّ منه، وهو أن تتمّ مصادرة المرايا ويغدو استخدامها تحت طائلة العقاب، قانونيًّا. هل خطر ببالك أننا مجرد مرايا للمرايا التي نحدّق فيها؟

هزّ راشد رأسه بإعجاب، ثم رفعه ليرى المرآة الداخلية للسيارة، وجد أنها موجّهة للأعلى، نظر إلى المرآة التي بجانبه، وجدها مقلوبة للأسفل، وكان الحال نفسه مع المرآة الجانبية المحاذية للسائق.

- ماذا قلت؟

- أنا؟! أنا لم أقل شيئًا. ردّ السائق.

- دعنا إذن نتجوّل في بعض الأحياء الأخرى للمدينة. هي فرصة ليحظى المرء بهدوء كهذا.

- تعرف حضرتك، هذا الهدوء هو الابتسامة الوحيدة في هذه المأساة.

- ولكن..؟ قالها راشد وصمت، بعد أن فهم أن صمته هو ما يجعل السائق يعطيه الحقّ في الكلام.

- كأنك لم تسأل سؤالك!

- صحيح. وصمت راشد.

- ما هو الصحيح؟

- مِنْ؟

- أرجوك أكمل؟

- من أين تجيئك هذه الأفكار العميقة؟

- أظنك مندهش بما سمعته مني، ولكنني مندهش مثلك أيضًا، لقد حاولتُ التفكير في أفكاري التي أحسّ بأنها نضجت فجأة، فوجدت أن السبب يعود ربما لحديثي المستمر مع السيارة، فما الذي يمكن أن أفعله في الظلام غير الحديث معها؟ سأعترف لك أستاذ راشد بأنني سعيد لأنني عشت الزمن الذي رأيت فيه السيارات تتكلم وتناقش وتطرح عليك الأسئلة كما تطرحها عليها.

***

لسبب غامض، لمعت في ذهن راشد فكرة أنّ ظاهرة التشابه هي أفضل هدية قُدِّمتْ إليه بعد أن فاجأته سلام متلبِّسًا بسكرتيرة تشبهها، لكنه لم يكن يعرف كيف سيستخدم هذه الفوضى في ترتيب بيته، وعلاقته بسلام، من جديد. ولذا راح يتحسّس في تلك العتمة طريقه نحو فكرة لامعة تُنهي المشكلة.

- قُلْ شيئًا، طلب من السائق.

- وماذا أقول؟ هل بقي شيء يقال؟! منذ المساء اتصلتُ بزوجتي وطلبتُ منها أن لا تفتح الباب لأيّ أحد يشبهُني، فماذا حدث برأيك؟

تذكّر راشد الرَّاصد الجوِّيّ، وفوجئ بنفسه يصرخ بصوت مرتفع:

- سأقتله.

- هذا ما فكرتُ فيه أيضًا، سأقتُله، قال السائق.

- أظنّ أن أفضل ما نفعله هو أن يعود كلّ منّا إلى بيته، ليس ثمة ضرورة لتواصل دورانك بعد أن توصلني، اذهب واسترح.

- أنت إنسان طيب يا أستاذ راشد، ولذلك سأعترف لك بأنني انتهزتُ فترة الهدوء؛ أي انسللتُ من العمل، ومررتُ بالمنزل، وكانت المفاجأة قاتلة!

- هل وجدتَ، لا سمح الله...

- لا، لم يحدث ذلك، فقد كنتُ أوصيتُها، كما أخبرتكَ، بألّا تفتح الباب لأيّ شبيه لي.

- لا تقل لي إنها..

- تماما! لم تفتح الباب، مع أنني حاولت أن أثبت لها أنني أنا. قالت لي إن هناك إشاعات قوية تقول إن التشابه ليس خارجيًّا فقط، إن هناك شبهًا في كل شيء، في الذكريات والعادات والأفكار، إضافة إلى بصمات الأصابع والصوت والعينين. كنت على وشك أن أحطِّم الباب، فقالت لي، هل رأيت؟ إن شبيهك يتصرّف مثلك تمامًا!

- قالت ذلك؟!

- وقالت، إذا كان لي أن أختار فسأختار واحدًا مثلكَ، لأنني أحبُّ وسامتك، على أن يكون مديرًا لشركة ما، فنانًا، كاتبًا رقيقًا، أو رائد فضاء يأخذني والأولاد إلى كوكب آخر ويريحنا مما نحن فيه. ثم قالت لي وكأنها متأكدة مما يحدث: هل تعرف أن حرب الكلب الثانية على وشك الوقوع؟

ورفضتْ أن توضّح لي مصادر هذا الخبر! هل تعرف أستاذ راشد: لا يستطيع أحد أن يتخيّل حجم معرفة ربات البيوت بما يدور خارجها!

وصمت السائق قليلا قبل أن يضيف: هل تعتقد أن تلك الحرب ستتكرّر؟

- لا، لا أظن.

- أنت غير متأكِّد إذًا؟

- بل لا أظن! ولكن قل لي: هل رأيت زوجتك اليوم؟ أعني رأيت وجهها.

- قلتُ لحضرتك، حدّثتْني من وراء الباب.

- هل خطر ببالك أنها قد أصبحتْ تشبه امرأة سواها؟ والأولاد يشبهون أولادًا سواهم؟ إذ ليس بالضرورة أن يُشبهنا الناس؛ يمكن أن نصبح نحن الشبيهين بهم.

استدار السائق عندها ونظر إلى راشد، واستدار راشد ونظر نحوه في اللحظة ذاتها، فانطلقت صرخة عالية من راشد: لا، لا يمكن لهذا أن يحدث.

كان السائق يشبهه تمامًا، السائق الذي سأل باستغراب: ماذا؟ ماذا حدث يا أستاذ راشد؟

- أنزلْني هنا.

- ماذا؟ قال السائق وهو يخفّف من سرعة السيارة ليقف بجانب الطريق.

فكَّر راشد بسرعة، مستعيدًا نوبة سعاله القاتلة ورائحة العفونة ليلة نزوله من سيارة الإسعاف التي كانت تقله والمدير العام، سعل، فقال: لا، لا تتوقّف، خذني إلى البيت بسرعة.

أصعب اختبار على سطح الكوكب

لو كان الأمر متعلِّقًا بشبيهات لسلام وحدها، لكان راشد أسعد الناس، هذا ما فكّر فيه منذ البداية، إلّا أنه لم يستطع فكّ اللغز الذي بات يؤرقه، وهو تحلّق الناس حول السكرتيرة بمجرد ظهورها، وانفضاضهم من حول سلام! وسيهمس لنفسه شادًّا فكيه إلى بعضهما كما لو أنه يصرخ في الداخل: هل سيكون الأشباه أكثر قدرة من الأصل على جذب الجنس الآخر؟! أرعبه الخاطر. هو نفسه يحسّ بذلك مع السكرتيرة التي بات اندفاعه إليها بعد سفرهما إلى هناك أضعاف ما كان عليه قبل السفر، وتساءل: هل هناك شبيهة أخرى لسلام غير السكرتيرة؟ وأجاب: لا بدّ، بل لام نفسه لأنه تسرع في إجراء عملية تجميل لسكرتيرته، فقد كان عليه أن ينتظر قليلا لتحقِّق له الطبيعة، أو هذه القوة العُليا، حلْم حياته.

قبل أن يصل إلى مدخل الشارع، فكّر في أنه سيكون أكثر الرجال حظًّا في العالم لو أن نوعًا جديدًا من النساء ظهَرَ، أو فصيلة من النساء، اسمها (سلام)، تمامًا كما توجد أنواع من الأزهار كالسّوسن، والزنبق، والياسمين، والقرنفل، والأوركيدا؛ على أن لا يكون مضطرّا لكشّ الدبابير عن عسلهنّ في كل مرة يظهرن فيها معه! ذلك الخاطر محا بلمسة سحرية كل الروائح الكريهة حوله، فأحسّ بسبع حدائق تشرع أزهارها وتملأ صدره برحيق مُسْكِر، وغدا أكثر هدوءًا، حتى أنه تجاوز كابوس السائق الشّبيه. لكن خاطرًا آخر أقلقه: أن يكون، هو، قد أصبحَ مُعْدِيًا، وأن

السائق أصبح على صورته، لأنه، هو راشد، صعدَ معه وجلس بجانبه. السائق الذي لم يعرف بعد بأنه أصبح على صورته. وفكَّر: أيّ كارثة تلك التي ستهشّم رأسه لو أن سلام باتت تشبهه، أو أن السكرتيرة صارت تشبهه، سيكون قد تلقى أشد ضربة مرتدة عقابًا له على ما قام به من عبث في الطبيعة. لكن خاطرًا أشدّ عصف به: ماذا لو أصبح هو على صورة سلام والسكرتيرة. تجمّد، وتساءل:

- هل يكون السائق قد التقط العدْوى قبل أن يصل إلى المستشفى أم بعد ذلك؟

***

قفزتْ صورة الرَّاصد الجوِّيّ ثانية إلى ذهنه ما إن ضغط زرّ المصعد. لقد كان أول شخص على صورته، وحين عاد بذاكرته إلى الوراء، كثيرًا، اكتشف أن الرّاصد لم يكن يشبهه حين سكن البيت، بل لم يكن يلفتُ انتباهه، وتعامل معه دائمًا كما لو أنه غير موجود، بخاصة بعد سلسلة المنخفضات والمرتفعات الجويّة التي أطبقت على المنطقة، في الوقت الذي كان فيه الرّاصد يعِدُ الناس عبر نشرات الأخبار، بطقس صاف وحرارة معتدلة، وغيوم متفرّقة ستظهر في السماء وقت الضّحى، ما تلبث أن تختفي. لقد ظلّ الرَّاصد الجوِّيّ يكذب حتى لم يبق للناس سوى الضّحى، تلك الكلمة التي تفنّن وبالغ في ترديدها.

رآه الضابط، الذي لم يغادر الجهة المقابلة لبيت شقيقته منذ أن أوصلها، رآه يترجل من سيارة الإسعاف أمام الباب، مغلقًا أنفه بسبابة وإبهام يده اليمنى، كانت ملامح راشد واضحة كأنها تحت شلال ضوء. انحنى الضابط، لكنه تذكّر أن راشد لا يتمتع إلا بقوة الإبصار التي منحتْها الطبيعة للبشر.

اختفى في مدخل البناية.

رآه الضابط عبر الزجاج أمام الشقة يقرع الجرس، لم يُفتح الباب. ففكر أن أفضل وسيلة لمنع وقوع جريمة أن لا تفتح سلام الباب.

محتارًا جلس الضابط يراقب مسرحية لم يتخيّل أنه سيشاهدها في حياته، ولا يتيح له بصره ولا بصيرته التنبؤ بنهايتها.

أما راشد، فقد استعاد ما حدث للسائق وزوجته، وأيقن بعد المرّة الثانية من طرْقه القوي على الباب، أن سلام لن تفتح، ومعها الحقّ، لأن لديها سببًا قويًّا لا يشبه حجة زوجة السائق. إنها غاضبة.

وقرع ثالثة، وسمع صوتًا من خلف الباب: مَن؟

- أنا راشد، افتحي يا سلام.

وعاد الصمت من جديد؛ صمتٌ ثقيل كإطباق عشرة يشبهونك على صدرك، وكل واحد منهم يسألك السؤال نفسه: اعترف من أنت؟ وكأنهم يعرفون من همْ!

في تلك اللحظة، خطرت له فكرة تأسيس حزب من أشباهه، لكنه طردَ الفكرة، بل ركَلَها. فإذا كان الناس في الخارج قد بدأوا بالتخلّص من أشباههم، وهو نفسه ما زال يفكر في التخلّص من الرَّاصد الجوِّيّ، فكيف يمكن أن يكون هناك نوع جديد، أو فصيلة جديدة اسمها (راشد).

- راشد لا مثيلَ له، قال لنفسه بصوت عال، وأضاف: هل فهمتَ؟!

***

بدأ غضب ما يتّقد في صدره، طرَق الباب بقبضتيه وصاح: سلام افتحي الباب. وقبل أن يطرُقه من جديد فُتِح.

أخذ نفسًا عميقًا وقال: الحمد لله. خشيتُ أن تكوني قد تغيرتِ وأصبحتِ شبيهةَ امرأة أخرى!

تركتْه واقفًا واتجهتْ إلى الداخل. أغلق الباب وتبِعها.

والضابط يراقب بعض ما يدور من موقعه، من خلال الشبابيك وفتحاتٍ ما بين الستائر.

جلستْ، فجلس بجانبها.

- هل نام الأولاد؟

- وهل هناك من هو مستيقظ غيرنا في هذا البلد؟ تحدّثتْ وكأنها تنوح.
أسعده أنها تكلّمتْ. كان يخشى صمتَها، هي التي لم تنفجر سوى مرّة واحدة في حياتها، حين رأت شبيهتها.
- سألقي نظرة على الأولاد، اشتقتُ إليهم، قال، ومضى صوب الغرفة الأولى، أشرعَها، ونظر صوبَ السّريرين، لم ير شيئًا في الحقيقة؛ وكرّر الأمر في الغرفة الثانية، ثم واصل طريقه إلى غرفة النوم، كما يفعل عادة.
خلع ملابسه، ارتدى بيجامته وجلس بجانبها.
- أعرف تمامًا في ما تفكّرين، ولكِ الحق في ذلك، لكن الأمور باتت في الخارج أعقد بكثير؛ إن كنتِ تريدين تفسيرًا، وهذا حقكِ بالطبع، سأقول لكِ إنني حين رأيتُ السكرتيرة لأوّل مرّة اعتقدتُ أنها أنتِ، وأنكِ تلعبين معي لعبةَ الشّبيهة لكي تُخفّفي من حنقي على ذلك الرَّاصد الجوِّيّ البليد، وحين تماديتِ، وطلبتِ وظيفةَ سكرتيرة، أحببتُ اللعبة أكثر، ودخلتُ فيها، وحتى طلبكِ لراتب مرتفع اعتبرته جزءًا من اللعبة! أحسستُ بفرح بالغ، وقلت يا إلهي، إنّ حبّنا يتجدّد كلّ يوم! وهي حريصة عليه كما أنا حريص عليه. وحتى بعد أن وقَّعتِ العقد، اعتقدتُ أنكِ تلعبين وتغيرِّين اسمكِ. هذا جعلني أحبكِ أكثر، وطوال شهر تعاملتُ معكِ كما تريدين: السكرتيرة. بخاصة بعد أن قلتِ، أعني بعد أن قالت لي بحزم: الشغلُ شغل، وكنتُ للحقّ قد تودّدتُ إليها باعتبارها أنتِ! كل ذلك كان يمكن أن يتواصل إلى ما لا نهاية، إلى أن طلبتْ إدارة الموظفين صورةً عن هويتكِ، لكي يصرفوا لكِ راتبكِ، في تلك اللحظة أدركتُ للمرة الأولى أنكِ لستِ أنتِ، فأوقفتُ اللعبَ للحظة، واتصلتُ بكِ لأتأكد من أن ما يحدث حقيقة. كان ذلك قبل شهرين، هل تذكرين؟ ولما وجدتُكِ في البيت، أوقفتُ اللعب تمامًا وقررتُ طرْدها، إلى أن اكتشفتُ أن ضميري لا يسمح لي بذلك، فكل ذنبها أنها تُشبهكِ، وهذا في الحقيقة أفضل ذنْب يمكن أن تحاول امرأة اقترافه، مع أنكِ لو دقَّقتِ قليلا، لاكتشفتِ أنكما كالأصل

والصورة، كاللوحة الأصلية، والصور التجارية لها؛ وأنت تعرفين، لا شيء أكرهه في عالم الفن أكثر من تلك الصّور التي لا حياة فيها. صحيح أن صورة مثلها يمكن أن توضع في مكان العمل، ولكنها لا تصل إلى مستوى أن تُعلَّق حتى في الممرّ، أمام البيت.

وصمتَ قليلا، وهو يراقب سلام تتكوّر على نفسها، وحجمها يتضاءل، كأنها تريد أن تختفي، ثم قال: لا أريد أن أزعجكِ أكثر مما أزعجتكِ. يومها قلتُ لنفسي تمّهل، ولا ترتكب خطأ بقطع رزْق تلك المخلوقة، فقد كان أجدادنا يقولون: قطْعُ الأعناق ولا قطْع الأرزاق. كما أنني، ولتعذريني في هذه، أحسستُ بأن وجودها يذكّرني بكِ في كلّ لحظة، فأبقيتها.

- ألم يخطر ببالكَ أن تُعْلِمَني بالأمر على الأقل؟ هل كنت تعتقد أنني لن أتفهم وضعًا شائكًا كهذا؟ تحدّثت وكأنها تكفّر عن خطيئتها مع الرَّاصد الجوّي.

- بل خطر ببالي كثيرًا، وفي أحيان كثيرة كنتُ على وشك أن أخبركِ، ولكنني كنت أخشى أن تصيبكِ صدمة إذا ما وجدتِ نفسك معها وجهًا لوجه، كما يحدث معي حين ألتقي ذلك الرَّاصد الجوِّيّ التّافه بين حين وحين.

ارتجف جسد سلام، بحيث أحسّ به الضابط في السيارة.

وواصل راشد:

- تعرفين يا سلام، أصعب شيء في العالم أن يجد المرء نفسه مع نفسه وجهًا لوجه، ومنذ أن قال سقراط: اعْرفْ نفسك، أدخل الإنسان في أكبر اختبار على سطح هذا الكوكب، بل أكبر تحدٍّ، لأنه كان يعرف أن ذلك لن يحدث، وإذا بالأيام تدور لنجد أنفسنا وجهًا لوجه مع أنفسنا، دون أن نعرف شيئا عنها، بل إنها باتت غامضة أكثر! أتعرفين ما الذي يثير دهشتي؟ ما يثيرها حقًا، هو أن الإنسان يمكن أن يتقبّل وجود شبيه لغيره،

لكنه لا يتقبل وجود شبيه له، فالذين يقتلون بعضهم بعضًا منذ الظهيرة السوداء لهذا اليوم، هم الأشباه، لا المختلفون، لا بدّ أنكِ تابعت ما يدور، وهذا أمر غريب كنا نشهد في الماضي عكسه. هل أقول: قبل حرب الكلب؟ أظن أن علينا يا سلام أن نتّحد الآن، فالحرب التي أحسّ بأنها على وشك أن تطرُق أبوابنا ليست سوى حرب الكلب الثانية، ولكن الأشباه هم من سيشعلونها، وهذا هو أشد الأمور غرابة بالنسبة لي، لأن البشر لا يريدون المختلف ولا يريدون الشبيه، وعلى أحدهم أن يقول لنا بوضوح ما الذي يريده الإنسان!

- وما الذي ستفعلُه بالسكرتيرة بعد أن حدث ما حدث؟ مع أن سؤالا كهذا ليس له أيّ معنى بعد أن رأيتُ ما رأيتُ!

- عليَّ أن أتقبّل وجودها، كما أتقبل وجود الرّاصد الجوِّيّ هنا.

- ماذا؟ هل ستتقبل وجوده، ألن تقتله. صرختْ، بكتْ، راشد أرجوك، دعني أقتله بنفسي، ولتقتلْ أنت السكرتيرة، أو أقتلها أنا وتقتله أنت.

- بصراحة، وهي صراحة قد تُغضبكِ، أنا لا أستطيع التخلّص من الرّاصد الجوِّيّ بسهولة، مع أنني لم أفكر في قتل أحد كما فكرتُ في قتله.

- ولكنه!

- ولكنه ماذا؟

- لا شيء، لا شيء، قالت وهي تفتش في الغرفة عن ثقب تختفي فيه.

- أما السكرتيرة، أضاف راشد، فأنا أصرُّ على بقائها، على الأقل ستكون تحت مراقبتي، وإذا ما فكّرتْ أيّ شبيهةٍ بالتخلّص منكِ، لا سمح الله، فلن تكون السكرتيرة، لأنني في النهاية ربُّ عملها، وحين تكون معي أضمن أنكِ في سلام، وضحك، وهو يضيف يا سلام.

- وتضحك؟!

- إنها مأساة يا سلام، ولكنني أبذل جهدًا هائلا لكي أحوِّلها إلى طُرْفة كي لا أُجنّ.

- لكنك لن تستطيع أن تحوّل وجود الرّاصد الجوّي بعد اليوم إلى طرفة، لقد بات يشبهك، يشبهك بحيث بتّ أخشاه.

أوشك راشد أن يصيح: الدنيا غير جميلة، وغير عادلة أبدًا، حتى لو أغضب ذلك الوالدة في قبرها!

لكن ما لا يعرفه راشد، أنه لم يكن قد رأى من المأساة شيئا يُذْكر.

- سلام، سأوصيك بشيء، لا تفتحي الباب لأحد يشبهني.

- وكيف سأعرف أنك أنتَ أنت؟

- ستحسين بذلك.

- وهل أحسستَ أنت بذلك حين وظّفت تلك السكرتيرة الشبيهة بي؟

- سلام، لا إجابة لدي على هذا السؤال، فالمسألة باتت أكبر مني ومنكِ ومن كل شيء. كل ما يمكن أن نقوله: علينا أن نحاول.

وصمتَ قليلا، ثم قال لها:

- هذا المساء فوجئتُ بأن سائق إحدى سيارتَي الإسعاف التي نملكهما يُشبهني تمامًا، ولكنه لحسن الحظّ لم يكن قد اكتشف ذلك.

- يشبهك تمامًا؟

- نسخة عني.

- وهل ستصمت على هذا، ألا يكفيني وجود هذا الشبيه فوق رأسي؟! كيف سأعرفك وهناك اثنان منك؟ قالت باكية.

بسؤالها الحارق المُحِبِّ ذاك، استطاع راشد أن يتنفّس أوّل حفنة هواء نقيّة منذ ساعات طويلة. فكّر أن يردّ على سؤالها بإجابة دافئة، لكنه لم يكن يريد أن يعطيها أدنى حسٍّ بأنه يتملّقها، وبدل أن يفعل ذلك سألها:

- هل سمعتِ بأن هناك نساء أخريات يشبهنكِ، أو هل رأيتِ؟

كان ذلك السؤال كفيلًا بأن يفتح صدرها على آخره، دون أن تعرف إن كانت تقول ما تقول لأنها تسامحه، أم لأنها تريد أن تتخفّف من ثقل مطْبق على قلبها؟ أم لوجود الرّاصد الجوّي؟ أم لظهور سائق شبيه؟ أم لأن

الأمور أفلتتْ مع وجود شبيهات أخريات لها، ولم يعد هنالك معنى لوجود السكرتيرة أو اختفائها؟

كانت يائسة.

راحت تسرد كلّ الوقائع التي حدثت معها منذ أن تركت المكتب حتى أوصلها شقيقها إلى البيت. لكنها في غمرة انفعالها، لم تدرك إذا ما كانت الانفعالات الصاخبة التي تحتلّ ملامح راشد، هي انفعالات تأثّره بالأحداث أم انفعالات غضب؟

حين توقّف نهرُ كلامها عن الجريان، صرخ: ولماذا تتّصلين به؟ لماذا لم تتّصلي بي؟

- كنتُ غاضبة. قالتْها بعنف لم يعتده، كأنها ستسحقه.

هزّ راشد رأسه، ونظر إلى ساعته، ففهمتْ أن ساعة النوم قد حانت. نهض، وفي الأسفل، على الجانب الآخر من الساحة، لم تستطع قوة 4 بوم إبقاء عينَي الضابط مشرعتين.. نام.

ليلة نقّار الخشب

لم ينَم..

لم ينم أبدًا، رغم نجاحه غير المتوقّع مع سلام، ورغم فرحه بسيل الحجج الذي تدفّق على لسانه بصورة أذهلته..

لم ينم راشد أبدًا..

حتى اللحظة التي فتحت له سلام فيها الباب، لم يكن يعرف ما الذي سيقوله لها، كان يائسًا، على قلّة اللحظات، بل ندرتها، التي يحسّ فيها باليأس، ثم ما لبث أن اطمأنّ شيئًا فشيئًا، حين بدأ يصدّق نفسه.

هذا يعني أنها ستصدّقه.

هو يعرف أنك حين تعرف أنك تكذب وأنتَ تكذب، لن يصدّقكَ أحد.

اندسّا في الفراش، التصقتْ به، أطفأ الضوء، ابتعدتْ عنه، سألتْه بخوف لم تُخْفِهِ العتمة: هل أنت راشد حقًا؟

- ماذا تعنين؟ سألها كأنه لُدغَ.

وبدل أن تجيب، واصلتْ: هل أنا أنا؟

أحسّ بأنها تهذي.

لكنها لم تعد ثانية للالتصاق به. ولم ينم.

فكرة واحدة خطرت له، واحتار، هل كان عليه أن يقولها، أم لا، لو أنها مرّت بباله حين حدّثها. كانت الفكرة: لم يكن من المعقول أن أترك

السكرتيرة التي تشبهكِ تخرج من عندي وتذهب للعمل في مكان آخر، بين رجال آخرين، تخيّلي لو أنها أتتْ على عمل مَعيب، ورآها أحد، سيكون ذلك بمثابة تلطيخ لشرف عائلتنا. لذلك قلت: فلتواصل عملَها في مكتبي، لأنها ستبقى تحت بصري!

ولم ينم..

لم يكن غياب هذا الكلام عن مرافعةِ إقناعهِ لها هو السبب، كان يقلقه وجود ذلك الرَّاصد الجوِّيّ فوق رأسه، وذلك السائق الذي نبت بجانبه فجأة كقبعة نبتة الفِطْر.

رسم عدة سيناريوهات للتخلّص منه، إذ لا يعقل أن يقبل بوجوده في العمارة نفسها إلى ما لا نهاية مع كلّ ما يحدث، ومع اختفاء حتى أبسط الفروق بينهما، ومع مخاوف أن يكون الشبيه أكثر إثارة للآخرين من الأصل، فكّر بالمسدس، بعشر طلقات في عشرة أعضاء من جسده! فكّر باستدراجه إلى سطح العمارة وإلقائه من فوقها. فكّر بتكليف قاتل محترف بالتخلّص منه، مع أنه لا يعرف شخصًا واحدًا من هذا النوع.

انطلق منبه السّاعة، جلس على طرف السرير، نفض رأسه كما لو أنه يريد التخلّص من كلّ كوابيسه وأفكاره، وتوجّه إلى الحمّام، كعادته.

أنزلت سلام قدميها عن السرير متوقعة أن لا شيء تحته، لا أرض ولا سماء، الفراغ وحده. سارت بخطى مرتبكة لتوقظ الأولاد.

تناولوا الإفطار، في الوقت الذي بدأت فكرة مُقلِقة تحفر رأس راشد مثل نقّار الخشب: هل علينا أن نترك الأولاد يذهبون إلى مدارسهم اليوم، أم لا؟

تطوّرات يوم نبات الفِطْر، أمس، كما أسماه مستوحيًا كلام السائق، وتحوّل الطبيعة إلى آلة ناسخة عملاقه، جعلته يخشى عودة أولاده من المدرسة أولادًا آخرين، أو صحبةَ مائة ولد يشبهونهم!

- ماذا لو كان الشّبه ينتقل بالعدْوى، بالملامسة، بمجرد وقوع نظر

الواحد على الآخر؛ ومن يرى الشخص الذي يقابله أولا، يصبح المرئي شبيهًا له؟ اهدأ يا راشد، لقد تحوّلت إلى مخترع للكوابيس، أنت الذي أمضيت عمرك مزرعة للأحلام!

كان راشد الصغير يشبهه كثيرًا، ولكنه الشّبه الطبيعي، الوراثي؛ وكم أراحه أن الشّبه بالوراثة لم يزل فعّالًا وقويًّا، حتى تلك اللحظة!

***

كما لو أن شيئًا لم يحدث، تناولا طعام الإفطار معًا. المطبخ يضجّ بحيوية الأولاد ورائحة البيض المقليّ تملأ المكان بسعادة عائلية فائضة.

ما أثار استغرابه هدوء الأولاد، وتعاملهم مع ظاهرة التشابه كما لو أنها غير موجودة. هو يعرف أنهم يعرفون، فكل وسائل الاتصالات التي بين أيديهم وحولهم، وفي أجسادهم، تؤكّد له أنهم يعرفون. فكّر في أنهم لا يريدون فتْح الموضوع لأنه يضايقه بسبب وجود ذلك الرَّاصد الجوِّيّ، الرَّاصد الجوِّيّ الذي أخطأتْ سلام الصغيرة وقفزتْ وطوّقتْ عنقه قبل أيام معتقدة أنه والدها. لحسن الحظ، تمّ التَّستر على الحادثة. حتى الأم، لم تعرف بها. فكأن الأولاد أدركوا أن تلك الحادثة التي كان يمكن أن تكون طُرْفة يستعيدونها دون ملل، لو حدثت في الماضي، هي الآن، في زمنهم الرّاهن، مأساة كاملة.

سؤال واحد وجّهه راشد الصغير لأمّه يومها:

- هل تستطيعين التفريق بين أبينا وجارنا الرَّاصد الجوِّيّ ؟!

ارتبكت سلام، ثم جمّعت نفسها وأجابت:

- بالتأكيد، كيف تتخيّلون...؟ ولم تُكمل.

عندها أحسّوا بأن سلام الصغيرة قليلة الملاحظة، مثلهم، وربما يعود السبب لكون أمهم أمضت وقتًا مع أبيهم أطول من الوقت الذي أمضوه معه، لا لقلة نباهةٍ فيهم.

أطرق راشد الصغير، فانتشر صمت بارد كالموت، سقطتْ من عينيه دمعتان، رفع رأسه وقال:

- نفسي يكون إفطارنا قطعة ضوء طبيعي!

وخلف النوافذ كان الليل لم يزل قابضًا على عنق الفجر بقوة.

أمسك راشد باليد اليمنى لزوجته وسحبها للداخل، خافت، هل تكون قد باحت بشيء أثناء نومها؟ هدأتْ، لو بحتُ لما استيقظتُ! حين تأكّد راشد من أنهما أصبحا على مسافة آمنة، همس في أذنها:

- هل تعتقدين أن علينا الاتصال بالمدرسة للاطمئنان على سير الأمور قبل إرسالهم إليها؟

تأكد لها أنه راشد.

- سننتظر في الشرفة، وإذا جاءت الحافلة لتنقلهم، فهذا يعني أن الأمور تسير بشكل طبيعي. وبهذا لن نُحرج أنفسنا بظهورنا أكثر حرصًا على أولادنا من أولاد الآخرين! قالت وهي تتأمّله محاولة التأكّد أكثر من أنه راشد.

- ولكننا أكثر حرصًا، لا لأن الآخرين لا يعنوننا، بل لأن هؤلاء أولادنا.

تأكد لها أكثر أنه هو.

- رغم ذلك لا يجوز. ثمَّ إن الناس يعرفون تاريخكَ، قالت بعد أن اطمأنت مرتين خلال عشرين ثانية أنه هو، وأن عليها التشبّث به الآن بيديها وبلسانها أيضًا، هل تريد أن يقولوا: لقد تغيّر راشد؟ أو إن راشد الجديد غير راشد القديم؟! وفي أسوأ الأحوال، أنت تعرف، يمكن أن تضغط مفتاحًا واحدًا وتتابع الأولاد على شاشة الهاتف أو التلفزيون في أي لحظة، ما دمْنا حقنّاهم بتلك الشعيرات الإلكترونية المتصلة بالكاميرات العامة.

في تلك اللحظة تأكد بأنها لم تزل تحبّه، وأن سؤالها في العتمة (هل أنتَ راشد؟) مجرد هلوسات، وأنه سيبقى يحبّها حتى لو كانت لديه ألف نسخة منها. ألف نسخة لا تساوي الأصل!

التفتَ إلى ساعته، كان موعد وصول الحافلة قد حان. سار نحو الشرفة، وحدّق أسفلها.

وصلت الحافلة، فتبادلت سلام معه نظرة ذات معنى، ورأى طيف ابتسامة عذبة في عينيها لأول مرة منذ ليل أمس.

قبَّلا الأولاد كالعادة، هي قبّلت الخدود الأيامِن وهو قبّل الخدود الأياسِر، وإن كانت أمضت تلك اللحظات القصيرة الطويلة تسترق النظر إلى وجه زوجها.

***

بمجرّد تحرّك الحافلة، ظهر الرَّاصد الجوِّيّ أمام باب العمارة، قفزتْ صورة المسدس إلى رأس راشد، فاندفع مجنونًا يركض للداخل، ناسيًا أنه قرر ألا يقتله. لم يجد المسدس، فصاح: سلام، أين المسدس؟

ردّت: منذ يومين أحاول أن أتذكر أين وضعتُه دون جدوى، ولكن اطمئن إنه في البيت، لماذا تريده؟

- سأقتله، ذلك الحقير، سأقتله.

- أنا قادمة لكي أبحث معك!

حشر راشد نفسه في أول ملابس رآها، وقدميه في أول حذاء، واندفع خارجًا بيديه العاريتين. أكثر ما كان يُقلقه أن يبتعد الرَّاصد الجوِّيّ قبل أن يُطبق بأصابعه على رقبته!

كعكة سوداء احتفالًا بالحرب

عندما وصل راشد إلى باب العمارة، كان الرَّاصد الجوِّيّ منشغلًا بالتقاط بعض الأشياء الملقاة على الأرض أمامه: أوراق، علب فارغة، كسرة خبز، شحرور نافق لم يتيبّس بعد، بومة مشوّهة الملامح تفرفطت أجنحتها..

شيء ما، لا يعرفه، جعل راشد يتجمّد في مكانه. لقد كانت تلك واحدة من عاداته القديمة، حينما كان يريد أن يُقدِّم للجميع المَثَل على حرص الإنسان على نظافة أي مكان يتواجد فيه. لم يكن راشد يخجل من هذا، ظلّ مصرًّا ومؤمنًا بما يقوم به، حتى أصبح أهل حارته يخجلون من لا مبالاتهم وعدم حرصهم على وجود الأشياء في أماكنها الصحيحة.

في حالات كثيرة لم يتردّد في أن يكنس بسطة الدرج، أو ينظّفها بالماء أمام باب جارةٍ تنتظر الحارس الكسول أن يقوم بهذا، مع أن الجارة هي السبب في قذارةِ المدخل.

بعض سكان العمارة كرهوه كثيرًا، كرهوا أن يقول لهم: إنني لستُ مثلكم، على طريقته! ووصل الأمر بأحدهم أن بالغ في إلقاء القاذورات أمام باب شقته، فما كان من راشد إلّا أن بالغ في تنظيف المساحة الصغيرة أمام باب شقة الجار، إلى أن بات سكان العمارة يكرهون ذلك الجار، الجار الذي صرخ في وجه راشد ذات يوم:

- وما الذي يهمّك إن كانت بسطة باب شقتي نظيفة أو قذرة؟!

لم يكن راشد بحاجة لسؤال أكثر من ذلك السؤال، ليقول بهدوء:

- ليس باب شقتكَ هو المشكلة، يعزّ عليّ وأنت جاري أن ينعتكَ أحدهم بصفة لا تليق بك، كما يحدث الآن. هذا هو ما يهمّني.

خجِل الجار، ويومًا بعد يوم غدت بسطة باب شقته هي الأنظف.

***

كل تلك الخواطر الطيبة لم تُبرِّد موقد راشد المستعِر في داخله.

طارت يداه في الهواء، كما لو أنهما تستطيعان ذلك دون مساعدة منه، وانقضّتا على عنق الرَّاصد الجوِّيّ ، فصرخ، وقبل أن تنتهي الصرخة، كانت شرفات الشارع قد امتلأت برجال ونساء وأطفال فزعين. فأخبار اليوم السابق، والحديث المستمر عن قرب اشتعال نيران حرب الكلب الثانية، لم تترك أحدًا ينام بهدوء في واحدة من أسوأ الليالي، وقد أحسّ بعض من اضطرُّوا للتحرّك في العتمة أنهم يشقّون طريقهم بصعوبة فيها؛ لم تكن قاسية، ولكنها كانت أشبه بكعكة سوداء مُعَدَّة للاحتفال باشتعال الحرب!

قفز الرَّاصد الجوِّيّ إلى داخل سيارته، وأدار محرِّكها. لم يتمكّن من إغلاق باب السيارة في الوقت المناسب، فطارت يدا راشد ثانية وأطبقتا عليه.

***

كما لو أنهم نبتوا من الأرض، ظهر بعض الجيران يحاولون الفصل بينهما، وهم يصيحون: ماذا حدث؟

كان السؤال مفاجئًا لراشد، راشد الحريص على توقّع الأسئلة التي توجّه إليه قبل أن توجّه إليه!

لم يكن قد درس الحالة وفكّر جيدًا ليُخرسهم بإجابة قاطعة. فقال بانفعال:

- لقد أوشك على صدم سيارتي.

فصاح الرجال، وهم ينظرون إلى سيارة راشد:
- هذا غير معقول، لماذا تفعل أمرًا كهذا؟
- ولكنني لم أصدمها، ردّ الرَّاصد الجوِّيّ .
- ولكنك كنت على وشك أن تصدمها، لم لا تعترف، وننهي المسألة؟
صاح رجل ضخم يرتدي قميصًا أحمر كان يراقب المشهد من شرفة في الدّور الثالث.
- ولكنني لم..
- اقتله، اقتله يا راشد وأرحْنا منه! جاء صوت سلام من الشرفة كنداء استغاثة أخير.
فاتّقدتْ نيران راشد أكثر، ولم يتمالك أحد الرجال الذين أتوا لفضّ الاشتباك أعصابه، فصفع الرَّاصد الجوِّيّ بقوة، بعد أن كان ثلاثة رجال قد جرّوه من داخل السيارة إلى خارجها.
في تلك اللحظ المشتعلة، ظهر بائع الخُضَر من زاوية الشارع وبيده ساطور ضخم، وهو يصرخ: من العيب عليكم أن تجتمعوا على رجل وحيد، وضرب بإحدى صفحتَي الساطور أحد الأشخاص المُطبِقِين على الرَّاصد الجوِّيّ ، فسقط أرضًا.
- كنت أتوقّع، سيتحوّل الشارع إلى مذبحة، قال الرّجل ذو القميص الأحمر الواقف في شرفة الدّوْر الثالث مُعلّقا على ما يرى، وكأنه مراسل لقناة فضائية.
أمسك بائعُ الخُضَر الرَّاصدَ الجوِّيّ من يده وابتعد به. وسأله:
- هل نطلب الإسعاف؟ هل نطلب الشرطة؟
- لا ضرورة، أنا سأحلّ المسألة بنفسي، قال مهدّدًا.
همهم بائع الخُضَر بكلام غير مفهوم، فسأله الرَّاصد الجوِّيّ أن يقول كلامًا يستطيع فهْمه، فالتفتَ إليه وقال:
- أظن أن المشاكل بينكما ابتدأتْ ولن يكون لها حلّ! اليوم أنقذتكَ،

ولكنني لن أستطيع القيام بهذا كلّ يوم. إذا أردتَ نصيحتي: ارحل من هنا، إن لم يكن الآن فغدًا.

- ولماذا أترك بيتي؟

- لأنك لم تكن ذكيًّا بما فيه الكفاية!

- ما الذي تعنيه؟ ردّ الرَّاصد الجوِّيّ بغضب، فعاد وخفّف من حدّة لهجته: ما الذي تعنيه؟!

- لقد كان عليك أن تجد شخصًا آخر تشبهه غير هذا الراشد، أتعرف ما الذي يستطيع أن يفعله بك؟

- لا، لا أعرف.

- إنه قادر على أن يقتلك ألف مرّة ويظهر في أعين الناس أنه الشخص الوحيد الذي كان يحاول إنقاذك.

- ولكن لديَّ شهودًا.

- ألم ترَ كيف أطبق الشهود على عنقك؟

- رأيت.

- عليك أن ترحل إذًا، وإذا أردتَ أن تسمع نصيحتي فارحل الآن، بل لا تعد لبيتكَ. اتّصل بزوجتكَ والأولاد واطلب منهم أن يلحقوا بك إلى أيّ مكان آمن، مع أنني أشكّ في قدرتك على الإفلات من بين يدي راشد هذا.

- هل تعني أنه سيقتلني حيثما كنت؟

- اسمح لي أن أقول لك إن توقعاتك لما سيحدث في الحياة، ليست سوى صورة باهتة عن توقعاتك حول الأحوال الجويّة! وبصراحة، كان يجب أن يقتلك الجيران منذ أيام تخبّطك التنبؤي ويريحونا منك.

فوجئ الرَّاصد الجوِّيّ بتحوّل حاميه إلى شبه قاتله، فقال:

- من العيب أن تقول كلامًا كهذا في وجهي، نحن جيران في النهاية.

- جيران؟! وتقول جيران؟! وأنت الذي أمضيت خدمتكَ في تلك المؤسسة تخدعنا كلّ يوم.

- أنا؟!

- ومن غيرك؟ نصف البلاء الذين نحن فيه أنتَ سببه. لقد شوّهتَ سمعة الشمس بحيث لم تعد تُشرق، وسمعةَ الغيوم بحيث لم تعد تُمطر، وسمعةَ الرياح بحيث لم تعد تهبّ، وسمعة الهواء الذي لم تُبقِ لنا منه سوى رائحة العفونة المميتة.

- أنت لست سوى رجل شرير. صرخ الرَّاصد الجوِّيّ.

- وتقول عني شريرًا، أنا الذي أخرجتك سليمًا من بين مخالبهم؟

- أخرجتَني لأنك كنت رجلًا جيدًا قبل لحظات، ولأنني لم أكن على وشك أن أصدم سيارته، كما ادّعى راشد ذاك.

- بل إنك تقصّدت أن تصدمها. منذ أمس وأنا أراقبك وأنت واقف في الشرفة، ولا شيء يشغلك سوى تحطيم سيارته.

- ولماذا أحطّمها؟

- لأنك تريد التخلّص منه قبل أن يتخلّص منك.

- ولماذا أتخلّص منه أصلًا؟

- لأنك تشبهه.

- بل هو الذي يشبهني!

- بل أنت الذي تشبهه.

- وماذا في هذا؟

- وماذا في هذا؟ صاح بائع الخضر ملوِّحًا بالساطور، وهوى بإحدى صفحتيه على رأس الرَّاصد الجوِّيّ، فسقط مغشيًّا عليه، مضيفًا: هذا لأنك بعد أن تصبح شبيهًا له وتتخلّص منه، ستسعى لأن تكون شبيهي وتتخلّص مني أيها الكاذب الذي عملتَ على تشويه كل شيء، من سمعة الشمس حتى براءة الغيوم وتاريخ الرياح!

وتركه مُلقى على الأرض، وتوجّه مُزمجرًا إلى متجره.

استفتاء شعبي

لم يكن راشد راضيًا عن نتيجة العِراك، فقد ظلّت نهاياته مُعلّقة، وهو لا يكره شيئًا مثلما يكره المعارك التي لم تُحسم. إنه يعرف بأن مثل تلك المعارك لا ينتج عنها سوى سلسلة من المعارك التي تطول كثيرًا جارفةً أضعاف الأرواح التي كانت ستجرفها لو أنها حُسِمت في حينها.

ما أرضاه، من بين تفاصيل كلّ ما حدث، اكتشافه أنه يحظى بشعبية ليست قليلة في الحارة، لم يهزّها سوى فورة غضب بائع الخُضَر، لكنه حينما سمع بأن البائع نفسه وجّه ضربة إلى رأس الرّاصد الجوِّيّ تركتْه ملقًى على الأرض، دون أن يتقدّم أحد لإنقاذه، استطاع أن يرفع شعبيته من 99.9% إلى 100%، وهذه نتيجة لا بأس بها في وضع مشحون مثل الوضع السائد!

الأمر الآخر الذي رفع تلك النسبة إلى 150% على الأقل، تلك الشائعات التي سرت عن مغادرة الرّاصد الجوِّيّ للحارة، وقد استطاع راشد، خلال سبعة أيام متتالية، أن يتأكّد بنفسه من هذا.

ما كان يقلقه هو بقاء سيارة الرّاصد الجوِّيّ مركونة أمام العمارة بمحرِّكها الدائر، دون أن ينفد وقودها! وسطوع الإضاءة التي تنبعث من شرفة شقته في الأعلى! أمّا ما هو أشدّ غرابة فهو محاولة الجيران، ومحاولته، فصل التيار الكهربائي عن الشّقة، دون جدوى. إذ سطعت أنوارها أكثر، وكذلك الأمر مع السيارة، فقد وصل الأمر بجاره صاحب القميص الأحمر، بعد أن جافاه النوم بسبب ضجيجها الذي يتضاعف ليلًا، أن يكسر زجاج السيارة، فوجد أنها تدور بلا مفتاح، ففتح غطاء المحرّك وانتزع

أسلاكًا كثيرة؛ انتزع البطارية، قطَّع الأحزمة، هوى بمطرقة كبيرة على المحرّك، لكنه بقي يدور! وحين أصبح على وشك الجنون أقفل الغطاء بقوة ارتجّتْ لها العمارة كلّها، بحيث سقطت عدّة شرفات لم تحتمل تلك الهزة العنيفة، وعند ذلك انتفض راشد صائحًا:

- ماذا حدث؟!

***

بين ذهابه إلى العمل وإيابه منه مستخدمًا إحدى سيارتَي الإسعاف التي يملكها، لاحظ راشد أن السّائق الذي اعتقد أنه يشبهه، لم يكن يشبهه، وأعاد ذلك إلى أنه أصبح يبالغ في تخيلاته. كانت الفكرة الوحيدة التي تلبّسته هي التّخلص منه تمامًا، لا كما تخلّص من الرَّاصد الجوِّيّ بالاختفاء! ولأن راشد من الناس الذين يعترفون بأخطائهم، لم يتردّد في أن يعتذر للسائق على سوء ظنّه به، وكالعادة، ترك لديه هذا الاعتراف إحساسًا عميقًا بأنه أكبر وأسمى وأكثر حكمة.

ردّ السائق بوقار:

- شكرًا لك، لن أنسى هذه الروح العالية الكريمة. وحين استدار، ظهر على وجهه طيف ابتسامة لم يستطع راشد تحليل معانيها. لم يعرف إن كان عليه أن يُدْرجها تحت قائمة ابتسامات الامتنان أم تحت قائمة ابتسامات المكْر، وهذا ما أغاظه كثيرًا.

***

قرر راشد أن يتجاوز هذا الغموض الذي لن يوصله إلى حقيقة، إيمانا منه بأن الطبقة العاملة على حقّ دائمًا، كما أنه ليس من الحكمة في شيء أن يوتّر علاقته بسائق يقطع الليل معه، ذهابًا وإيابًا، من أجل الشكّ الذي انتابه بشأن ابتسامة، قد لا يكون ابتسمها أصلًا!

- لم تكن الحكمة الكاملة سوى الخيط الدّقيق الفاصل بين طُرْفة نبتتْ في أرض البراءة ومأساة تتطلّع جائعة لأرض الخراب! فكّر راشد في ذلك،

وبدا راضيًا تمامًا عن نفسه. وفكّر أيضًا: في الأراضي المحروقة لا توجد إلّا الأشجار العارية السّوداء، فلا تحرق أرضًا أنت تعرف أن لا شيء لك فيها سوى ظلال أشجارها.

هكذا قرّر أن يحافظ على الحيّز الذي يُشغله في سيارة الإسعاف باعتباره ثالث أرض خضراء صغيرة عليه الحفاظ عليها بعد المكتب والبيت.

في البيت كان مطمئنًا إلى أن الأولاد بخير، وأن مجرى الحياة عاد يسير ضمن تدفّقه المعهود: هدأت سلام. لم يُصَب الأولاد بتكاثر الأشباه، بل أصبحت سلام الصغيرة أكثر شبهًا بأمها، وراشد الصغير أكثر شبهًا به، وذلك كلّه داخل مسار القوة الطبيعة لقوانين الوراثة.

***

نظر راشد إلى المرآة الأمامية للسائق، والمرآتين الجانبيتين، فوجدها في وضعها الطبيعي، فسأل السائق: يبدو أنك لم تعد خائفًا من النظر إلى المرآة.

- عليّ أن أراقب نفسي أولًا بأوّل.

- الحذر واجب. علّق راشد.

- هناك شائعة، وأنا لا أصدق مثل هذه الخرافات، وإن كان علينا أن نتوقّع كلّ شيء، تقول الشائعة: إذا بقي الإنسان محدِّقا في المرآة، فإنه سيحتفظ بصورته، ولذا فإن بعض العائلات أمضت الأسبوع الماضي محاطة بالمرايا؛ وحينما ينامون، يحرصون على أن تكون وجوههم مقابل المرايا، فيها.

- لقد سمعتُ الأولاد يعيدون كلامًا كهذا، سمعوه في المدرسة، وقد طلبوا مني أن أشتري لهم مرايا صغيرة، فرفضتُ بالطبع، لكنّهم كسروا مرآة، وادّعوا أن ذلك حدث مصادفة، فحين حاولتُ جمْع أجزائها من جديد، اكتشفتُ أن هناك قطعًا ناقصة.

- قطعًا ناقصة، أعتقد أن الأمر خطير فعلا، علّق السائق.

- أتعني كسْرهم للمرآة؟ سأله راشد.

- بل تصديقهم للخرافة، وإن كنت أفكر أحيانًا، أعني أحيانًا فعلا، إذ تبين لي ألّا ضرورة لأن يفكر المرء دائمًا، وحين أفكر أحيانًا، أقول: لو قيل لي إن خرافةً مثل خرافة تشابه الناس ستنتشر لما صدّقت هذا. هل كنت ستصدّق، حضرتك؟

- في الحقيقة..

- هذا ما أريد قوله تمامًا، ولكن ما يقلقني ليس هذا التشابه، تقلقني أمور أخطر، ولا أريد أن أواصل التفكير فيها حتى تغدو حقيقة.

- تقصد..

- أجل، ولكنني سأتوقّف عن الكلام، فقد وصلْنا. في أي ساعة تريدني أن آتي لكي أعيد حضرتك إلى البيت؟

- ابق هنا، أمام المستشفى، لا ضرورة لأن تدور في الشوارع وتدور، دون جدوى، فهناك قرارات كثيرة سنتّخذها الليلة بشأن سيارات الإسعاف.

دخلت السيارةُ باحة المستشفى، كانت عشرات سيارات الإسعاف متوقّفة.

- أرجو أن لا تكون نتيجة القرارات الجديدة التخلّي عن السائقين.

- كن مطمئنًا، حتى لو تخلّينا عنهم جميعًا، وهذا ما لن أقبل به أبدًا، فلن أتخلّى عنك. قال راشد.

- تعني أنني..؟

- هذا صحيح.

وترجّل.

قوة مضاعفة

الزيارة المفاجئة التي قام بها الضابط لمكتب راشد، كانت غامضة، إذ لأول مرّة يتخلّى عن ودّية شقيق الزوجة عائدًا إلى صرامة الضابط.

رفضت السكرتيرة فتح الباب، بسبب عدم وجود موعد مسبق، وهذا بالطبع ظاهر الأمر، فقد كانت متوجِّسة خيفةً بعد لقائها مع سلام. استعادت وقائع ذلك اليوم الذي خدعتْه فيه في مطعم الرياح الأربع، مدّعية أنها شقيقته! استعادت ذكريات راشد عنه، وعلاقتهما التي تفتّحت في الزنازين تحت العصي والحرمان من النوم. كانت تعرف أنها فريسة سهلة. أما ما أقلقها أكثر فهو عدم وجود راشد في المكتب.

اتصلت به، فقال لها: افتحي الباب، لا تخشي شيئًا!

لكنها خشيت أشياء.

أغلقت الهاتف، ولم تفتح له.

رفع الضابط بطاقته الأمنيَّة، وصرخ: افتحي الباب، هذا أمر.

ففتحت.

***

لم يصدّق عينيه وهو يراها، وقبل أن يخطو داخل المكتب، كان أكثر من عشرة أشخاص يحدّقون فيها انبهارًا، رجالا ونساء.

على الرغم من أن ذلك كان يسعد السكرتيرة في البداية، إلا أنها باتت تنزعج، وبخاصة بعد أن رأت الأصل، لأنها لم تعد تعرف هل كل هذا الانبهار بها أم بسلام.

دخل.

- الأستاذ ليس موجودًا؟ سأل.
- بل موجود، سيكون هنا بعد خمس دقائق.
حيّره أنه لم يستطع رفْع عينيه عنها، وأطبقت عليه مشاعره المعقدة من جديد، ولأول مرة أحسّ بأنه يشتهيها، يريد لمسها. إنها أجمل ألف مرّة من صديقته؛ جمال أسطوري، ولكنها على صورة شقيقته.
- لا أعرف إن كان عليَّ أن أغضب أكثر أم أقلّ لأنكِ تشبهين سلام، قال لها، وكان غاضبًا.
ارتفع رنين هاتفها، فأنقذها، كان راشد هو المتّصل.
- يريد أن يتحدّث معك، قالت للضابط.
تجاوز الخط الأحمر الذي يقسم عقله نصفين نحوها:
- سأجيب من هاتفك. ارتبكتْ. قرّبتْ يدها منه، بعد أن ضغطتْ مفتاح مكبر الصوت الوهمي، تأمّل صورة زحل على شاشة هاتفها، ورغم أن باستطاعته الحديث دون أن يلمس يدها، إلا أنه أمسك بأصابعها. سرى فيه تيار كهربائي لم يعرف معناه.
- أنا في انتظارِكَ، قال لراشد.
وفي اللحظة التي ترك فيها أصابعها، أمسكتْ بيده، وقالت: أنتَ تعرف، لا دخْل لي فيما حصل، ما أصابني أصاب كثيرًا من الناس، ولم يعد المرء يعرف من التالي ممن هم حوله. صحيح أن ما حصل كاد يدمِّر حياتي، ولكن ما يريحني أنني أعرف على صورة مَن قد أصبحت. المأساة الحقيقية هي تلك التي يعانيها مَن لم يروا أشباههم، أو الصورة التي سيكونون عليها، إذا ما كانت مناعتهم، ولا أجد كلمة غير هذه، إذا ما كانت مناعتهم أضعف، بحيث يصبحون هم الصّور بعد أن كانوا أصولًا.
المفاجأة أن الضابط لم يسحب يده من يدها، أبقاها فيها مُستسلمة، وقد أحسّ ببعض الخدر، كان يرى شفتين شهيتين تتحركان دون أن يسمع الكلام، وطويلا بقي على هذا الحال، قبل أن ينتبه أن صوتها لا يشبه صوت سلام أبدًا.

استطاع الضابط المعزز بصره بقوة 4 بوم، أن يجد بعض الفروق الأخرى بينها وبين شقيقته، إضافة للصوت، فداهمته رغبة جارفة في التهامها.

حين فُتح الباب ودخل راشد، أبعد الضابط يده بسرعة عن يد السكرتيرة، ودهمه حسّ أكثر تعقيدًا: أنه لا يريد أن يصافح راشد، لأنه يريد أن تبقى راحة تلك اليد وطيْفها في يده إلى الأبد! لكن راشد مدّ يده، فلم يملك إلّا أن يصافحه، وعندما لاحظ راشد بأن الضابط يسعى لسحب يده سريعًا، شدّ عليها، فأيقن الضابط أن راشد لم يُبق له من آثار تلك اليد الساحرة الشهيّة شيئًا.

فكّر بسرعة: سأصافحها عندما أخرج، بل سأصرّ على ذلك.

***

يعرف راشد أنه في موقع قوة، فقد ضمن رضا سلام، بل بدت حريصة على أن تكون هي وكل شبيهاتها في امرأة واحدة: هي، سلام نفسها. إحساس عميق مريح كان يغمرها لكونها الأصل.

أما ما كان يمنحه القوة المضاعفة، فهي علاقته بالمدير العام، وتناسيه لمسألة تطاوله عليه، والسرعة التي تمّ فيها تنفيذ مشروع (أسرى الأمل 2)، والنجاح الكبير الذي تحقّق؛ حتى أنهم اكتشفوا بعد أسبوع من بدء العمل أن المشروع غير كاف لاستيعاب ذلك الرّقم الخرافيّ من الأسرى!

لم تعد سيارات الإسعاف التي تحوّلت إلى سيارات شرطة، قادرة على تلبية الاتصالات التي ترِدُها، وغدا السائق والمحاسب، والمسعف الذي تحوّل لرجل أمن في وضع أفضل، وهذا منحهم شيئًا من القوة أيضًا، فبعد أن كانوا في سباق دائم مع الموت، يسبقهم فيه عادة حين تتعقّد المفاوضات، أصبحوا أكثر اطمئنانًا لأن الجميع يصلون إلى السجن أحياء.

.. وكان المشروع الجديد واحدًا وحيدًا، وبالتالي، انعدم عنصر المنافسة، وكانت جرائم قتل الأصول لأشباههم، أو العكس، هي الجريمة الأولى.

وإن كانوا في البداية قد زجّوا بعدد من أصحاب الجرائم الصغيرة في السجن، وما لبثوا أن أخرجوهم مقابل مبالغ أقلّ من تكاليف إيوائهم وتليينهم!

***

بعض الناس الذين لم يكونوا راضين عن أشكالهم استغلوا تلك الفوضى واختطفوا بعض الناس الذين يحبّون أن يكونوا على صورتهم. بعض هؤلاء كانوا من الجيران، جارة، جارًا، أو حتى فتى مراهقًا، واحتجزوا أنفسهم معهم لكي يصابوا بعدوى الشّبه. كانت النتائج مأساوية أحيانًا، إذ اكتشف المُختَطِفون أن المختطَفين أصبحوا على صورتهم بدل أن يكونوا هم على صورة المُختَطَفِين، وبذلك بدل أن يلتقوا بأنفسهم في المرايا، صاروا يلتقون بها خارجها. أما البعض الآخر، من الأغنياء على وجه الخصوص، فقد اجتاحتهم حُمّى الهجرة للكواكب البعيدة، وكما في كل زمان ومكان ظهر أولئك الذين يستطيعون امتطاء ظهر المأساة، وفتْحَ طرق النجاة والهلاك لهؤلاء بوعود كاذبة وصادقة.

وحدهم القانعون، تشبّثوا بخرافة التّحديق في المرايا لكي يظلّوا على ما هم عليه.

لكن أكبر مشكلة تلك التي واجهت الممثلين والممثلات والمغنّين والمغنيات، فقد وظّف كثير من الأغنياء أموالهم لاختطاف هذا الفنان أو تلك الفنانة، لكي يكونَ الغنيُّ على صورته أو تكون زوجته أو صديقته على صورتها، أو حتى صديقه في بعض الأحيان.

راشد نفسه الذي اضطرّ -بسبب تضاعف حجم العمل- أن يشرف بشكل جزئي على سير الأوضاع، من مكان محايد، عايش تجربة فريدة حين أتت إحدى السيارات ذات مساء بشبيهين، وكلّ منهما يدّعي أنه الأصل، وأنه الفنان الحقيقيّ. فما كان منه سوى أن طلب الغناء من الشخص الأول، فانطلق يُغني بعذوبة أدهشت راشد، وقد كان فنانه المفضّل؛ وحين

طلب من الشخص الثاني أن يغني، قال: يا أستاذ لقد شاهدتكَ تستمع بإحساس مرهف لهذا الشبيه، وأعرف أن حياتي معلّقة بالغناء أمامك كي تقتنع بأنني الأصل، ولكنني، ومع احترامي لكَ لن أغني، أتعرف لماذا: لأنني أدرك أنكَ لا تقبل هذا لأي فنان تحترمه.

وصمتَ قليلا قبل أن يضيف: ألف صورة لأشباه يجتمعون في مرآة واحدة لا يمكن أن تعطيك ذلك الإحساس بالدفء الذي ستشعر به حين يصافحك الأصل! ومدّ يده وصافح راشد.

***

الغريب أن الضابط كان يستمع لكل تلك التجارب التي يسردها راشد، وكأنه ليس جزءًا من مشروع أسرى الأمل 2، هو الجزء الخفيّ الفاعل فيه. عندها أدرك الضابط أن الطريقة التي تَسرد فيها قصّتكَ، هي قصتك الحقيقية فعلًا.

- هل صادفتَ شبيهًا لك؟ سأله راشد وهو يقود الحديث في اتجاه شخصيّ.

- مثل سلام والسكرتيرة؟ لماذا خدعتني؟

- خدعتك؟ لقد كنت مثلك ضحية لما حدث، ولو لم أحوّل الأمر لطرفة لكنتُ جُننتُ!

أخذ الضابط نفسًا عميقًا، وقد قرر أن يوقف التصعيد.

- ألا تشعر معي بأن في الأمر شيئًا غريبًا؟ سأله راشد.

- لا أريد أن أخدعكَ، الأمر يقلقني، فكل ما نراه هو رأس جبل الجليد. قال الضابط، وهو يواصل كبت أحاسيسه الغاضبة، ممهدًا الفرصة لمصافحة السكرتيرة عندما يحين موعد خروجه.

- هل تعتقد أن الناس يخشون أن يكونوا على صورة رجال الأمن؟

- ربما يكون ذلك، وهذا حُسْن حظٍّ، قال الضابط.

- هل لأنهم يخشونهم أم لأنهم يكرهونهم، حسب رأيك؟

ظهرت إشارات غضب في عيني الضابط، ذوّبها بابتسامة مفتعلة:

- رغم أن كثيرًا من الناس يحبون العدالة، إلا أنهم يكرهونها إذا ما كان عليهم أن يدفعوا ثمنها، بل يفعلون المستحيل لتجاوزها وخرْقها، ربما لهذا السبب يمكن أن يكرهونا، دون أن ننسى أن هناك أناسًا يحبون أن يكونوا مثلنا، لأننا رمز للنفوذ ربما، للقوة، للسيطرة، سمِّها ما شئت.

- ولكن هؤلاء يحبونكم أيضًا لأنهم يكرهونكم، لأنهم يريدون أن يكونوا مكانكم! وإذا ما نجحوا في ذلك فإنهم سيتخلّصون منكم بصور قاسية، بل جهنّمية في رأيي! هل تذكر كيف كان قادة الجيوش في الماضي يقومون بانقلابات على الرؤساء؟! لم يفعلوا ذلك لكي يشبهونهم فقط، بل للتخلّص منهم نهائيًا، أليس كذلك؟ قال راشد شبه شامت.

- يقلقني ما تقول. هل تعني أن مرض اليوم، أو ظاهرة اليوم، كانت موجودة قديمًا؟ علّق الضابط.

- أخشى هذا، ولكن الناس تعاملت معها باستخفاف، باعتبارها حالات فردية ربما، لكننا اليوم..

- وأنت، ما الذي آلت إليه أمور شبيهكَ؟ أعني جاركَ؟ سأل الضابط بشماتة متوارية.

- آخر مرة رأيته فيها كان يشبهني قليلًا! أعني، ربما وحدي الذي أدرك الأمر، ولكن المشكلة الحقيقية إن لم أعد أعرف أنا أنه يشبهني.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه عند ذلك سيكون أنا، وهذه أخطر مراحل الشّبه، أليس كذلك؟

- لا أعرف، فأنت تتحدّث عن أحاسيس لم أعشها. ولكن قُلْ لي، هل صحيح أن محرّك سيارة شبيهك ما زال دائرًا، لقد قرأتُ شيئًا عن هذا، ورأيت صورة السيارة، وعرفتُها لأنها شبه سيارتك ولأن العمارة التي تقطنون فيها تظهر في خلفية المشهد؟

- هذا صحيح.

فجأة نهض الضابط، وهو يقول:
- ولكن من يُثبت لي أنكَ لستَ هو؟!
- ماذا؟ انتفض راشد.
- يا رجل! أُمازحكَ، في الحقيقة لو حدث هذا سأقتلكَ على الفور، هل نسيت أنك زوج أختي؟ وصافحه بشدة!

توقّع راشد أن يُنهي الضابط المصافحة، لكنه شدّ أكثر على أصابع وراحة زوج شقيقته، وقال: اسمح لي أن أعتذر للسكرتيرة، فقد كنتُ فظًا معها.

حاول راشد أن يقول شيئًا، فشدّ الضابط أكثر بيد تلقّت تدريبها الحيّ على لحم الأحياء قديمًا.

بيده اليسرى ضغط راشد أحد الأزرار، فانفتح باب السكرتيرة.
- شقيق زوجتي، حضرة الضابط، يريد أن يقول لكِ شيئًا.

في تلك اللحظة تحرّرت أصابع راشد، وطارت يد الضابط إلى يد السكرتيرة مصافِحةً:
- أعتذر لكِ، كنتُ فظًّا، ولكنك تعرفين، ما يحدث يربك الجميع.
- لا مشكلة، قالت. لكنه واصل التشبّث بيدها إلى أن أحسّ بأن الأمر زاد عن حدّه، فتركها.

سار راشد عدّة خطوات مرافقًا الضابط حتى الباب، فتَحه له، ومدّ يده إليه ثانية ليصافحه، لكن الضابط تجاهل تلك اليد الممدودة التي علِقتْ في الهواء لحظات، قبل أن يستردّها راشد بانزعاج شديد.

دار راشد نصف دورة، جلس على كرسيه، تأمل يده، قلّبها مثل عصفور ميت يريد أن يعرف من أيّ صنف هو..

كانت ذابلة كهزيمة!

وفي الممرّ، الممرّ الطويل المكتظّ، كان الضابط يلعق أصابعه، والناس الذين رأوه يخرج من مكتب المدير، يحدقون فيه بعيون حاسدة، نهِمَةٍ، هو الذي لم يتنبه لما كان يفعله إلا بعد أن عضّ يده عند باب الخروج.

موسم الضياع

أدق الصّور وأكثرها وضوحًا في المرايا لا يمكنها أن تريك الحقيقة

ليلة القتْل

سرت شائعة بأن هناك محاولة للسيطرة على البلاد، وأنها نجحتْ، حيث تمكّن أحد المرافقين لـ (حضرته) أن يكون صورةً عنه، وأن كل محاولات فكِّ اللغز فشلتْ في الوصول إلى حقيقة ما جرى.

حاول راشد أن يتّصل بالمدير العام، بالضابط، بكل من له نافذة، واسعة أو ضيّقة، على مجريات الأمور، للتأكد، لم يتلقَّ ردًّا.

كانت اتصالات سائقي سيارات الإسعاف، التي تحوّلت إلى سيارات شرطة، تتوارد. فقد انتشر رعب حقيقي بعد أن تمّ إنزال السائقين في أماكن مهجورة أحيانًا، أو على أي رصيف، و (استعارة) سياراتهم، في وقت لم تكن فيه أي سيارة عابرة مستعدّة للوقوف لحمْلِهم.

السلطات الأمنية كانت تجبر السائقين على تسليم السيارات، وبمجرد نزولهم، كان سائقون عسكريون متجهّمون، ينطلقون فيها بعيدًا. أما السيارة التي يستخدمها راشد، فقد كانت متوقّفة في باحة المستشفى، دون أن يستطيع حسم أمره: أن يبقيها واقفة حيث هي، أم يستخدمها في العودة إلى بيته. واختلطت الجهات في رأسه، حين تلقّى مكالمة يأمرونه فيها بتسليم كل سيارات الإسعاف فورًا للقوة العسكرية التي ستصل إلى المستشفى بعد أقل من نصف ساعة.

اقترب من النافذة، نظر إلى الخارج، كان العالم غامضًا أكثر من أي يوم مضى، والظلام يهزّ الشبابيك جارفًا الضوء في الداخل مثل إعصار

(تسونامي 5) الذي تجاوزت قوته عشرة أضعاف أعاصير تسونامي الأربعة السابقة، وبات الأشهر بين الأعاصير التي شهدتها الأرض، فقد تجاوزت أمواجه أراضي بعض البلدان التي لم تزل تحتفظ بأسمائها القديمة مثل فرنسا، وهولندا، وألمانيا، ووصلت حتى مشارف ڤيينا، حاملة معها ملايين الناس من بلد لبلد، جثثًا، في أكبر هجرة قسرية تشهدها القارة، التي لم تعد عجوزا فقط، بل شبه ميتة، ما جعل كثيرًا من الحكومات تستخدم الطائرات لرش موادّ، مثيرة للجنسين، في الهواء لتحفيز عمليات التزاوج، وبنسب عالية، باعتبار ذلك هو الحل الأخير للخروج من قبضة الفناء.

***

- هل هناك أخبار جديدة، سأل راشد سكرتيرته التي تتابع برنامجًا تلفزيونيًّا.

- أظن أن هناك الكثير الذي يمكن أن نسمعه، فمنذ يومين يعلنون عن موضوع حلقة الليلة في برنامج (كلِّ الاتجاهات).

جرَّت السكرتيرة كرسيًّا وجلستْ عليه، تاركه لراشد أن يجلس مكانها.

التفت إليها، كما لو أنه يراها للمرة الأولى، وسألها:

- ولكن قولي لي، ألا تخشين ظهور شبيهات لكِ؟

- أنا؟! لا، لم أفكر في ذلك، فأنا سعيدة لكوني سبقت الجميع حين اخترتَ لي الشبيهة التي تريدني أن أكون على صورتها وأنا أحببتُ صورتي الجديدة؛ ربما الشيء الوحيد الذي أخشاه، أن أعود إلى صورتي الأولى.

- أنتِ خارج هذا كلّه إذًا؟

- بالتأكيد، فقد حسمتَ عدة معارك، ونصرتَني فيها، معارك كان عليَّ أن أخوضها بنفسي، ويعرف الله كم كان يمكن أن تكون نتائجها رهيبة، ولذلك سأبقى أحبكَ مهما حدث.

- ولكن، ألا تخشين وجود أشباه لي؟

- أخشى بالطبع، هذه هي المسألة الوحيدة التي تؤرقني، وبما أنني لا أغادر المكتب إلا معك، فهذا يجعلني مطمئنة.

***

بدأ المذيع منفعلًا كالعادة، حين انطلق في بداية البرنامج كصاروخ طارحًا مجموعةً متتالية من الأسئلة، بعروق نافرة، دون أن يكفّ عن تعديل وضع نظارته التي كانت تنزلق باستمرار عن قاعدة أنفه:

- لماذا يتستّرون حتى الآن؟ لماذا يخفون الحقيقة؟ هل ما يحدث في ذلك البلد هو بداية لما سيحدث في بلدان أخرى؟ إلى أي مدى بلغت خطورة الحالة؟ هل فعلا طالت شخصياتٍ كبيرة؟ أم أنها لم تزل محصورة في حدود المواطنين؟ ثم هل هناك ظواهر أخرى تجاوزت البشر؟ أم أن حالة الذعر العامة السائدة ضاعفت تخيّلات الناس؟ هذه الأسئلة وغيرها سوف نطرحها هذا المساء على ضيفينا الكريمين: الدكتور خليل أبو رزق، أستاذ علم الاجتماع، والدكتور خالد الأسطة، أستاذ علم الأحياء التطوّري.

وحاول المذيع، على غير عادته، أن يتوسّل الطرفة في لحظة تخنقها المأساة وهو يضيف: ونرجو أن يكون ضيفانا هذا المساء هما الأصل بالطبع، وليسا شبيهين لهما!

عدّل راشد جلسته، فأدركت السكرتيرة أنه قرر متابعة البرنامج.

- ما يخيفني فعلا، قال الدكتور خليل، هو أن تتجاوز المسألة أفرادًا بعينهم، أي أن لا يكون لكل إنسان عدة أشباه، عشرة، أو مائة فقط، ما يخيفني فعلًا، أن تكون هذه الظاهرة هي البداية على طريق أن نغدو في النهاية على صورة شخص واحد، نضحك ونبكي ونغضب ونمشي تمامًا مثله، وربما يكون هذا الشخص واحدًا من المشاهير الذين نشاهدهم كثيرًا، ربما يكون مغنيًا، أو نجمًا تلفزيونيًّا، أو لاعب كرة قدَم شهيرًا أو نجمًا سينمائيًّا..! ربما يكون طاغية على قيد الحياة أو مُصلحًا؛ تخيلوا أن نكون

كلنا طغاة، أعني كلنا، أو كلنا مصلحين، أعني كلنا! يا للهول! قال ذلك وهو ينظر صوب مقدِّم البرنامج دون أن يضحك.

قاطعه المذيع دون أن يبتسم وقال: وربما يكون رئيسًا، أو ملكًا، أو أميرًا، أو إمبراطورًا، أو سمِّه ما شئت..! أم أنكَ تستبعد هذا؟

ارتبك الضيف، فحوّل مقدِّم البرنامج سؤاله إلى ضيفه الثاني، أستاذ علم الأحياء التطوري:

- هل يمكن أن تتطوّر المسألة، دكتور خالد، لما هو أبعد من هذا بعد أن سمعنا أن هناك، وأحبّ أن أدعوها (إشاعات)، لأنني لا أستطيع أن أتخيّل حجم الكارثة لو أن ذلك قد حصل، وهذه الإشاعات تقول إن هناك حالات تشابه بدأت تظهر بين الناس وحيواناتهم الأليفة؟

- أشكرك على هذا السؤال، قال أستاذ علم الأحياء التطوري، في الحقيقة أتمنى أن يكون الأمر مجرد إشاعات، إشاعات لا غير، لأن المختبر عندي محتشدٌ بكل أنواع الحيوانات والحشرات، من الحرباء حتى القرد، مرورًا بالذبابة الزرقاء والجراد.

- أنت تُفزعنا دكتور بدل أن تطمئنّا وتحلِّل لنا المسألة من وجهة نظر علمية!

- باختصار، وإذا أردتَ أن أكون صادقًا، وفي حالة كالتي نعيشها لا أستطيع إلا أن أكون صادقًا، نعم هناك أخطار، لأن هناك كثيرًا من الحيوانات أثبت العلم منذ زمن طويل أن خارطتها الجينية قريبة منّا، وعلينا أن نخشى هذه أولا، بمعنى أننا مهددون بأن نكون على صورتها، فقد عانى تطوّرها من ما يمكن أن أُطلق عليه اسم (السُّبات الطويل)، وهي تتطلّع إلى قفزة ما، ما دامت تنتمي إلى الكائنات الحية، وبعضها لديه مشاعر مُركّبة مثلنا، فما دمنا جيرانها في الخارطة الجينية، ويمكن القول (الحيط بالحيط)، فإن ظاهرة التشابه يمكن أن تتسع فتشملنا، وتشملها أيضًا.

- تعني أن يكون هناك إنسان كما يشاع على هيئة كلب، وكلب على هيئة إنسان؟! هذا غير معقول، بخاصة في هذا الزمن الذي فقدتْ فيه الكلاب، تمامًا، خصلةَ الوفاء، وتوحشتْ!

- ليس هناك ما هو غير معقول في هذه المسألة، قال أستاذ علم الأحياء التطوري وهو يعدّل جلسته، وينظر مباشرة إلى عيني مقدّم البرنامج، ويضيف: علينا أن لا ننسى أن الطبيعة غاضبة، غاضبة تمامًا منا؛ فما نراه من طول الليل وقِصَر النهار، واختلاط الفصول، كلّها دلائل على ذلك؛ فإذا كانت الفصول قد اختلطت في فصل واحد، فما الذي يمنع أن يصبح البشر كلهم على صورة رجل واحد؟! أو أن يكونوا في النهاية على صورة حيواناتهم؟ والذاكرة البشرية، ولا أعرف إن كان مسموحًا لي أن أقول: (الذاكرة البشرية)، فهي حافلة بحكايات التحوّل، في الحكايات الشعبية، والأدب أيضًا. بصراحة، لقد أزعجْنا هذا الكوكب بما يكفي، وكل ما أتمنّاه أن تكون أنت وأنا وهو وكل المشاهدين في النهاية على صورة الكائنات الأخرى التي قتلناها بسبب ودون سبب! لأن الخلاص الوحيد لهذا الكوكب قائم في أن يعود إلى ما كان عليه، أي لا وجود سوى للحيوانات وحدها فوقه، لأنه وطنها، وطنها وحدها، ولم نكن سوى مستعمِرين غلاظ القلب وغلاظ الروح، سرقنا لحمها وجلدها وحتى مواهبها، وحوَّلنا كثيرًا منها إلى كائنات شريرة، رغم كلِّ محاولات إخفاء حقيقتنا خلف الأشياء الجميلة التي ندّعي أننا ابتكرناها، هذه الأشياء التي لم تكن سوى تقليد مكشوف من قِبَلِنا لتلك الكائنات، من ملابسنا وجدراننا وسياراتنا وشوارعنا وأحذيتنا التي لا تتسخ لأننا سرقنا موهبة أوراق اللوتس التي لا يعْلَق بها حتى الغراء، إلى الأبنية الذكيّة التي كانت الحشرات والحيوانات سبّاقة لها، إلى الحرير الذي تنعَّمنا به ونحن نسرقه من دود القز، إلى الملابس المضادة للرصاص التي صنعناها من خيوط العنكبوت، إلى الغناء والنظام، والاختراعات العلمية، وصولا إلى اللغة

والملابس والحركة على الأرض وفي السماء! لقد سبقتْنا الكائنات الأخرى في كل هذا؛ وها نحن كما ترى، لا شيء يفسر قُبْح وجودنا مثل عملنا المتواصل على إبادتها بسبب تفوّقها علينا، ففي ثلاثة مليارات عام طورت هذه الكائنات كل ما هو صحيح لتستمر الحياة، وفي أقل من مائة عام دمر الإنسان الكثير مما بنَتْه.

كان انهيار أستاذ علم الأحياء التطوري مرعبًا، فقد راح يرتجف ويرتجف، مثل طائر مذبوح، ما اضطر المقدِّم لأن يعلن:

- فاصل ونواصل، نعود بعده إليكم.. لهذا الحوار الأكثر صراحة وخطورة من أي حوار أجريته في حياتي.

***

كان راشد قد استهلك آخر كمية أوكسجين في المكتب، التفتَ إلى السكرتيرة فرآها فوق كرسيّها تجلس، ولكنها لم تكن هي، كانت بجعة، فتحسّس نفسه، فلمست يده فروًا لم يتأكد لأي حيوان يعود! وعندما انتهى الفاصل الإعلاني، كان المذيع قد تحوّل إلى حصان هرِم بنظارتين، وتحوّل أستاذ علم الاجتماع إلى جرادة عملاقة، أما أستاذ علم الأحياء التطوري فكان يقف أعلى ظهر الكرسي كخفاش عملاق.

نفض راشد رأسه، فعادت السكرتيرة إلى صورتها، وكذلك من كانوا في الأستوديو.

نهض، قال: أظن أن هذا يكفي.

***

قرر أن يغامر،

أن يعود إلى البيت.

أخبر السكرتيرة بذلك، فطمأنته وهي تغلق التلفزيون:

- سأتابع العمل، ففي النهاية كل ما لديّ موجود في هذا المكتب.

جملتها الدّقيقة المحايدة، والطريقة الباردة التي قالتها فيها، لم تُعْطه أيّ

انطباع بأنها تقصد شيئًا من وراء كلامها، لكونه يغادر المكتب تاركًا النسخةَ عائدًا إلى الأصل.

- هل يمكنكِ القيام بكل هذه الأعباء؟

- اطمئن، ثم إنني أستطيع الاتصال بكَ في أي وقت إذا حدث أمر طارئ، أو تفاقمت الحالة، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، قالها غير راض عنها وعن نفسه!

***

منذ أن تعلّقت به، كانت السكرتيرة تتمنّى دخول بيته، ولو من خلال مكالمة صوتية! وقد جاءت التطوّرات غير المتوقّعة كأفضل كارثة يمكن أن تمدّ لها يد العون لتحقيق أُمنيتها، هي التي، بحكم عملها، لديها تردّد الاتصال الخاص بكل الأجهزة التي في بيته[5].

بمجرد صعوده إلى جانب السائق، أدرك راشد أنه أخطأ في منْحها التصريح بالاتصال، كان عليه أن يقول لها: إنني أثق بكِ، ولديك كل صلاحياتي في اتخاذ أي قرار ترين أنه الأنسب.

كلام كهذا، كان يمكن أن يكون أفضل ردٍّ على ما قالته، ولن يعني شيئًا، إن لم تكن تعني بكلامها شيئًا.

الغريب أنها هي التي حاذرت أن تتّصل به ذاتها، غدت أكثر جرأة بعد مواجهتها مع سلام.

***

تحرّكت السيارة.

- هل تسير أموركَ على ما يرام؟ سأل راشد السائقَ.

- لا أستطيع أن أشكو، ما دامت هناك ثلاث مرايا تشهد بأنني لم أزل أنا!

---

[5]- فتحت التقنيات الجديدة الأبواب لاستخدام أي جهاز بيتي كهاتف، من خزانة الملابس مرورا بالثلاجة والتلفزيون حتى عصارة الفواكه...

- هذه نعمة كبيرة فعلًا. وهل قابلتَ أي شبيه لك؟

- لا، ردّ السائق، ولأعترف لك أنني لم أعد أخشى حدوث ذلك، لأن زوجتي متمسِّكة بي أكثر من أيّ يوم مضى، وإذا سمحتَ لي أن أضيف شيئًا آخر، سأقول، ليس هناك اختبار أدقّ للعلاقات الزوجية ومدى قوتها، أفضل مما يحدث. ويمكنني القول إنني الوحيد الذي لا يشكو مما يحدث؛ وإن كان الخوف الوحيد الذي سكنني لفترة هو أن تتخلّوا عنا كسائقين، لكن بقاءنا في وظائفنا أراحنا كثيرًا.

- وهل ما زالت امرأتك تتحدّث معك من خلف الباب حين تعود إلى البيت؟

- أجل، هذا ما تفعله، لكن الغريب في الأمر أنها قالت لي إنها تعرف سرّ اختلافي عن بقية الرجال. حاولت استدراجها لتبوح لي بالسرّ، فرفضت ذلك بشدة.

- ما دمتَ سعيدًا إلى هذا الحدّ، وفرحًا بالنظر إلى صورتك في المرآة أكثر مما تنظر إلى الشارع أمامك! فأريد منك أن توصلني إلى البيت عبر طرُق لا يمكن أن نصادف فيها مَن يُنزلَنا ويستولي على السيارة قبل وصولنا إلى هناك، هل تستطيع؟

- تلك مهنتي، ولكن الطريق ستطول.

- لا بأس.

- وربما تصادفنا مشكلات من نوع آخر.

- كل المشكلات أفضل من أن نضطرّ للسّير على أقدامنا في هذه العتمة إلى بيوتنا متعثرة رئاتنا بروائح العفونة وأقدامنا بما نراه وما لا نراه.

***

انعطف السائق جانبًا، أطفأ أنوار السيارة، وبعد لحظات سأله راشد:

- لماذا أطفأت الأضواء؟

- لكي أضمن أن أحدًا لن يرانا.

- ولكنني لا أرى أي شيء! قال راشد وقد اكتشف أي نعمة تلك التي

كان سيمتلكها لو أن نظره الآن معزز بقوة 3 بوم أو حتى بوم واحد.

- اطمئن، أنا أرى. هذه الشوارع أحفظها غيبًا، منعطفاتها وحفرها، صعودها وهبوطها، وأهم شيء: تقاطعاتها.

- هل أنت متأكد؟

- أنت تعرف حضرتك، يمكنني أن أغامر بنفسي، ولكنني لا أُغامر بكَ، أعني بحضرتك.

وتساءل راشد: هل كانت عزّته بنفسه أكبر مما ينبغي عندما رفض التنازل لطلب قوة أقل من 3 بوم، أم أن ما فعله كان هو الشيء الصحيح الذي عليه أن يفعله؟

***

ارتفعت السيارة في الهواء وارتطمت بالأرض، فصرخ راشد: ما الذي يحدث؟! وقبل أن يجيب السائق كان عشرة رجال، على الأقل، يحيطون بالسيارة ويفتحون أضواء كشّافاتهم اليدويّة نحو وجهيهما.

تجمّد راشد، وكذلك السائق.

- لا، ليسوا مثلنا، أعني لا يشبهوننا، قال أحد الرجال الغامضين بصوت غليظ.

- هل أنت متأكد؟ سأله آخر بقلق.

- أجل، لا أحد منهما يشبهنا، أو يشبه أحدًا نعرفه. ووجّه كلامه إلى السائق: يمكنك أن تواصل طريقك. ستوقفكما حواجز أخرى، فسِرْ ببطء أكثر، ولا تبالغ في إدعائك أنك تعرف هذه الشوارع، أنت تعرفها في الضوء لا غير.

- شكرًا لكم على النصيحة. قال راشد.

كانت السيارة على وشك التحرّك، حين صاح أحدهم بالسائق: توقّفْ. وقفز اثنان أمام السيارة مُشهرين سلاحين مختلفين لم يرَ راشد من قبل ما يشبههما.

تقدّم الرجل المسلّح الذي صرخ، رفع يده، دون أن يُبعد الضوء عن

وجه السائق، ومرّر إصبعه على وجهه، وصرخ: مُتَنكِّر!

- ماذا؟

- مُتنكِّر!

سادت الفوضى وتقاطعتْ خطوط الضوء في داخل السيارة متنقّلة بين وجه راشد ووجه السائق، في الوقت الذي كان المسلّح الذي اكتشف الخديعة يمسح وجه السائق بقوة مستخدمًا قطعة قماش التقطها عن الأرض.

كان راشد أكثر ذهولا منهم مجتمعين. انعقد لسانه وهو يرى وجه السائق يتّضح أكثر فأكثر، كما لو أن الرجل الممسك بقطعة القماش يمسح مرآة يقف أمامها راشد ليتمكن من رؤية صورته.

- لستُ هو، إنني أنا! قال السائق وهو يشير إلى راشد.

- ماذا؟ لم أفهمك! ردّ الرجل الممسك بقطعة القماش.

- لستُ أنا، إنه هو! ردّد السائق برعب.

فتح أحدهم باب السيارة، فامتدّت يد ضخمة وسحبت السائق من مقعده وألقتْه أرضًا.

- كلمة واحدة يمكن أن تنقذ حياتك، وكلمة واحدة يمكن أن تنهيها. هل كان السيد الجالس إلى جانبك يعرف أنك شبيهه؟

حاول راشد أن يتكلّم، فأمره المسلّح وهو يلقي بقطعة القماش بتقزز، أن يصمت.

- كلمة واحدة منك، وسأعتبرك متستِّرًا على تنكّره.

صمتَ راشد، واستدار الرجل الذي راح ينفض يده وكأن المنديل لم يزل عالقًا بها، وأعاد طرح السؤال على السائق.

- كلّما تأخرت في الردّ تضاعف عقابك، قال رجل تُخفي العتمة ملامحه.

- لا، لم يكن يعرف، قال السائق.

- كنتَ تخدعه إذًا.

- أجل.

وجه رجلُ قطعةِ القماش سلاحه الغريب الذي لا شبيه له أيضًا إلى رأس السائق، وبمجرد أن لامسه، أُطفئت أنوار الكشافات، وعادت العتمة ثقيلة قبل أن تثقبَها تلك الإضاءة الخافتة لرصاصة استقرَّت في رأس السائق. وسمع راشد صوت جسد يُجرُّ بعيدًا، قبل أن تُضاء الأنوار ثانية.

- أتعرف لماذا قتلناه في العتمة؟ سأل رجل قطعة القماش موجِّهًا حديثه لراشد، وقبل أن يجيب قاطعه: لأننا لا نريدكَ أن تعتقد أنكَ أنت الذي قُتِلْتَ، هذا أسوأ كابوس يمكن أن يعيشه الأصل. هل فهمت؟

كان راشد على وشك أن يُجيب، فقاطعه الرجل نفسه:

- هل تستطيع قيادة هذه السيارة؟

هزّ راشد رأسه كما لو أنه يقول: أجل.

- وهل تعرف الطريق إلى بيتك عبر هذه الشوارع الخلفيّة؟

هزّ راشد رأسه نافيًا ذلك.

- عُدْ إلى الشارع إذًا. مُصادرة السيارة أفضل من أن يوقفك أحد في هذه الأنحاء ويصادر روحك، لأنك تشبهه أو تشبه أحد معارفه. وأظن أنك كنت محظوظًا لأننا لا نؤمن هنا بنظرية العدْوى مثل غيرنا من المجموعات المنتشرة في عتمة هذا المكان.

ببطء تحرّك راشد وجلس خلف المقود، أدارَ محرّك السيارة، لم ير شيئًا. فقال له مسلّح قطعة القماش، أضئ الأنوار، أم أنك نسيت أننا رأيناك؟

بحث بصعوبة في العتمة عن مفاتيح أنوار لا يعرف أينها. وطال الأمر، فامتدت يدٌ، وساعدته.

لمع دم السائق الذي لم يزل طريًّا على الأرض، فاتقدت رائحة غريبة مثل شعلة نار ضخمة، وألهبت مسالك تنفسه، ارتبك راشد.

- هيا، قبل أن نغيِّر رأينا. جاءه صوت من العتمة.

تحرَّكت السيارةُ إلى الأمام، أوشكتْ أن تصطدم بحائط، وتحركتْ إلى الخلف، اصطدمتْ، ثم انطلقتْ عائدة من حيث أتت.

الليلة المفقودة!

إذا عدنا قليلا إلى الوراء، وإلى ليلة الفِطر بالتحديد، فسيتبين لنا أن الأمر كان أكثر تعقيدًا، فما إن وصل السائق بيته، وفتحتْ له زوجته الباب، حتى فوجئت بأنه ليس هو. طلبت منه أن ينظر في المرآة ليتأكد، فنظر وتأكد، وأوشك أن يغادر البيت بعد أن غمره إحساس بالخجل لأنه دخل بيت غيره!

صاحت به زوجته قبل أن يبلغ الباب:

- إلى أين؟

فقال:

- عليَّ أن أخرج لأنني هو!

فردّت بصورة قاطعة:

- لو كنتَ هو لما أدخلتكَ البيت، هل تعتقد بأنني لم أعرفك، لو كنت هو لما تجاوزتَ عتبة بيتي.

في تلك اللحظة، رأى السائق بابَ المأساة الذي أُشرع على مصراعيه يُقفل للأبد.

- ولكنني أصبحت أشبهه.. مديري، راشد.

- وهل تعتقد أنني لا أعرف من تُشبه، لقد رأيتُ صورَه كثيرًا، وتوقّعت أنك إن لم تشبهه اليوم فستشبهه غدًا ما دام وجهك في وجهه كل يوم.

- أنتِ لن..

- بالتأكيد، ثم إنكَ أصبحت تشبه مديرًا محترمًا، وليس سائق سيارة إسعاف مغلوبًا على أمره، مثلكَ.

- هل يعني..

- وهل تراني قلتُ شيئًا غير ذلك؟! أَغلق الباب، ودعنا نفكر في طريقة تحافظ فيها على عملك، فأسوأ ما يمكن أن يحدث أن تجد نفسك عاطلا عن العمل في ظرف غريب كهذا.

***

حين أنهت زوجته العمل على تغيير ملامحه، قالت له:

- باستطاعتك أن تنظر الآن إلى المرآة.

نظر، وصرخ بابتهاج بدّد العتمة في الخارج ثلاث دقائق على الأقل.

***

كان السائق قد أتقن دوْره في التّخفّي بجانب راشد، راشد الذي لم يعد يلتقط أي تشابه بينهما.

أما ما كان يُطمْئن السائق أكثر فهو أن زوجته قد غدت أكثر اتقانًا لصنعة إخفاء ملامحه، لكنه لم يكن يعرف أن بعض التشوّش الغريب أصابها؛ فقد كانت تحسّ للحظات أنها على علاقة برجلين، زوجها القديم وزوجها الجديد، وتساءلت أكثر من مرة: هل تخون الأول، السائق؟ أم تخون الثاني، المدير؟ ولم تتوصّل إلى إجابة تريحها، رغم ميلها لزوجها المدير.

أما السائق نفسه، فكان سعيدًا لأنه لم يفقد نفسه طوال الوقت، فأثناء العمل هو السائق، كما منحه فرحه الخفي باعتباره شبيه المدير، ثقة أعلى في تعامله مع زوجته، حتى أنه رأى في احتفائها بشكله الجديد شكلا من أشكال الطاعة، والوفاء اللذين يُنزِّهاها عن أي خيانة يمكن أن ترتكبها.

أما السؤال الذي لم يكن يتوقف عن طرحه، كلما أتمّت عملية تنكره، ونظر إلى نفسه في المرآة، فكان:

- لا أصدّق، كأنني أنا، كأنني كما كنت في السابق!

- إذا صدّقتَ أنت ذلك، فسيصدّقه مديركَ أيضًا، كانت تقول له كل مرة، وتضيف: الحمد لله أن هناك ملابس تعفيني من العمل على إخفاء بقية معالم أعضائك!

وهكذا لم يعد قادرًا على منع نفسه من البوح لنفسه، كلما صعد راشد إلى جانبه: إن اختفاء هذا المدير سيكون أكبر هدية يمكن أن تُقدَّم إليّ!

الخطر الأكبر!

أدرك راشد أن خبر مقتل السائق لن يبقى سرًّا، وأن أكثر من دليل يشير إليه كمتّهم: فقد شاهده ربْع العاملين في المستشفى وهو يصعد معه، كما أن السكرتيرة هي التي اتّصلت بالسائق لترتيب إعادته للبيت؛ وهو الذي قاد السيارة بعد مقتله، وسيغدو هذا الدّليل، بالذات، أقوى الأدلّة إذا ما أوقفته دوريّةٌ لاستلام السيارة منه. سيكون عليه عندها أن يوقّع وثيقة من نسختين، واحدة له، وواحدة للسلطات، تسهيلًا لإعادة السيارة فيما بعد. أما أخطر الأدلّة فستكون شهادة زوجة السائق التي ستعترف مضطرّة أن زوجها كان نسخة مطابقة عن راشد.

تعالى رنين هاتفه، لكنه لم يُجب. كان الردّ على مكالمة في سيارة لا يُحسِن قيادتها أفضل وصفة لوقوع حادث، والتورّط أكثر.

التخلّص من السيارة كان أفضل الحلول، وأصعبها أيضًا، إذ سيكون متعذَّرًا عليه أن يتركها في مكان مهجور لا يستطيع العودة منه، كما أن القبض عليه بتهمة كسر حظر التجوال مؤكّد أيضًا، ما إن يترجّل منها.

قرّر أن يستند في دفاعه عن نفسه على النقطة الأضعف، أن يقول: لقد أوصلْته إلى بيته، وعدتُ إلى بيتي مستخدمًا السيارة لأنني كنتُ بحاجة إليها.

كل تلك الكوابيس التي راحت تتجمّع، تحوّلت إلى سيل عارم جرَفَ روحه وعرَّاه من أيّ درْع يمكِنه الاحتماء به.

وتعالى رنين هاتفه ثانية وثالثة.. لم يُجب.

فكَّر في الاتصال بالمدير العام، لكنه كان يعرف أن أمرًا كهذا سيجعله رهينةً في يده، بعد أن كان راشد متفضِّلًا عليه، بل لعله يعود وينسى أنه غفر لراشد تطاولَه.

من خبرته الطويلة يعرف أن واحدًا مثل المدير العام لا صاحب له إلّا مصلحته. سيقول له المدير العام ساخرًا: أهلا بك، أتيتَ برجليك، وسيطلبُ منه، كأسير أمل، مبلغًا يساوي كلَّ ثروته قبل أن يُطلق سراحه!

الاتصال بالضابط كان يثير قلقه بشكل أكبر بعد أن ضبطه الشقيقُ متلبّسا بامرأة أخرى تشبه شقيقته، وعلى الرغم من أن سلام سامحتْه، فشقيقها بالتأكيد لم يسامحه!

في ذلك الظلام الكثيف، المحتشد بكل الاحتمالات، بقي راشد مصرًّا، رغم ما حدث ويحدث، على أن أفضل ما فعله هو عدم التنازل لطلب قوة أقل من 3 بوم.

واصل نهر كوابيسه اندفاعه إلى أن وجد نفسه أمام باب العمارة التي تقع فيها شقّته. لقد استطاع الإفلات من دوريات المُصادَرة، أو الاستعارة. كيف؟ هو لا يعرف!

بصعوبة وجد مكانًا أوقف فيه السيارة، فقد كان الوحيد في الضاحية الذي لم يعد إلى منزله بعد حظر التجوال المستند إلى الخطر الأعظم الذي هدّد البلاد حتى تلك اللحظة، ونعني ظهور شبيه لـ (حضرته).

أمضى وقتًا غير قليل وهو يحاول إطفاء أنوار الإنذار الحمراء والبنفسجية فوق السيارة، والأنوار الأمامية. ترجّل منها، جال بنظره في الشارع، لم ير شيئًا بسبب الظلام المختلط بالضباب برائحة العفونة التي تتكثف في الليل، وبدأ مسيرة إلى بيته، أحسّها مسيرة الألف ميل.

ما أثار انتباهه أن أنوار شقة الرَّاصد الجوِّيّ كانت مطفأة! وعندما وصل إلى باب العمارة، تأكّد له أن الصمت حقيقيّ أيضًا، فمحرّك سيارة

الرَّاصد الجوِّيّ مطفأ أيضًا! حاول التفكير في الأسباب التي تقف وراء ذلك، لم يصل إلى شيء.

ارتقى الدرجات دون أن يكون بحاجة لأي أضواء. ضغط زرّ المصعد، ورآه يهبط من طوابق لا وجود لها. أقلقه هذا، وأعاده إلى تلك الألغاز التي لم يستطع حلّها، الألغاز التي لا يستطيع تفسيرها سِوى الرَّاصد الجوّيّ .

أكثر ما خشيه أن يجد نفسه معه وجهًا لوجه. أُشرع الباب أخيرًا، كان المصعد خاليًا. لو وجده، لكانت تلك أفضل فرصة سنحتْ له للتخلّص منه، وسيكون قد ارتاح من وجود الشبيهَين في ليلة واحدة!

قبل أن يصل باب شقته، أشرعته سلام فجأة:

- لقد تأخرتَ كثيرًا. السكرتيرة اتّصلتْ ثلاث مرات لتطمئن عليك وتُشغل بالي! أخبرتْني أنها باتتْ قلقة لأن هاتف السائق، الذي من المفترض أن يعيدك إلى البيت، لا يجيب، وهاتفكَ لا يجيب.

- لقد أوصلْته إلى بيته، ولأنني أقود السيارة للمرّة الأولى، لم أُرد أن أنشغل بالردّ على الهاتف؟ ولكن، كيف تفتحين الباب قبل أن تتأكدي من أنني أنا؟

- وما الذي يمكن أن يحدث أكثر مما حدث؟ كانت خطيئتها تحيلها إلى كائن عدائي أكثر مما يحيلها خداع راشد لها.

- ماذا تعنين؟!

- لست أدري لماذا تصرّ على التّمسك بهاتفك القديم هذا! أظن أن هاتف السائق مثله! قالت وكأنها لم تسمع سؤاله.

- بل أقدم منه، لأنني تدخلتُ لكي يحصل عليه. أخبريني، هل قالت السكرتيرة شيئًا عن سير العمل؟

- لا، لم تقل، يبدو أنها كانت تريد أن تطمئن عليكَ فقط.

- سأتصل بها.

- لتُطمئِنها؟!

- بل لأن ذلك سيوقف اتصالاتها، فأنا متعب وأريد أن أنام.

***

- لقد قلقتُ عليك، أنت تعرف، في ليل كهذا وحظر تجوال كهذا، تصبح كلّ خطوة يخطوها الإنسان حفرة في الظلام. قالت له السكرتيرة.

- أفهمكِ، ولكن كان عليّ أن أوصلَ السائق وأقود سيارة لا أعرف شيئًا عن قيادتها. لذا..

- لذا لم تُجب؟

- أجل.

- ولكن السائق أيضًا لم يُجب.

- ربما لأنه نام منذ زمن، فقد كان عليّ أن أدوْر ساعتين كي أستطيع الخروج من تلك الضاحية-المتاهة التي يسكنها. سأتصل بكِ صباحًا، وإذا استمر حظر التجوال، ربما لن آتي غدًا.

أنهى المكالمة.

جملته الأخيرة أراحت سلام، وامتصّت نصف الغضب الذي يزوبع في صدرها.

التفتَ إليها وقال:

- لقد أُطفئتْ أنوارُ شقّة جارنا الرَّاصد الجوِّيّ، وصمت محرّك سيارته، هل لاحظتِ ذلك؟

- لا، لم ألاحظ، فقد كانت محركات من نوع آخر تهدر في صدري، قالت سلام.

لم يعلّق، لم يعتذر، كما كان يفعل عادة، بل سألها:

- هل لمحتِ الرَّاصد الجوِّيّ ؟

- لا، لم يحدث، مع أنني خرجتُ إلى الشرفة ألف مرة.

ولم يعلّق، ولم يعتذر.

- باستطاعتكِ أن تنامي الآن.

- وأنتَ؟

- سأتابع الأخبار.

- أي أخبار؟

صمتَ قليلا قبل أن يبوح لها بالسرّ، معتبرًا أن في ذلك رشوة لطيفة لها بعد انتظارها الطويل.

- هناك أحاديث عن اكتشاف شبيه لـ (حضرته) من مرافقيه، وهذا أحدث بلبلة كبيرة لأن كلًّا منهما يقول إنه الأصل. ولذلك هناك مراقبة شديدة لكل شيء، فهذه مسألة لم تخطر ببال أحد، لأننا جميعنا كنا نعتقد أن ظاهرة كهذه لن تمسَّ سوى الناس العاديين، ولن تصل إلى فوق.

هدأت سلام..

- ولكن الأمر لا يحتاج إلى حظر تجوال مُشدّد كهذا، ما داموا قد ألقوا القبض على الشبيه، علّقتْ نصف هامسةٍ.

- إنهم في ظنّي يحاولون السيطرة على مشكلة أكبر، فقد يكون هناك شبيه آخر، أو أكثر، يسرحون ويمرحون، وقد يكون الأصل بينهم، لا واحدًا من الاثنين اللذين تمّ إلقاء القبض عليهما، هل فهمتِ عليّ؟!

- بالطبع، فهمتُ، ولكن لم يسبق لكَ أن سألتَني سؤالا كهذا!

- أي سؤال؟

- سؤال: هل فهمتِ عليّ؟ فأنتَ تعرف أن لا أحد فهمكَ ويفهم عليكَ أكثر منّي.

ولم يعلّق ولم يعتذر.

قال:

- إذا ما عرفتُ شيئًا، أي شيء حول هذه القضية، فسأخبركِ في الصباح.

- بل أيقظْني ولو كنتُ في سابع نوم، وأخبرني، واصلتْ نصف همسها.

- خلاص، اتفقنا، سأخبركِ إذا ما اتّضح الأمر، واكتشف أنه يتحدث هامسا مثلها.

***

نام فوق الأريكة الطويلة في الصالون الكبير.

مقابلة عاصفة مع (ذلك الشخص)

انعقد لسان راشد.

***

الفكرة التي خطرت له، أن يسبقَ أيَّ تحقيق يمكن أن يحدث مسافة خطوتين على الأقل، أن يُخلِّفهم وراءه باحثين عن الأدلة، ومُنشغلين بها إلى أن ينسوا عما يبحثون ولأيّ غرض يبحثون.

كان قد سمع دائما عن (ذلك الشخص) الذي لا تنتهي قضية إلّا إذا تدخّل فيها. لم يكن راشد نفسه يعرف طبيعة عمل ذلك الشخص. بعضهم قال إنه في الأمن، وبعضهم قال إنه مجرد رجل اقتصاد كبير يتحكّم في كلّ شيء. ما كان يحيّر راشد هو ذلك الذي سيقوله له. مجرد أن يتحدّث له عن القتيل، سيدرك ذلك الشخص أن راشد هو مرتكب الجريمة، وإلّا فلماذا يلجأ إليه؟

لكنه قرر أن يمضي في الأمر حتى النهاية.

اتّصل بالضابط، وهذه أسوأ خطوة يضطرّ أن يخطوها. وسأله عما إذا كان باستطاعته أن يُرتّب له لقاء مع ذلك الشخص.

- أنا؟ ارتبكَ الضابط، من أين أتتكَ فكرةٌ مجنونة كهذه؟ هل جُننتَ؟ ثم هل تعتقد أنه مستعد للاستماع إليّ؟ أعني، هل تعتقد أن باستطاعتي أن أطرُق بابه في كلّ لحظة؟! ثمّ ما هي مشكلتك أصلًا؟ هل هي بمستوى أن تُعرَض عليه؟

- آسف، قال له راشد، أظنّ أنني طلبتُ الرّقم الخطأ!

- لا، لم تطلب رقما خطأ، ولكنك تستهين بي، وخفض صوته قليلا، وبهِ، حين تطلب أمرًا مباغتًا كهذا. رؤساء وجنرالات لا يستطيعون اللقاء به متى أرادوا! تواضعْ قليلًا، واعتبر نفسك من هؤلاء!

- أنا لست من هؤلاء، ولكن لقائي به ضرورة تفوق ضرورة لقاء أيّ شخص منهم به. قال راشد.

- وما الذي ستقوله له؟ إذا كان هناك كلام مُهمّ، فيمكنكَ أن تقوله لي، ثم بعد ذلك أنقلُه بنفسي إليه.

- لكنني لا أعرف ما سأقول له بالضبط.

- لا تعرف! وتريد أن تقابله!

- سأعرف ما سأقوله بمجرّد أن أقف أمامه. صدّقني، هذا ما يحدث معي دائمًا، ودائمًا أقول الكلام الذي يجب أن يقال، الكلام الذي لو صغتُه قبل اللقاء لأُسمِعه للطرف الآخر، لكان أسوأ كلام يخرج من فمي. ألم تقل لي حين أتيتُ لخطبة سلام: إنك أفضل مُرتجِل أراه في حياتي؟

- راشد، أظن أن أفضل ما يمكن أن تفعله هو أن تكتب ما ستقوله، وترسله إليّ، وأعدكَ، سأوصله إليه دون أن أُنقِص حرفًا. نصيحتي: أغلق الخط، واكتب ما تريد، وأرسله.

.. وقبل أن يُغلق راشد الخط أو يفكر في ذلك، قطع الضابط الاتصال، فانتشر صمتٌ عميق أصمّ أذنيه، صمتٌ يشبه ذلك الذي يلي انفجار قنبلة ضخمة في جوف إنسان!

***

دار راشد حول نفسه في الصالون، ثم اتّصل ثانية. كان قد غامر أن يصعد عتبةً أعلى ليصل إلى ما يريد.

- أهلا راشد؟ لولا أنك تعزّ عليّ كثيرًا لما أجبتُ على مكالمتك. فأنت تعرف، لا بدّ، ما نحن فيه، وما نحن فيه لا أستطيع وصفه، أتعرف لماذا؟

لأنه لا يجوز لنا أن نُخطئ، أعني تجمّع مدراء القلعة السابقين مع الحالي، فاهمني؟ الخطأ دمار، دمار لكلّ شيء، لأول مرّة أحسّ أن التمييز بين أمرين متشابهين جحيم لا يطاق. أتعرف يا راشد، أريد بصيرة ثاقبة كبصيرتكَ لأرى جيدًا، أعني لكي أتّخذ الخطوة التالية الصحيحة. من المحزن أنني لا أستطيع الاستعانة بخبرتك في هذه النقطة بالذات، لأنك لم تكن تعرفه جيدًا من قبل، بحيث تُصدر حكمك الصائب، ولكنني أعدك أنني سأُقرِّبك إليه إذا ما خرجنا من كلّ هذا سالمين، بل أعدك أنني سأمنحك قوة 6 بوم، لأنني أدرك أن كرامتك لم تسمح لك بطلب قوة أقل من 3 بوم، رغم أنك كنت تعرف أنني سأعمل على منحك إياها. وصمت المدير العام قليلا وقال: نسيتُ أن أسألك عن سبب اتصالك.

تلعثم راشد وقال: ليس هناك شيء، لا أحبُّ أن أُشغل بالك بأشياء صغيرة!

- ما دمتَ اتصلتَ فيجب أن تخبرني، لئلا تُضاعف حجم قلقي في وقت كم أنا بحاجة فيه للصفاء لكي يكون حُكمي صائبًا.

- كنت أريد أن أسألك معروفًا صغيرًا هو أن تُرتِّب لي لقاء مع (ذلك الشخص).

- أنا؟ ارتبكَ المدير العام، من أين أتتكَ فكرةٌ مجنونة كهذه؟ هل جُننتَ؟ ثم هل تعتقد أنه مستعد للاستماع إليّ؟ أعني، هل تعتقد أن باستطاعتي أن أطرُق بابه في كل لحظة؟! ثمّ ما هي مشكلتك أصلًا؟ هل هي بمستوى أن تُعرَض عليه؟

- آسف، قال له راشد، أظنّ أنني طلبتُ الرّقم الخطأ!

- لا، لم تطلب رقما خطأ، ولكنك تستهين بي، وخفض صوته قليلا، وبِهِ، حين تطلب أمرًا مباغتًا كهذا. رؤساء وجنرالات لا يستطيعون اللقاء به متى أرادوا! تواضعْ قليلا، واعتبر نفسك من هؤلاء!

- أنا لست من هؤلاء، ولكن لقائي به ضرورة تفوق ضرورة لقاء أيّ شخص منهم به. قال راشد.

- وما الذي ستقوله له؟ إذا كان هناك كلام مُهمّ، فيمكنك أن تقوله لي، ثم بعد ذلك أنقلُه بنفسي إليه.

- لكنني لا أعرف ما سأقول له بالضبط.

- لا تعرف، وتريد أن تقابله!

- سأعرف ما سأقوله بمجرد أن أقف أمامه. صدّقني، هذا ما يحدث معي دائما، ودائما أقول الكلام الذي يجب أن يقال. الكلام الذي لو صغتُه قبل اللقاء لأُسمِعه للطرف الآخر، لكان أسوأ كلام يخرج من فمي. ألم يقل لك الضابط حين أتيتُ لخطبة سلام: إنني أفضل مُرتجِل رآه في حياته؟

- راشد، أظنّ أن أفضل ما يمكن أن تفعله هو أن تكتب ما ستقوله، وترسله إليّ، وأعدكَ، سأوصله إليه دون أن أُنقِص حرفًا. نصيحتي: أغلق الخط، واكتب ما تريد، وأرسله.

.. وقبل أن يُغلق راشد الخط أو يفكر في ذلك، قطع المدير العام الاتصال، فانتشر صمتٌ عميق أصمّ أذنيه، صمتٌ يشبه ذلك الذي يلي انفجار قنبلة ضخمة في جوف إنسان!

***

جلس راشد محدّقًا في الأرض محتضنًا رأسه، رأسه الأشبه بوليد لم يُطلِق بعد صرخته الأولى، وليد كلّ صرخاته في داخله. استعاد ما يعرفه عن ذلك الشخص، وقرر أن يتحرّك.

ارتدى ملابسه على عجل، انطلق مُهرولًا، صعد إلى سيارة الإسعاف المتوقفة، أدارَ محرّكها، أشعل أضواءها، وأطلق صفارتها. التفتَ للأعلى، كانت الشرفات ممتلئة بأناس لم يتبيّن ملامحهم. كانوا يراقبونه.

وكم أدهشه أنه استخدم المصعد دون أن يخطر بباله الرَّاصد الجوِّيّ.

غادر الضاحية، ولأول مرّة ينتبه إلى أن شيئًا فيها قد تغيّر، راقب المرآتين الجانبيتين ليتأكد، فأدرك، أن أدقّ الصّور وأكثرها وضوحًا في المرايا لا يمكنها أن تريك الحقيقة.

كان ثمة ضوء قليل لا غير، وهو مندفع يشقّ صباح يوم يغمره ضباب

خفيف. وبدت سيارات الإسعاف، التي تحوّلت إلى سيارات شرطة تعمل بنشاط، قبل أن يلاحظ أن مَن فيها يديرون وجوههم إلى الجهة الثانية ما إن تُحاذي سياراتهم المُنطلقة سيارتَه!

رغم وجود دوريات كثيرة، لم يوقفه أحد، وهذا ما أثار استغرابه. كانت البوابات الإلكترونية، على طول الطريق، ترتفع أمامه كلما أصبح على بعد مسافة مائة متر منها، وكم طمأنه هذا، وإن لم يستطع إبعاد عينيه عن الكاميرات الكثيرة المعززة برشاشات موصولة بها، رشاشات تحدّق فوهاتها حيثما حدّقت العدسات بدقة متناهية، وهو إجراء أقرّه زعماء القلعة بديلًا عن قوات الدّرك المسلحة في أي حالة طارئة تحتاج إلى حسم سريع قد تؤثر في حسمها بعض العواطف البشرية لرجال الدّرك.

أفراد الدّوريات المتحفّزة على جانب الشارع، كانوا يشيرون له، طالبين منه أن يُسرع كلما أصبح على مسافة قريبة منهم! بل يستحثونه كما لو أنهم يعرفون أيّ مَهمَّة خطيرة تنتظره! لكنه لم يكن يستطيع أن يُسرع أكثر، هو الذي لا يستطيع تشغيل السائق الآلي بصورة جيدة، أو مضمونةٍ.

أما صهاريج الأبخرة الطبية، فكانت توقف إطلاق غيومها، قبل اقترابه من أحدها بمسافة طويلة.

.. وأشارت له دوريّة كان يقترب منها أن يُسرع أكثر، أسرع، وبعد لحظات، رأى أربع درّاجات نارية طائرة تنطلق وراءه. خاف. أبطأ السرعة، فتجاوزه الدرّاجون وهم يشيرون له أن يلحق بهم.

أدرك أنهم يشقّون له الطريق، أسرعَ.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى راحت السيارات تُخلي لهم الطريق. ورغم انطلاقه، لاحظَ ما لاحظه من قبل، وهو قيام السائقين بالنظر في الاتجاه الآخر ما إن يغدو بمحاذاتهم!

بعد زمن خُيِّل إليه أنه العمر كلّه، اختفت الدرّاجات، فأدرك أن عليه أن يخفّف من سرعة انطلاقه.

فعلَها.

فجأة وجد نفسه على وشك الاصطدام بباب كبير، يقف إلى جانبيه رجلان ضخمان مسلّحان.

كبح جماح السيارة، لكنه لم يسمع صوت اصطكاك عجلاتها بالشارع، أو بأي شيء!

حين توقّفت أخيرًا، لم يعرف إن كان عليه أن يفتح الباب ويترجّل، أم أن عليه أن ينتظر حتى يُعطيه المسلّحان، أو أحدهما، إشارة بذلك.

كانا يتحدّثان، وواصلا حديثهما دون أن ينظرا نحوه أبدًا.

بعد لحظات ظنَّ أنها كافية، فتح باب السيارة وترجّل، وعندها انتبه إلى أن عليه إطفاء أنوارها الدوّارة في أعلاها، على الأقل، احترامًا للمكان.

عاد وأطفأها، لكنه ترك المحرّك دائرًا.

المدهش في الأمر أن المسلَّحَين لم يلتفتا إليه حين ألقى التحية. واصلا حديثًا لم يفهم منه شيئًا.

وحين ألقى التحية مرة أخرى، انفتح الباب الضخم، ففهم أن عليه أن يدخل، فدخل.

تلفّتَ خلفه أكثر من مرّة متوقعًا أن يتبعه صراخهما:

- إلى أين أنت ذاهب؟

لم يصرخا، فواصل طريقه بحذر شديد. وبعد عشرين خطوة التفتَ خلْفه، كان الضباب قد اختفى تمامًا، لكنه لم يرَ طريقًا خلف السيارة ولا تحت عجلاتها؛ كأن يدًا عملاقة ضغطت الضباب بحيث أصبح ارتفاعه لا يزيد على شبر واحد! لكن الضباب أمامه كان لمّا يزل على حاله.

أخذ الطريق يصعد ويصعد، بين أشجار لا تشبه الواحدة منها الأخرى، وحامت طيور قرب رأسه، كل واحد منها من فصيلة مختلفة تمامًا عن الأخرى. لم يكن متأكدًا من أنه يسير في الطريق الصحيح أم لا. حاول أن يتأكد، انعطف جانبًا، فارتطم بضباب صلد، مدَّ يده، وحاول اختراقه، لم تتجاوز يده مسافة أبعد من شبر.

واصل صعوده.

انتابه حسٌّ بأنه يصعد منذ أيام، وليس منذ نصف ساعة؛ كان مُتعبًا، مدّ يده وهرش وجهه. اعتقد في البداية أن ضبابًا كثيفًا قد التصق به حين حاول تغيير طريقه. تبيّن له أن لحيته طالت، شدّها برفق ليتأكّد، كانت لحيته حقًا!

وصعد.

أحسّ بألم في قدميه، نظر صوبهما، كان حذاؤه ممزقًا تمامًا. سمع صوت السكرتيرة: اطمئن، سأتابع الأمور، لا تقلق، فأنا سعيدة أنك حدّثتني من البيت أخيرًا. استدار. كانت خلْفه كتلة هائلة من ضباب كثيف تتبعه على بعد مترين لا أكثر.

وصعد..

وفجأة، وجد نفسه أمام بابِ مبنىً ضخم، مبنىً تشبه واجِهته حبات رمان ملتصقة بعضها ببعض، وله من ورديّتها شيء كثير.

التفتَ يمنةً ويسرةً، فلاحظ وجود حراس أشداء يحملون بنادق غير متشابهة لم يرَ مثلها من قبل.

وفُتِح الباب، فخرج منه الضابط نفسه. كان في حالة ذهول تامّة بحيث لم يرَ راشد، راشد الذي فكّر في أنه قد يكون تسرَّع في القدوم، فها هو شقيق زوجته يأتي حاملًا لذلك الشخص الرسالة التي لم يكتبْها ولم يرسلها! لكن ما لفت انتباه راشد أن هناك آثارًا واضحة لعشرة ثقوب في بزته العسكرية.

زمن طويل مرّ، قبل أن يُفتح الباب ثانية ويخرج منه رجل ضخم، لم يكن صعبًا على راشد أن يدرك أنه المدير العام. كان، هو الآخر، في حالة ذهول، والثقوب العشرة في بزته أكثر وضوحًا. همسَ المدير العام وقد حاذاه: ويلكَ! إنه الشخص الوحيد الذي لا تتمنّى أن تراه.

ومرَّ زمن، قبل أن يُفتح الباب.

انتظر خروج أحد ما، متوقِّعًا أن تكون السكرتيرة هذه المرّة. لكن أحدًا لم يخرج، فأدرك أن عليه أن يدخل.

بوجل تقدّم نحو الباب، وما إن اجتازه حتى أُغلِق خلفه.

واصل تقدُّمه نحو باب آخر، فُتِحَ بمجرد وصوله إليه. كان ثمة كرسيّ في الصالة البيضاء الواسعة، ظهْره إليه، وكذلك ظهْر الرّجل الجالس عليه.

تحرّكت يدٌ كما لو أنها صوتٌ، طالبةً منه أن يبدأ الحديث.

فتح فمه، ليتكلَّم، وقد أحسّ بالكلمات تتسابق فوق لسانه، وقبل أن ينطق أوَّلها، سمع صوتًا يقول له: أظنُّ أنّ ما قلتَه يكفي! لقد أوضحتَ أكثر مما يجب! ونهض الرّجل، واستدار مُحدِّقًا في راشد.

وقف راشد متجمِّدًا، وأحسَّ بالكلمات التي لم يقلْها، الكلمات التي لامس بعضها شفتيه، ترتدُّ عائدة إلى الوراء بذعر.

كان ذلك الشخص هو راشد، بلحمه ودمه.

- كنتُ أعرف أنك ستأتي إليَّ بنفسكَ آخر الأمر، وأخرج سلاحًا لم ير راشد مثله من قبل، وأطلق عشر رصاصات عليه.

ترنّح، فأمره: لا تمُتْ هنا.

استدار راشد وخرج بالخطى البطيئة الذاهلة نفسها التي خطاها الضابط والمدير العام حين مرَّا بجانبه. وتزايدت سرعة الكلمات العائدة إلى جوفه، ومعها لسانه، وقبل أن يبتلعه ويبتلعها، شهق، فاستيقظ مذعورًا.

أولى شرارات الحرب

لقد مضى ذلك الزمان الذي كان فيه الرجال يصمدون!

قفزة الثالثة من بعد الظهر

كما في الكابوس، كان الضباب يغمر كل شيء في الخارج، الشرفة والسيارات، وملامح شارع لا تُرى بدايته ولا نهايته.

ألصق راشد وجهه بالزجاج. انتبه أنه يضغط بكل قوته عليه، أوقف الضّغط، حاول أن يُبعد وجهه عن الزجاج، لم يستطع. لكنه أدرك أن ما يحدث ليس كابوسًا بحيث يكون مضطرًّا للسير ولوح من زجاج ملتصق به.

اتصل بالسكرتيرة، أخبرها أنه لن يأتي إلى المكتب. كانت فرِحةً. أغاظه الأمر قليلًا. هل تكون فرِحةً لأنها تخلّصت منه أيضًا؟! أو تخفّفت من وجوده؟! سألها عن سبب فرحها، فقالت: لأنك أول من يتّصل بي هذا النهار. فسألها إن سأل أحد عنه، فقالت: كانت ليلة هادئة للغاية، كأن الدنيا كلّها نائمة. وطلبت منه أن يتّصل بها كل ساعة، لأنها لا تريد أن تزعجه. أخبرها ألّا تفتح المكتب لأي إنسان في غيابه، أيا كان. فسألته: حتى الضابط.

- حتى الضابط.

طمأنته أنها ستفعل.

***

كانت يدا سلام تعملان بسرعة لإعداد طعام الإفطار، أما أُذناها فكانتا تتبَّعان نصف المكالمة، أي ما يقوله زوجها. اقترب منها راشد وهمس في

أذنها: هل تعتقدين أن علينا الاتصال بالمدرسة للاطمئنان على سير الأمور قبل إرسال الأولاد إليها؟

– سننتظر في الشرفة، وإذا جاءت الحافلة لتنقلهم، فهذا يعني أن الأمور تسير بشكل طبيعي. وبهذا لن نُحرج أنفسنا بظهورنا أكثر حرصًا على أولادنا من أولاد الآخرين! قالت وهي تتأمّله محاولة التأكد أكثر من أنه راشد.

– ولكننا أكثر حرصًا، لا لأن الآخرين لا يعنوننا، بل لأن هؤلاء أولادنا.

– رغم ذلك لا يجوز، ثمَّ إن الناس يعرفون تاريخكَ...

في تلك اللحظة تأكد له بأنها لم تزل تحبّه.

وصلت الحافلة، فتبادلت سلام معه نظرة ذات معنى، ورأى ابتسامة عذبة في عينيها.

قبّلا الأولاد كالعادة، لكنه فاجأها بأن قبّل الخدود الأيامِن، تاركًا لها الخدود الأياسِر!

سارا نحو الشرفة وراقبا صعود الأولاد إلى الحافلة.

***

عادا إلى الدّاخل لتتبّع نشرة الأخبار. كان أول ما لفت انتباهه، هو تلك الصورة الصغيرة (لحضرته) في زاوية الشاشة الأثيرية، مع أن الخبر كان يتحدّث عن اكتشاف خطأ مصنعي في سيارات تويوتا الطائرة، أدّى إلى وقوع حوادث متفرقة، كان أسوأها سقوط سيارة منها فوق متحف الفن الحديث في نيويورك، ما أدى إلى اشتعال حريق أتلف جزءًا كبيرًا من مقتنيات المتحف التي لا تقدر بثمن، قبل عملية الاختيار الأخيرة لأفضل اللوحات التي سيُتّخذ القرار بشأنها لتكون الإرث الفني للبشر في المستقبل.

اختفت صورة حضرته للحظات، لكن صورة أخرى له عادت لزاوية

الشاشة. كان مبتسمًا، على ندرة الصور التي يبتسم فيها، كما يذكر راشد ذلك جيدًا.

بعد نصف ساعة أصبح راشد على يقين من أن نشرة الأخبار، بل المحطة التلفزيونية، ليست سوى ذريعة لتكرار نشْر الصّورة.

لم يفهم إن كانوا بذلك يريدون طمأنة الناس، وقطع ألسِنَةِ الشائعات قبل أن تتمدّد؟ أم يريدون من الناس أن يحفظوا ملامحه جيدًا، بحيث يستطيعون ملاحظة وجود أي شبيه؟

باغته صوت سلام المرتجف: منذ متى تحبّ متابعة نشرة الأخبار الصباحية؟

- ماذا؟

- سألتكَ: منذ متى تحبّ متابعة نشرة الأخبار الصباحية، هل أنت متأكد من أنك أنتَ؟

لم يُجب.

أقفل الجهاز، نهض، ودخل غرفة النوم.

توقّعت أن يخرج بعد لحظات، لم يخرج. تسلّلتْ على رؤوس أصابعها، نظرت صوبَ السرير، كان نائـمًا!

همست لنفسها: كأنه هو!

***

عند الثالثة ظهرًا استيقظ، نظر إلى الساعة، فوجئ أنه نام كل ذلك الوقت. بسرعة غادر السرير، دخل الحمام، غسل وجهه، خرج، وجد سلام تتابع نشرة الأخبار في التلفزيون.

- منذ متى تتابعين نشرات الأخبار في التلفزيون ظهرًا؟ سألها.

- ماذا؟

- سألتكِ، منذ متى تتابعين نشرة الأخبار في التلفزيون؟

أشارت له أن يصمت. لم تكن قادرة على إبعاد عينيها عن الشاشة التي كان باستطاعته أن يراها من الخلف.

كان ظهْرُ حضرته العريض أمامه. حاول أن يُقدّر ما إذا كان يظهر ضاحكًا في الصورة أم لا. اكتشف أنه لن يستطيع، كان كتفا حضرته غامضين!

جلس بجانبها متابعًا فيلمًا عن اكتشاف أنماط حياة جديدة لدى أحد أنواع النمل في سيبيريا يعيش ضمن عائلات صغيرة، وكيف يحاول استغلال فُرص ضعف الحراسة على أيّ بيت نمل آخر ليستولي عليه. ويتحدّث الفيلم عن بروز ظاهرة أطلق عليها اسم (أنانية النمل) وأسهب في تتبّع قوافل النمل المُشرَّد! وانتهى الفيلم بآراء عدد من العلماء الذين أجمعوا تقريبًا على أن كثيرًا من الحيوانات والحشرات باتت تقلّد البشر وعاداتهم وأخلاقهم بصورة من الصور، وأن هذا الأمر إذا ما تأكد فعلا، فإننا سنكون أمام ظاهرة جديدة فعلا، هي ظاهرة تخلّي الطبيعة عن براءتها ونظامها.

في زمن آخر كان يمكن أن يُلقي راشد محاضرة حول ظاهرة كهذه، لكنه انسلّ، دون أن تلاحظ سلام، متوجِّهًا إلى الشرفة.

كان موعد عودة أبنائه من المدرسة قد حان.

اتكأ على حديد الشرفة البارد. حاول أن يتذكّر آخر مرة انتظر فيها عودتهم من المدرسة، في الشرفة، لم يتذكّر.

كان الضباب أقلّ كثافة، ورغم العتمة، فقد استطاع أن يرى جاره ذا القميص الأحمر في شرفة شقّته على الجانب الآخر من الشارع، مع أنه لم يكن قادرًا على رؤية وجهه، ولولا أن راشد يعرف أن جيرانه لا ينشرون غسيلهم في الشرفات، كما كان الأمر في الماضي، لقال إن قميص جاره الأحمر منشور.

***

سمع صوت محرك ناعم، كمرور الضباب على صفحة بحيرة، نظر إلى الأسفل، فرأى الحافلة تتوقّف، وتطلّ ابنته الصغيرة أولا. وما إن بلغت

الدّرجة السفلى للحافلة، حتى توقّفت وصاحت بفرح: بابا! لكن ما أرعبه أنها لم تكن تنظر إليه! قفزتْ وقطعتْ نصفَ الرصيف العريض راكضة، وتحت الضوء الشاحب لإضاءة الشارع استطاع أن يرى الرَّاصد الجوِّيّ الذي تلقّفها حين طارت في الهواء نحوه، وقبّلها على خدها الأيسر، في تلك اللحظة الحارة، نظرت سلام الصغيرة إلى الأعلى لسبب لم تفهمه، فرأت والدها يحدِّق مذهولًا فيما يراه.

***

لم ينتظر راشد المصعد، هبط متقافزًا فوق الدرج مثل شخصية في لعبة إلكترونية، قبل أن تنهض سلام من على الأريكة متسائلة برعب: ماذا حدث؟

بعد عشر ثوان لا أكثر، كان راشد بباب العمارة. لم يكن هناك أي أثر للرّاصد الجوِّيّ، صرخ في وجوه الأولاد الذين فوجئوا بأنه ليس في العمل: أين هو؟

فأجاب ثلاثة منهم بصوت واحد: مَن؟

أما الصغيرة التي قفزتْ إلى أحضان الرّاصد فقد بدت فاقدة للسانها، وحين فتحت فمها راحت موجة سعال تهز جسدها الضئيل بعنف.

- مَن؟! صرخ في وجوههم، الرَّاصد الجوِّيّ .

- لم نره منذ أكثر من أسبوع.

وواصلت الصغيرة سعالها، دون أن ينتبه راشد، فانتقلت عدواه إلى راشد الصغير.

- ومن هو إذًا ذلك الذي قفزتْ أختكم وعانقته؟!

- أختنا لم تعانق أحدًا، قال راشد الصغير، ودموعه تنهمر من عينيه بفعل السعال والخوف ورائحة العفونة التي انتشرت فجأة، كما لو أنها كانت نائمة وأيقظها سعالها.

- بل عانقتْه، وقد رأيتُها بعينَي.

- أجل عانقته، لقد رأيتُ ذلك أيضًا، قال الرّجل ذو القميص الأحمر بصوت مرتفع على حافة الشرفة.

التفتَ راشد إلى الأعلى فرأى قميصه، لكنه لم ير وجهه، ثم ارتفع ذراع القميص مشيرًا إلى الناحية اليمنى للشارع. نظر راشد، فلم يرَ شيئًا.

- إن كنتَ مُصرًّا على أن تقتله، فليبدُ الأمر كما لو أنه دفاع عن النفس. بهذه الطريقة فقط سنشهدُ معك، قال الرجل ذو القميص الأحمر الذي لا يُرى وجهه.

وهبّت قادمة من مائة شرفة على الأقل جملة: وسنشهدُ معك.

امتدتْ يدُ راشد إلى رأس الصغيرة التي عانقت الرّاصد، وقد سمع سعالها أخيرا، وداعب شعرها محاولًا تهدئتها: لا تخشَي شيئًا. وقبل أن يصلوا إلى باب المصعد، انسلَّتْ من يد أبيها وأمسكتْ بيد راشد الصغير فاتحد سعالهما مزلزلا صدريهما.

لم يحاول راشد التقرُّب منها ثانية.

في المصعد، فكر أن إفلات الرَّاصد الجوِّيّ كان أفضل ما حدث له خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، إذ لم يكن من اللائق أن يرتكب جريمة أمام أنظار صغاره، هو الذي لم يعرف بعد ما ستؤول إليه الأمور في قضية مقتل السائق.

***

حين انطفأت عاصفة السعال، سأل راشد ابنته الصغيرة:

- منذ متى تخلطين بيني وبين الرَّاصد الجوِّيّ؟ وشجّعها مضيفًا: كل الناس ترتكب هذا الخطأ هذه الأيام، فلا تخافي.

- هذه هي المرّة الثانية فقط، قالت الصغيرة.

- ماذا؟ هل يمكن أن ترتكب ابنةٌ مثل هذا الخطأ؟! صرختْ سلام في وجهها، فالتفتَ راشد إلى زوجته، وقال بهدوء أذهلها: البنت صغيرة يا سلام!

- أنتَ الذي تقول ذلك؟ كأنكَ لست أباها! ومثل زنبرك مضغوط انتفضت، وانقضت على ابنتها، وقبل أن يدرك الأولاد وراشد ما يدور، كانت سلام قد أطبقت على عنقها بيدين مجنونتين وهي تصيح: كيف ترتكبين خطأ كهذا، ألا تعرفين أباكِ؟!

بصعوبة استطاع راشد والأولاد إطلاق سراح الصغيرة، الصغيرة التي التصقت بالحائط تبكي بلا دموع، وعلى رقبتها آثار يدين قاتلتين.

ذاهلة، جلست سلام على الأرض بشعر مبعثر وعينين ضائعتين. اقترب منها راشد بلطف:

- تعرفين أنني ارتكبتُ خطأ أكبر من خطئها ذات يوم. قال وهو يمسّد شعرها.

وسألت سلام الصغيرة التي أنستْها حالة أمها رعبها: أي خطأ ذلك الذي ارتكبتَه يا أبي؟

- هذا أمرٌ بيني وبين والدتك، ولأنها سامحتْني، فقد نسينا كل شيء.

- وهل ستسامحُ أختنا؟ أم أنك لا تريد أن تنسى ما حصل؟ سأل راشد الصغير.

- لقد سامحتُها، ولكنني لم أسامحكم لأنكم كذَّبتُم عينَي. قال راشد.

- لم نكن نريدك أن ترتكب جريمة فلا يبقى هنا غير هذا الذي يشبهك، وقد يدفعنا حنيننا إلى رؤيتك لأن نعتقد، رغمًا عنّا، أنه أنت، فنعانقه كلّما ذهبنا إلى المدرسة وكلّما عُدْنا منها!

- هل تسمعين ما يقوله أولادكِ؟ سأل راشد زوجته.

- لقد كان عليك أن تقتَله. على الأقل، نكون على يقين بأنه ليس أنتَ! همستْ سلام.

- ما الذي يحدث في هذه العائلة؟

- ماذا قالت لكَ؟ سألت الصغيرة.

لم يُجب.

صمتوا. وقفتْ سلام، أمسكتْ راشد من يده، وابتعدتْ به. أغلقتْ باب الصالون، وهمستْ في أذنه: ما رأيك أن أقتله أنا؟! أظن أن هذا أفضل من أن أُغضبكَ وأقتُلَ السكرتيرة، أليس كذلك؟!

وأشهرت المسدس بحركة مجنونة، بعد أن أخرجتْه من مكان ما في ثيابها.

- إنه مسدسي، أعطني إياه.

- بل مسدس أخي، وأعادته بسرعة خاطفة للمكان الذي أخرجته منه، المكان الذي لم يستطع راشد تحديده.

احتفالات عيد الميلاد

- أنت غاضب، والغاضب مثل القنبلة، لا يمكن أن نعرف متى ستنفجر، قالت سلام لراشد وهي تحاول استعادة نفسها بالظهور بشكل طبيعي. وأضافت: أفضل شيء تفعله هو أن تذهب إلى عملك. صحيح أن الوضع صعب، ولكن ذلك أفضل لك ولنا. وكانت تتابع برنامجًا عن آخر اكتشافات الشّبه المذهلة بين الإنسان والقرود، من خلال اكتشافهم لخارطة جينية قريبة من تلك المعروفة، والتي باتت قديمة، وقد أطلق عليها الدكتور اليخاندرو ماني، مكتشفها، اسم: الخارطة الموازية.

- وكيف يمكن أن أذهب؟

- ألم تحضر بسيارة الإسعاف، يمكنكَ أن تعود بها. ثم إن اليوم هو عيد ميلادك، هل نسيتَ؟ كل عام وأنت بخير؟ بل: سنه حلوة يا جميل. وبما أننا بحاجة لكعكة كبيرة للاحتفال بك، ولا نستطيع شراءها من هنا، فيمكنكَ أن تُحضرها مساء من وسط المدينة.

فكّر راشد قليلا، فتوصّل إلى أن الأخطار التي تنتظره في الخارج، أقلّ من تلك المُطبقة عليه هنا في البيت، فهو فعلا يكاد ينفجر، فقد تخيّل نفسه يقفز فوق الرَّاصد الجوِّيّ من الشرفة ليسحقه قبل وصوله لباب العمارة، فباب المصعد، والنجاة مرّة أخرى.

أخذ نفسًا عميقًا، وقال لها: هل يلزمكم شيء آخر غير الكعكة؟ فتأكّدت سلام أنه بقوله هذا قد عاد إلى طبيعته.

- عودتك سالمًا، هذا كلّ ما نريد.

على عجل ارتدى ملابسه وخرج. كان لمّا يزل فيه أمل قاتل في العثور على الرَّاصد الجوِّيّ عائدًا إلى البيت.

وما إن أغلق الباب حتى أخرجت سلام المسدس من مكان ما، خفيّ، من بين ثيابها. وأطلقت عشر رصاصات بصورة وهمية، وهي تردّد: طاخ.. طاخ.. طاخ....

ابتسمت.

توقّف راشد دقائق على الرصيف ينظر في كلا الجانبين، فجاءه الصوت من الجهة المقابلة:

- لو رأيتُه قادمًا لصرختُ لكي أُنبّهكَ، لقد اختفى كالفأر ذلك الجبان، قال الرجل الضخم ذو القميص الأحمر.

أشار له راشد محييًا، فرأى ذراع قميصه يرد التحية.

مضى يشقّ الضباب نحو سيارة الإسعاف.

***

بدت الشوارع أكثر حيوية، فقد استغلّ الناس ساعات رفع حظر التجوال، كما يحدث في كل مكان، وانطلقوا باحثين عن الأشياء الضرورية، وغير الضرورية، التي تلزمهم عاجلا أو آجلا.

قاد السيارة..

حين وصل باب الشارع الذي ينعطف باتجاه بيت السائق القتيل، قرر أن ينعطف صوبه. هذا أفضل دفاع عن نفسه يمكن أن يقدّمه. فما دام سيدّعي أنه أوصله، فإن عليه أن يمرّ به، ليمضيا معًا إلى العمل!

أوقف السيارة أمام المبنى الذي يسكنه السائق، واتّصل به، كان على يقين من أن أحدًا لن يجيب، وحين سيتحرّك، سيكون لديه عذر بأنه انتظر كثيرًا، وفي النهاية مضى، لأن وراءه عملًا.

المفاجأة التي لم يتوقّعها، أن صوتا خرج عليه من الطرف الآخر مهدِّدًا: يبدو أنكَ لم تُقدِّر فرصة النجاة التي مُنحتْ لك!

أغلق الهاتف بسرعة.

تلفّت حوله بذعر، كانت عدة كاميرات مراقبة تحدّق فيه، وعدةُ رشاشات تعمل تلك الكاميرات كعيون لها.

بعد خمس دقائق، وجد أن ذلك يكفي كحجة قوية لتبرئته من أي تهمة..

تحرَّك.

***

قبل وصوله إلى باب المدينة، لاحظ في المرآة سيارة تُشعل أضواءها العالية وتُطفئها، فتوقّع أنه المقصود، وأن سائقها يريد أن يحذّره من خلل ما في السيارة. أبطأ سرعته، فتجاوزته السيارة مسرعة، لكن ذلك لم يمنعْه، ولا الضباب، من أن يلاحظ أنها كسيارته تمامًا.

واصل بالسرعة نفسها، فلاحظ راشد أن سائق السيارة خفّف من سرعة انطلاقه. حاذاه، نظر صوب السائق، لم يره جيدًا. كان الزّجاج المجاور للسائق مغطى ببخار كثيف. لم يستطع راشد أن يُبعد عينيه عن ذلك الزجاج الغامض، وقبل أن يعاود ذلك السائق انطلاقه ثانية، انخفض الزّجاج المضبَّب، ولوّحتْ يدٌ في البداية، ثم ظهَر وجهٌ، لم يكن سوى وجه شبيهه الرَّاصد الجوِّيّ! وانطلقت السيارة كالقذيفة مبتعدة، وفوقها يدٌ ملوِّحة كراية، وصوت لا يسمعه سوى راشد يتردد: تأكّد أنك لن تنال منّي أبدًا!

واصل راشد، وهو يحاول إعادة رسم المشهد منذ مغادرته للبيت. لقد كانت سيارة الرَّاصد الجوِّيّ هناك، ويبدو أنه لم يتحرّك، إلا بعد أن رآني أغادر الحارة بسيارة الإسعاف. كنت أعتقد أنني أراقبه، فإذا به يراقبني!

***

فتحتْ السكرتيرة الباب بسرعة وأغلقتْه بسرعة، فوجئ بباقات الورد التي تملأ المكتب. كان الأمر بمثابة معجزة: كل تلك الزهور في مكان واحد؟!

.. وهبّ إعصارهما فتأكد لراشد أن فيها شيئًا غريبًا جاذبًا لم يوجد يومًا في زوجته. تطايرت بتلات الزهور محوِّمة بين جدران الغرفة كالفَراش، وارتفعت الطاولة التي وجد نفسه ملقىً عليها، معها، عشرين سنتمترًا على الأقل، ماجت كأن نهرًا يحملها، ومرَّ الوقت سريعًا كما لا يمرُّ سريعًا في أي عمل يمكن أن يقوم به الإنسان، وحين هدأ كلّ شيء، كانت ستُّ ساعات قد مرّت!

قفز بسرعة، وقال:

- بعد ساعة ستنتهي الفترة المسائية للتجوال.

ارتدى ملابسه على عجل، وقبل أن يخرج، سألته السكرتيرة:

- كنت أريد أن أسألك عن السائق الذي أوصلكَ أمس، هل أوصلك اليوم إلى المستشفى؟

- كنتُ أريد أن أسألكِ عنه، لولا أنكِ سبقتني. لقد نزل أمس بباب بيته كما أخبرتكِ، وقدتُ السيارة بنفسي عائدًا إلى بيتي لأنني خشيتُ عليه طريق العودة. قلت: على الأقل أستطيع أنا أن أتصرّف في أيّ موقف صعب مفاجئ، عكسه، وحين عدتُ اليوم ووقفت بباب بيته، واتصلتُ به، فتح الخطّ للحظات ثم أغلقه، وبعد خمس دقائق كان عليّ أن أتحرّك. تعرفين لا أستطيع انتظاره للأبد في وقت حرج كهذا. ولكن لماذا تسألين؟

- زوجته اتّصلت بالمستشفى أكثر من مرّة، وكان عليّ أن أتحدّث معها أخيرًا. إنها قلقة عليه.

- ولكنني متأكد من أنه فتح الخطّ.

- وهل سمعتَ صوته؟

- في الحقيقة لم أسمعْه.

- شيء محيّر فعلًا. إذا اتصلَتْ، سأقول لها إنكَ أوصلته أمس، وانتظرته اليوم، وإن عليها أن تتصرف لمتابعة الأمر. ما رأيكَ بهذا؟

- هذا معقول، معقول تمامًا، وأخبري الجميع ألّا يتوانوا عن تقديم أي خدمة لها، وهذا ما سأفعله بنفسي.

كان قد وصل إلى الباب في طريقه للخارج حين تلقّى اتصالا من المدير العام، يطلب فيه حلًّا لمسألة ازدياد عدد (المرضى) في مشروع (أسرى الأمل 2)، بعد أن بلغت طاقة استيعاب (المستشفى) أقصاها. فأشار عليه راشد أن يكثّفوا اتصالاتهم بأهل (المرضى) وأن يخفّضوا نفقات (العلاج) ليتمكن الناس من إخراج مرضاهم بسرعة أكبر.

- كأنك تقول لي إن علينا أن نمنحهم حوافز! يهيأ لي أن كثيرين منهم وجدوا في مشروعنا فرصة للتخلّص من آبائهم وأخوتهم وحتى أمهاتهم!

- أنتَ تعرف حضرتك، الظَّرف صعب، ولا يتسنى للجميع إحضار أجور العلاج نقدًا ما دام المستشفى لا يستطيع القبول بأي معاملات إلكترونية.

- سأنظر في الأمر، مع أنك تعرف أننا منذ البداية راعينا الوضع الاقتصادي الرّديء الذي تعيشه البلد.

- فلنضغط على أنفسنا أكثر، فهذا لمصلحة الجميع.

وقبل أن يُنهي المدير العام المكالمة، قال له:

- نسيتُ أن أهنئك بعيد ميلادك. كل عام وأنت بخير، أعدكَ سنحتفلُ به بطريقة غير عادية.

كعكة عيد الميلاد

رغم كلّ الكلام الجميل عن الانجازات التي تحقّقت والنجاح الكبير، رفض راشد الذّهاب لزيارة مشروع (أسرى الأمل 2)، وإن كان عدد المرات التي التقى فيها بعض الأسرى في مكان آخر بعيدًا عن هذا (المستشفى) قد ارتفع ليصبح ستًّا.

المدير العام قال له أكثر من مرّة: يا راشد، عليك أن ترى حلمكَ! وكان راشد يجيب: أعذروني، فهناك بعض الذّكريات التي لم أشف منها تمامًا؟ ولم يكن لاعتذاره سوى هدف واحد، أن يجعل المدير العام يحسّ بالذّنب، لكي لا يفكّروا بأي إجراء ضده مهما فعل.

أصحاب المشاريع لا يملّون أبدًا، ولا يكتفون، فهم مصابون بحُمّى الجراد، وهذا هو الاسم الذي أطلقه راشد على حالتهم. صحيح أنه نفسه أصيب بهذه الحُمّى لفترة، حتى أن أحد خصومه وصف جسر أسرى الأمل بأنه أشبه ما يكون بجسور تجارة العبيد القديمة، ولكن راشد بدا زاهدًا وهو يمنح خيرة أفكاره لسواه، سواء في مجال الرّبح أو في أي مجال إنساني آخر، ثم إنه كان يوضح لنفسه بين حين وحين، ما كان يصبح غامضًا عليها: لو تركنا هؤلاء المرضى في بلادهم هناك لماتوا بسبب تدنّي مستويات العلاج.

***

قبل أن ينتبه، وجد راشد نفسه أمام محلّ بيع كعك الاحتفالات وأعياد الميلاد يبتلع ريقه وهو يحدّق إلى قالب مغطىً بالفراولة، رغم عدم معرفته ما إذا كانت فراولة حقيقية أم بلاستيكية.

اكتشف أنه جائع، وهذه ظاهرة تتكرّر دائمًا معه بعد كلِّ إعصار!

في طريقه لمحل بيع الكعك، كانت أصوات جهنميَّة غامضة تأتي من الضواحي البعيدة، وسيارات الإسعاف التي تحوّلت إلى سيارات شرطة تمرّ من أمام المستشفى مسرعة، كما لو أن من تحملهم بحاجة ماسة إلى غرف العمليات!

لم يكن صعبًا عليه أن يلاحظ أن العاملين في المحلّ يتحرّكون بسرعة، مسابِقين الوقت لإنجاز أعمالهم قبل بدء حظر التّجوال. أشار إلى كعكة الفراولة، فطار البائع نحوها، أحضرها. دفع راشد ثمنها بأن ألصق رسغه بآلة اقتطعت الثمن، فناوله البائع الكعكة.

سار راشد عدة خطوات، توقّفت سيارة بلون سيارته بجانبه، فتح السائق الباب بسرعة، مُغلِقا الطريق على راشد، وترجّل من السيارة.

كان الرَّاصد الجوِّيّ .

- أنت؟! صرخ راشد في وجهه، كيف تجرؤ على مواجهتي؟ كيف؟

- أعطني قالب الحلوى. قال الرَّاصد الجوِّيّ ، لقد وعدتهم في البيت أنني سأحضر الحلوى معي بمناسبة عيد ميلادك!

- وما دخلكَ أنت؟

- ليس من اللائق أن يكون العيد عيدكَ وأنت الذي تُحضر قالب الحلوى. هذا عيب. كان على زوجتك أن تفهَم هذا.

في تلك اللحظة، لم يتمالك راشد أعصابه، فانقضّ على الرَّاصد الجوِّيّ الذي صاح مستنجدًا: سيقتلني، شبيهي سيقتلني!

بسرعة تقدّم رجلا أمن، أحاطا براشد.

- لقد سرق الكعكة مني أيضًا. قال الرَّاصد الجوِّيّ .

- ناولْه الكعكة. أمرَه أحد رجُلَي الأمن.

- ولكنها لي.

- قلنا لك ناولْه الكعكة.

وقبل أن يُتِمَّ جملته، ألقى راشد بها بقوّة على الأرض: تريدها؟ خذها. قال للرّاصد الجوّي.

بسرعة خاطفة وضع أحد رجُلَي الأمن القيدَ في يد راشد اليمنى، سحبها إلى خلف ظهره بمهارة، وأمسك باليسرى وقيّده.

- شبيهُهُ وفهمنا هذا! ولكن كيف يصل بك الغباء لتتشاجر معه أمام أعيننا، ومن أجل ماذا؟ كعكة؟!

***

مسافة كبيرة قطعتْها السيارة التي حشروا راشد فيها، قبل أن تنحرف عن الشارع المعبّد وتصعد مرتفعات وتهبطها. لم يشُكّ راشد لحظة في أنهم يأخذونه إلى (أسرى الأمل 2)، فجلس هادئًا يراقب سيارات الإسعاف التي تتجاوزهم بجنون، واثقًا من أن كل شيء سينتهي كما يريد، ما إن يصلوا إلى هناك.

كانت ساحة المبنى محتشدة بالحركة والأوامر الصارمة والشتائم التي تنصبّ على رؤوس أسرى الأمل، أما المشهد فهو أشبه بيوم الحشر.

أكبر بكثير مما تخيّلها راشد، كانت واجهة المبنى، وأكثر حداثة من أي مبنى رآه من قبل، تحفة عمرانية كان للعلم اليد العُظمى في تدشينها، تنبعث من كُوّات صغيرة فيها أضواء خافتة، لا تبدِّد الضباب والعتمة بقدر ما تمنحها غموضًا قاتلًا.

بمجرد أن وطأت قدماه التراب، ابتعد كلّ من هناك عن طريقه، وفُتح أمامه ممرّ واسع جنّبه الاصطدام بأي أسير، كما لو أنه الرجل القويّ في المشروع. ألقى نظرة سريعة على الوجوه، كان الكثير منها متشابهًا إلى حدّ مخيف، كما لو أن الوجوه الحقيقية على يساره والمرايا التي تعكس ملامحهم على يمينه.

صعد درجات المبنى كقائد يحفّ به حارساه. لكن ذلك لم يدُم سوى لحظات. ضربه أحد رجلَي الأمن على ظهره طالبًا منه أن يتمهّل، تعثَّر، لكنه لم يسقط.

- إذا سمحتَ، لا تلمسه، إذا فعلتَها مرة أخرى سأكون مضطرًّا لإطلاق النار عليك! قال أحد رجُلَي الأمن للآخر وقد لبس قناع الرجل الطيب.

التفتَ رجل الأمن الشرير بغضب إلى زميله، مبديًا عدم رضاه عما سمع.

أشرع بابٌ ضخم قبل خطوة من وصولهم إلى عتبته، فدخلوا. فوجئ راشد بالدرج ينحدر مباشرة بعد عتبة الباب، تعثَّر ثانية، وكاد يسقط على وجهه، لولا أن رجل الأمن الطيب أمسكَ به في اللحظة المناسبة:

- هذا يحدث مع كلّ من يدخل المبنى للمرّة الأولى. عليك أن تنتبه إذا ما جئت إلى هنا ثانية، فقد لا أكون خلفكَ لأُمسكَ بك.

- ماذا تقول؟! صرخ رجل الأمن الشرير، أنتَ تمنحه الأمل قبل أن يعرف معناه.

- عليك أن تصمت، وإلّا سأكون مضطرًّا لإطلاق النار عليك.

هبطوا ستين درجة على الأقل قبل أن يصلوا لأرضية مستوية، لم تكن سوى ممرٍّ طويل محاط بالزنازين.

- هل قامت الحرب؟ سأل أحد الأسرى.

- هل انتهت الحرب؟ سأل آخر.

- هل سقط الدكتاتور؟ سأل آخر.

- أغلق فمكَ أيها الكلب. صرخ رجل الأمن الشرير.

- دعْهُ يقول ما في قلبه، نحن أناس ديمقراطيون. وإياك أن تُهين أسيرًا ثانية، سأكون مضطرًّا لإطلاق النار عليك.

فتح الشرير باب زنزانة، فتململ في إحدى زواياها كائن ضخم متعب، تبين أنه كلب مريض.

- يمكنكَ أن تستريح الآن حتى ننظر في قضيتك. قال الطيب لراشد.
- عليك أن تذهب فورًا وتخبر الضابط أنني هنا؟
- إنه يتغابى، هل سمعتَ؟ إنه يتغابى، قال الشرير.
- هل أنت بحاجة لشيء ما؟ أرجوك، قل الآن، فقد يمرّ شهر أو شهران قبل أن نراك ثانية. قال الطّيب.
- أريد أن أتصل بزوجتي لأطمئنها وأطمئن الأولاد.
- تطمئنهم على ماذا؟ تطمئنهم أنك لن تخرج من هنا أبدًا؟ صرخ الشرير.
- قلت لك لا تواصل انتهاك حقوق المتّهم، أنت ستدمر بنيته النفسية إذا لم تتوقّف شرورك هذه، وعندها لن نجد فيه عقلًا كي نحاكمه؛ سنكون مضطرين عندها لإطلاق سراحه، أو لإطلاق النار عليه، وهكذا لا يكون قد أفادَ من سجنه وتعلّم، ولا نكون نحن قد مارسنا دوْرنا بإصدار حكم عليه بتجريمه أو بتبرئته. قال رجل الأمن الطيب، وأضاف موجِّها كلامه لراشد: مرة أخرى، أرجوك أن تتذكر، إن كنت بحاجة لأي شي.
- لا أريد شيئًا!
أَقفلا باب الزنزانة:
-على أي حال، أرجو لك إقامة مريحة في الزنزانة!
- مع هذا الحيوان. أكمل الشرير أُمنية الطيب وهو يشير إلى الكلب الذي يحدّق إليهم.
- عليك أن تشكرنا لأننا لم نحبسك مع أولئك الوحوش، قال رجل الأمن الطيب وهو يشير إلى من في الزنازين، وابتعد خارجًا يتبعه الشرير.
- هل قامت الحرب؟ سأل أحد الأسرى.
- هل انتهت الحرب؟ سأل آخر.
- هل سقط الدكتاتور؟ سأل آخر.
- أغلق فمك أيها الكلب. صرخ رجل الأمن الشرير.

***

- كيف تمّت الأمور. سأل الضابطُ، شقيقُ سلام، رجُلَي الأمن.
- بمنتهى الدّقة. قال الطيب.
- ألم يكن علينا أن نضربه قليلا؟ سأل الرجل الشرير.
- لا، لا أظن أن الضرب لائق في مثل هذا المكان، ولا في مثل حالته.

هل سألتماه عما يريد؟ سأل الضابط.

- يريد أن يكلِّم زوجته، ويكلّمكَ، أجاب الطيب.
- ما رأيك أن نُحضرها له؟ قال الرجل الشرير.
- إذا أعدتَ هذا السؤال ثانية سأضعكَ مكانه. قال الضابط بغضب.

***

رفس راشد الكلب ليبتعد عن الفِراش الوحيد الموجود في الزنزانة.

كشَّر الكلب عن أنيابه، وتقدّم خطوتين نحوه.

تراجع راشد نحو الحائط المقابل وجلس على الأرض، دون أن يرفع عينيه عن الكلب.

بداية جيدة لشخص مبتدئ

رغم حداثة المكان فوجئ راشد بحال الحيطان؛ كانت تبدو عتيقة كما لو أن ثلاثين عامًا مرّت على بنائها، عفنة. وكما في كلّ سجن، بدت الخطوط المحفورة في الجدران مرهقة، بعضها يشير إلى الأيام، وبعضها إلى أسماء المساجين، أو مقاطع من قصائد وأقوال مأثورة، ورسوم لطيور محلِّقة وأشجار؛ ولفت انتباهه تلك الجملة الغريبة: ستدخل شخصًا واحدًا وتخرج عشرينًا، فقُل سلامًا على القيد الذي جمّعك والخارج الذي عدّدك، فحاذر أن تغيبَ عن بال نفسك!

همس راشد لنفسه: تتغيّر السجون ولا يتغيّر السجناء.

نظر إلى ساعته: 6:30 ، وحمد الله لأن رجلَي الشرطة لم يحتفظا بها.

***

نظر الضابط إلى ساعته: 8:30.

نهض، سار باتجاه الباب، هبط درجات القبو المعتم، وقبل أن يصل فُتح بابُ القبو.

وصل الممرّ، فغطى أنفه براحة يده.

- حيوانات فعلًا.

توقّف قليلا. لم يعرف إن كان عليه أن يقطع الممرّ بسرعة أم ببطء كي يهرب من الرائحة. تذكّر أنها ستكون في انتظاره حيثما وضع قدمه.

بمجرّد أن قطع الخطوة الأولى، تعالت الأصوات فجأة:

- هل قامت الحرب؟ سأل أحد الأسرى.
- هل انتهت الحرب؟ سأل آخر.
- هل سقط الدكتاتور؟ سأل آخر.
- أغلقْ فمك أيها الكلب. صرخ رجل أمن من زاوية معتمة ما.

***

نقر الضابط على حديد باب الزنزانة التي وُضِع فيها راشد.

التفت راشد، ولكنه لم يستطع رؤية وجه الضابط بوضوح.

- تعال هنا. قال الضابط.

نهض راشد، وتقدّم نحوه.

ومع كل خطوة كان يخطوها كانت تعابير وجه راشد تتغير تدريجيًا بحيث وجد نفسه غارقًا في موجة ضحك.

- أخيرًا، أنت؟! قال راشد.

- نعم أنا. تكلّم باحترام!

فوجئ راشد بتلك النياشين والأوسمة التي تُغطي صدر الضابط وكتفيه.

- ماذا؟

- قلتُ لك تكلّم باحترام.

- ولكنك شقيق زوجتي؟

- أنت تعرف بأن زوج شقيقتي في المنزل، أما هنا فلا يوجد سوى مجرم شبيه.

- أنت تمزح!

- هذه آخر مرّة أحذِّرك فيها. كن أسيرًا محترمًا كما ينبغي للأسير أن يكون!

- إذا كنت تريد الأمر كذلك، فاسمح لي أن أقول لك: أرجو المعذرة!

- سأسامحكَ هذه المرّة! قل لي: هل أحببتَ غرفتك!. أظنها أفضل

غرفة من بين هذه الغرف التي هنا، ولعلمكَ هناك غرف أسوأ من السيئة بكثير.

- أسوأ من هذه؟ ومع هذا الكلب؟!

- أجل، هذه يمكن أن تدعوها غرف النّعيم؛ تحت، غرف الجحيم، ثم إن الذي دعوته كلبًا ليس سوى شبيه مثلك!

- ماذا؟

- لقد سمعتَني.

التفتَ راشد إلى الكلب، كان الكلب يتوعّده بنظرات ناريّة وأنياب حادة كبيرة بشعة.

- هل تسمح لي بسؤال؟

- سؤال واحد لا غير. تذكّر سؤال واحد، وإذا أخطأت سآمر أن يأخذوك إلى هناك. قال الضابط وهو يشير إلى أسفل ويده تتحرّك بسرعة كحفّارة.

- لن أسأل إذًا، لن أُزعج حضرتك!

- بل ستزعج حضرتي رغما عنكَ، هذا أفضل من أن تكذب عليّ وتحتفظ بسؤال شيطاني في صدرك.

- حاضر، حاضر، ما دمتَ تريد أن تلعب هذه اللعبة!

- أُحذركَ للمرة الأخيرة، نحن لا نلعب هنا. قال الضابط.

- ألم تكن حضرتك ضابطًا صغيرًا قبل أيام؟

- هذا هو السؤال الغبيّ الذي كنت أخشى أن تسأله! ألا تعرف أننا وصلنا إلى ذلك الزمن الذي أصبح فيه مستوى ذكاء الإنسان يقاس بمدى قدرته على طرح أسئلة عميقة، لا استنادًا إلى قدرته على تلفيق إجابات؟ شخص كراشد، لا يمكن أن يطرح سؤالك هذا. صرخ الضابط: أنزلوه إلى الأسفل.

بسرعة ظهر رجُلا الأمن، الطيب والشرير، فجأة.

أشرعا باب الزنزانة، أعادا تقييده، ودفعاه أمامهما نحو الجحيم.

- حسنا، قال راشد بسخرية، اعتبرْ أنني لم أسألْكَ السؤال.

- ولكنك سألته يا... صرخ رجل الأمن الشرير، وقطع الجملة بأن نظر إلى الضابط ليرى ردّة فعله، فطالعه شرر منبعث من عينيه.

- ألم أقل لك: كفى؟ همس رجل الأمن الطيب من بين أسنانه.

- ما الذي يحدث فعلا؟! سأل راشد رجل الأمن الطيب هامسًا.

- بعد قليل سترى كل شيء بأمّ عينيك.

فُتحت أبواب القبو السفلي، هبّت رائحة بشعة، جعلت الضابط يتراجع خطوات ويعقد منديلا على أنفه وفمه.

- أحضرا أفضل أدوات التعذيب لدينا، وانصرفا.

- أظن أن هذا يكفي، صرخ راشد، نحن...، ولم يُكمل.

- بسرعة، صرخ الضابط.

اختفى الرجلان، وحين ظهرا ثانية كانا يحملان أدوات كثيرة: عصيًّا وأسلاكًا كهربائية، كمّاشات، مطارق...

- انصرفا الآن، السجين ضيف عزيز، سأقوم بكل مستلزمات ضيافته بنفسي.

خرجا.

- هل نُقفل البوابة؟ قالا بعد أن تجاوزاها.

- لا، فالأسرى موثَقُون، أليس كذلك؟ فليُشعل أحدكما الضوء.

شعَّ المكان، فظهر على بعد أمتار قليلة عشرات السجناء الذي كانوا في الزوايا المعتمة معلّقين بالأصفاد.

- تفضّل، قال الضابط لراشد وألقى أمامه سوطًا. أضربهم، أم أنك تفضل استخدام الأجهزة الإلكترونية التي تستطيع من خلالها التحكّم في مراكز الألم كما تريد.

تراجع راشد خطوتين:

- ما الذي تريده مني؟!

- المساعدة. قبل قليل أوشكتَ أن تكذب وتقول: ولكنك كنت نسيبي أو صديقي. ولم تكمل، أليس كذلك؟ أم لم تكن تريد قول هذا؟!

صمت راشد.

- هل تُفضِّل أن أضعك مكان واحد منهم، وأستخدم معك ما لا تتخيله من أساليبنا الجديدة؟

نظر راشد إلى الرجال المعلّقين، وجوه بعضهم للحائط، ووجوه بعضهم مقلوبة للأسفل.

- لستُ مضطرًّا لتكرار ما قلته، إما أن تبدأ عملك الآن، وإما أن أدعو الرجلين اللذين خرجا لرفعك مكبّلا إلى السقف.

نظر راشد إلى السوط.

- أنت تعني ما تقوله!

تجاهل الضابط ما قاله راشد:

- إن أحسنت استخدام هذا السوط، أعدك أنني سأسمح لك باستخدام المطرقة، أو حتى التيار الكهربائي، بل الأجهزة الإلكترونية، ولكن عليك عندها أن تكون حذرًا. وهناك شيء مهم عليك أن تتذكّره، هؤلاء هم الذين لم يتمكّن المدير العام من حسم قضاياهم قديمًا، فلا تُغضبه.

إحساس راشد بأن الضابط يعني ما يقول، جمّده مكانه.

- هيا افعلها، لا تخيّب ظنّي فيك وفي صداقتك. سأمنحك نصف ساعة لاستعمال السوط، عشر دقائق لاستخدام المطرقة، خمس دقائق لاستخدام الكهرباء، ثم نتدرج بعد ذلك صعودًا لما هو أعظم.

قال راشد:

- لن أضربهم، مهما فعلتَ.

- بل ستضربهم، وستكون سعيدًا لأنني سمحتُ لك بذلك.

- إياكَ أن تفعلها يا راشد، صرخ أكثر من أسير.

ألقى راشد السوط، وقبل أن يلمس الأرض، ضغط الضابط على مفتاح ضوء فظهر أحد الوجوه تحت كشاف صغير واضحًا.

كان شبيهًا لراشد.

- أعرف أنك عنيد، ولكن ماذا ستقول الآن وقد رأيت بنفسك هذا الوجه؟!

عاصفة غضب اجتاحت راشد، انحنى وأمسك بالسوط.

نظر الضابط إلى ساعته وقال: فلنبدأ.

- أهو الرَّاصد الجوِّيّ ؟! سأل راشد.

هزّ الضابط رأسه، مؤكّدًا، وأضاف: الذي أفسد عيد ميلادك!

تقدّم راشد، وضرب شبيهه. ومع أن الضربة كانت ضعيفة للغاية، إلا أن الضابط قال مشجِّعًا:

- بداية جيدة لشخص مبتدئ. أترى؟ على الشعب أن يساعد الحكومة في كلّ شيء. من غير المعقول أن يكون معيار المواطنة هو دفع الضرائب وحسب. أضرب، أضرب بقوة أشدّ.

وجَّه الضابط سبابته اليمنى إلى الأمام، فانفتح جهاز عرض متّصل بهاتفه، وظهرت شاشة أمامه همس: **Front**، فأصبح من المتعذر على من خلف الشاشة مشاهدة ما يُعرض عليها؛ وبين حين وحين كان يرفع رأسه وهو يبتسم متابعًا أصواتًا لا يسمعها سواه.

- ما الذي فعلته لتفعل بي هذا؟ صرخ الشبيه في وجه راشد. أما زلت مصرًّا على قتْلي؟!

- ستبقى حقيرًا، صرخ راشد، وانهال عليه بجنون، بحيث اتّسعت ابتسامة الضابط، دون أن يبعد عينيه عن شاشة هاتفه.

- إذا أردتَ نصيحتي، يكفيه ما ناله اليوم، هناك رجل آخر بجانبه ستكون أكثر سعادة إذا ما عذّبته بصورة أشدّ . قال الضابط.

- مَن؟

- الذي على يمينكَ.

نظر راشد فرأى رجلا مُعلَّقًا، وجهه للأرض، وإليته وظهره مكشوفين.

- لن أضرب هذا؟!

- بل ستضربه وبصورة أشدّ، صدّقني.

وضغط على مفتاح وهمي في هاتفه، فتحرك الجسد الموثق بعمود وأصبح وجها لوجه مع راشد.

كان صورة مطابقة له، رغم بعض الدماء التي سالت على الوجه.

- ومن هذا؟! سأل راشد بغضب.

- يمكن أن تعتبره راصدًا جويًّا آخر! تريد نصيحتي، اخفِ عينيك بهذا المنديل، وبعد ذلك أضربه كما تريد، هذا سيجعلك تستمتع أكثر. قال له الضابط، وألقى إليه بالمنديل، وهو يضيف: قد تستغرب لماذا نعذبه؟ نعذبه لأنه بالغ في الاعتراف؛ قال حتى الأشياء التي لم نكن نريدها! لقد مضى ذلك الزمان الذي كان فيه الرجال يصمدون!

انحني راشد الذي اجتاحته هستيريا جامحة، بعد سماعه لذلك، تناول المنديل، وضعه على عينيه، واندفع يضربه بقوة أشدّ.

- أوغاد، لم تكونوا تستحقونني في أيّ يوم من الأيام!

- أظن أن هذا يكفي قال الضابط.

توقف راشد لاهثًا، لكن شتائمه استمرّت:

- حقير، منحط، مُزيّف.

- أظنّ أن هذا يكفي، قال الضابط محتجًا. لا تنس أنك لم تستخدم المطرقة بعد، والكهرباء و..

***

وقف رجلا الأمن في الخارج يتابعان ما يحدث في الداخل غير مصدّقين.

- كنت أعتقد أن القائد سيقتله حين أمرَنا بإحضاره فورًا. قال الشرير.

هذا أمر مخيب للتوقّعات، وبصراحة، غريب للغاية، فإذا كان يُسمح لمتّهم مثله بتعذيب السجناء، فلم يبق سوى أن يُعذبنا نحن!

- أنا لا أستبعد هذا على أيّ حال، قال الطيّب، ولكن أظنّ أنه سيعذبكَ أنت لأنك كنت شريرًا في تعاملك معه منذ أن أمسكنا به.

- هل تعتقد هذا؟

- بالتأكيد. قال وهو يدّعي الجدّية. لكن ضحكة منه أفلتت.

- لقد أفزعتَني، لا أظنّ أن هناك من هو شرير أكثر منك.

***

نظر الضابط إلى ساعة هاتف المعصم:

- ذاك يكفي. وأمر الرجلين: أحضراه إلى مكتبي، وخرج.

دخل رجلا الأمن مسرعَين.

- من منهما سيدي؟!

- صديقنا، من غيره.

***

طرق رجل الأمن الشرير باب الضابط، جاءهما الصوت من الداخل.

- أدخل.

دفعا راشد أمامهما، كان المدير العام هناك أيضًا، وأمامه شاشات أثيرية تعرض ما في داخل الأقبية حيث كان التعذيب.

صفّق المدير العام بقوة، ألم أقُلْ لك، موجّهًا كلامه إلى الضابط: إنه يشبهني! فلم يجرؤ الضابط على أن يقول: بل يشبهني أكثر.

كان راشد ضائعًا تمامًا. فرقعت إبهام الضابط المنطلقة من سبابته براحة يده، فانطلقت أغنية: سنة حلوة يا جميل.

راح المدير العام يضحك:

- عليك أن تعترف أنك لن تنسى احتفالنا بعيد ميلادك هذا ما حييت، أليس كذلك؟

هزّ راشد رأسه، محاولا استعادة سيطرته على نفسه:

- عليّ أن أعترف، كان مقلبًا متقنًا، وأطلق ضحكة باهتة.

- أما زال مقيدًا؟! حرِّراه، أمر الضابط رجلَي الأمن، وأضاف: أين الكعكة؟ فهبّ الطيب لإحضارها، في الوقت الذي راح الشرير يفكّ قيد راشد بسرعة، دون أن يفهم شيئًا.

أشار الضابط لهما أن يغادرا الغرفة، فانصاعا للأمر.

خرجا. أقفلا الباب خلفهما، وكلّ منهما ينظر في وجه الآخر باستغراب، لكنهما لم يبتعدا، كانا يحاولان معرفة ما يدور في الدّاخل، فجاء صوت الضابط:

- قلت لكما انصرفا.

ابتعدا بسرعة.

***

- ما رأيك في الاحتفال؟ سأله المدير العام.

- متقنٌ تمامًا؟ أجاب راشد مكابرًا.

- لقد فكّرت أن أحتفي بعيد ميلادك في واحد من المطاعم، ولكن بدا لي ذلك عاديًّا، قلت، فليكن الاحتفال مختلفًا وفي المكان الذي ولد من بنات أفكارك. هل أعجبك؟

- أعجبني، الحقيقة أعجبني كثيرًا!

- يا رجل قُلْها بنفس! بربّك ألم أُشف غليلك من ذلك الجار المزعج؟

- هل حقا هو جاري، أعني الرَّاصد الجوِّيّ نفسه؟ أم أن الشبيه هو الآخر؟!

- أنت تعرف أن مسألة كهذه من الصعب علينا الآن إثباتها، وبالمناسبة الرَّاصد الجوِّيّ ليس أيّا منهما، لقد اختفى فعلا، أما هذان السجينان فقد وعدناهما بأن نُطلق سراحهما إذا ما مثّلا أمامك هذا الدّور؟

- لماذا؟

- لكي تضربهما بشكل أفضل! فهما من أولئك المشاغبين القدامى الذين

بقيت قضاياهم معلّقة، أيّ دون حلّ، ولا نظنّ أن هنالك من هو أفضل منك للقيام بمهمة كهذه.

- ولكنهما يشبهاني، فكيف يمكن أن تطلقا سراحهما؟!

وتدخل المدير العام:

- لا تقلق، أظن أن عليك الذهاب بسرعة إلى البيت، لا بدّ أن زوجتك والأولاد ينتظرون.

نهض المدير العام وصافحه، وسار معه الضابط حتى الباب الخارجي للمبنى، وهناك وجد نفسه ثانية مع نفسه، كان شبيه له يمدُّ يديه إليه ليناوله كعكة. أوشك راشد أن يهاجمه.

- اهدأ، وخذ الكعكة، قال له الضابط.

- ومن هذا؟ سأل راشد وهو يتناول الكعكة منه.

امتدّت يد الشبيه إلى وجهه، فانتزع قناعًا مُتقنًا كان يرتديه، فإذا به شخص آخر.

- لقد استطاع أن يخدعكَ، اعترفْ، قال الضابط لراشد.

- وأكثر! كان السجينان بقناعين أيضًا، أليس كذلك؟

- أتعرف، ربما تكون قدرتهم على خداعك هي أفضل فصل من فصول احتفالنا بعيد ميلادك؟

- ماذا تعني؟

تجاهل الضابط سؤاله:

- هل تحبّ العودة إلى البيت بسيارة شرطة أم بسيارة إسعاف؟

- بالسيارة الأسرع.

- أنت تأمر. سيارة شرطة بسرعة، أمر الضابط. وتقدّم خطوة وعانقه: كل عام وأنت بخير!

- وأنت بخير، ولكن، هل يمكن أن أسألك سؤالا واحدًا؟

- أعرفه، تريد أن تسألني كيف تمت ترقيتي بهذه السرعة؟ سأخبرك،

هذه الملابس فقط لأحتفل بعيد ميلادك. ولكن قبل أن تذهب، وأخفض صوته، عليك أن تعترف أنك أنتَ الذي أصبحتَ تشبهني.

- بل أنت الذي أصبحتَ تشبهني.

- هل أنت مصرّ على كلامك هذا رغم كل ما حدث؟

- بالتأكيد.

صرخ الضابط: أعيدوه إلى الزنزانة، فاندفع رجلا الأمن نحوه من جديد مثل كلبين ضخمين يلاحقان فريسةً مصابة!

الجريمة الكاملة

ليس هناك فكرة أخطر من فكرة تسكن رأس طالبِ ثأر

الوجوه على حقيقتها!

لم يعد راشد قادرًا على النوم حين اكتشف أنهما أثبتا بالدّليل القاطع أنه شبيه لهما: المدير العام والضابط، ولم يخفّف من قلقه عدم تنازله لطلب قوة بوم أقل. أما ما أثار دهشته فهو ذلك الوحش الذي كان كامنًا فيه، ولم يسبق له أن انتبه لوجوده: إنه قادر على لعب دَوْر السجّان بالقوّة نفسها التي استطاع فيها أن يلعب دَوْر السجين!

عند منتصف الليل تلقّى مكالمة مفاجئة من جاره صاحب القميص الأحمر، جاره الذي لم يسبق له أن اتّصل به.

- أنا جارك في البناية المقابلة.

- أيّ جار؟! سأله راشد.

- الجار الذي أخبرك أنه سيكون معك إذا حدث (ذلك الأمر) دفاعًا عن النفس.

- أهلا بك. جاري ذو القميص الأحمر؟

- لا، أبدًا، فأنا لم يسبق لي أن ارتديتُ قميصًا أحمر!

- أعتذر لك، ربما خلطتُ بينك وبين جار آخر.

- هل تعني بأن لديّ شبيها في العمارة التي أسكنها ولم ألاحظ ذلك؟!

- لا، اطمئن، مسألة مثل هذه لن تمرَّ عليّ، فأنت الأضخم، أليس كذلك؟

- أظن أنني الأضخم فعلًا.

- أنت إذًا صاحب القميص الأحمر.

- لقد أخبرتك أنني لم أرتد من قبل قميصًا أحمر. أنا الذي قال لك أمس، وأنت أمام البناية مع الأولاد، إنه سيكون معك إذا حدث (ذلك الأمر) دفاعًا عن النّفس.

- لننسَ مسألة القميص، لا بدّ أن هناك أمرًا خطيرًا لتتصل بي في ساعة متأخرة كهذه.

- إن الأمر يتجاوز مسألة الخطورة، إنه كارثة إن تحقّقتْ، قال الجار.

- أرجوك، لا تُشغل بالي أكثر مما هو مشغول، قلْ لي مباشرة، ما الذي يحدث؟

- جاركَ، أعني شبيهك، أعني الرَّاصد الجوِّيّ ، لم يكن غيابه أسبوعًا عن الضاحية خوفًا منك!

- خوفًا مِمَّن إذًا؟

- ليس خوفًا من أحد. هناك شائعة تقول إنه يريد أن ينتقم من الضاحية كلّها، فقد التقط ابني الصغير محادثةً له مع قريب يسكن في الخارج، يقول له فيها: أريد اثنين، ذكرًا وأنثى، تذكّر جيدًا: ذكرًا وأنثى. سأُريهم وجوههم على حقيقتها، وجوههم التي يبدو أنهم نسوْها! وأظنه كان يعنينا، فردّ عليه قريبه: هل تعي الأخطار المترتِّبة على ذلك؟ فردّ: لا أخطار، إنني أحاول أن أجعلهم يفهمون أيّ كائنات هم! فقال له قريبه: ولنفترض أنني حصلتُ لك على ما تريد، فكيف أستطيع إرسالها إليك؟ لا بدّ أن هناك ذكرًا وأنثى مما تريد في البلد عندك. نصيحتي، الأفضل لكَ ولي أن تنسى الأمر، وإذا كنتَ مُصرًّا، فاحصل عليهما بمعرفتك. وداعًا؛ وأرجو ألّا تطرح هذا الموضوع عليّ ثانية، لأنني بصراحة، أُتابع ما يدور عندكم وعندنا، ولعله بداية كارثة كونيّة، فالسلطات الأمنية هنا، وفي دول كثيرة، لم تعد تسمح بدخول أيّ سائح، بل وأغلقت الحدود أمام مواطنيها وألزمتْهم بالبقاء حيث هم، ولم تكتف بهذا إذ قامت بنصب شباك

إلكترونية من الأرض حتى بداية الفضاء الخارجي لمنع أي حيوان أو طائر أو طائرة من اجتياز الحدود بعد أن استفحل الأمر وأصاب القارات كلّها، وهم يعتبرون أن أي تواطؤ لتهريب أي شخص، أو حتى أيّ جندب أو نملة، من جرائم الحرب.

- هل هذا كلّ ما قاله له؟ سأله راشد.

- هذا كلّ ما قاله.

- أظن أن المسألة انتهت إذًا، ما دام قريبه غير مستعدٍّ للتّعاون معه.

- ولكن الفكرة ما زالت في رأسه، وليس هناك أخطر من فكرة تسكن رأس طالبِ ثأر.

- أتعرف، أظن أن أفضل شيء يمكن أن نفعله، هو أن نمنعه من دخول منطقتنا، قال راشد.

- كيف سنستطيع أن نمنعه وهو يشبهك؟ طبعًا، إلّا إذا تخلّصت منه بنفسك وأَرحْتنا. لقد قلت لك ما دام الأمر دفاعًا عن النفس فنحن معك!

***

استيقظ راشد قبل سلام والأولاد، وهي عادة جديدة، منذ أن غدت سلام غير متوقعة، كما وصفها بينه وبين نفسه، ارتدى قميصًا أبيضَ وبنطالًا أسودَ، وجلس في سيارته الشبيهة بسيارة الرَّاصد الجوِّيّ .

كان الضباب كافيًا لإخفائه عن أعين الكاميرات ورشاشاتها المثبتة في الحارة.

جاءت الحافلة، وصعد أولاده إليها، ولم يظهر الرّاصد الجوِّي. ما كان يخشاه راشد أن تمرّ إحدى دوريات الأمن وتلاحظ وجوده داخل السيارة، وتتّهمه بالتخطيط لقيادتها رغم استمرار حظر التجوال بالسيارات، حظر التجوال الذي يفرض بين حين وحين، مع السماح للناس باستخدام أقدامهم في المناطق التي يسكنونها لشراء لوازمهم الضرورية لعدة ساعات يوميًّا.

لم تمرّ أي دورية، ولم يظهر الرَّاصد الجوِّيّ ، بل لم يظهر أحدٌ من سكان الضاحية، فانتاب راشد الخوف من أن هناك أوامر جديدة، لم يسمع بها، بشأن ظهور الناس واختفائهم.

كان قد أمسك بمقبض باب السيارة ليفتحه ويخرج، حين رأى الرَّاصد الجوِّيّ يغادر المبنى مختالًا مثل ديك.

أول ما لفت انتباه راشد ملابسُ الرَّاصد الجوِّيّ. كان يرتدي قميصًا أسود وبنطالًا أبيضَ، تمامًا مثله، ولكن مع اختلاف بسيط، فقد ارتدى الرَّاصد الجوِّيّ الأسود كلون فوقيّ، والأبيض كلون تحتيّ.

- هل يريد أن يقول لي: لم تعد توجد أيّ علامة فارقة بيننا غير هذا الاختلاف؟! غضب. فتح باب السيارة بسرعة، وركض باتجاه شبيهه.

وصله، ضربه بكتفه، وقع الجار أرضًا. هجم راشد عليه وبدأ بضربه بعنف شديد.

فجأة ظهر الناس، محاولين فضَّ الاشتباك وهم يتساءلون وسط ذلك الضباب عن سبب المشكلة.

- ما الذي يحدث؟ سأل أحد الأشخاص.

- ألا ترى؟! إنه يسخر منّي، أجاب راشد.

- كيف يسخر منك؟! هل قال شيئًا ما أغضبك؟

- لا، لم يقل، ولكن أنظر إليه، ستُدرك ما أقول.

نظر الرجل إلى الرَّاصد الجوِّيّ ، ولم يفهم شيئًا.

- لا يبدو أنه يسخر منك!

- أأنت أعمى؟ ألا ترى؟ وأشار إلى ملابس شبيهه الملقى على الأرض.

- لم أفهم أيضًا!

- ألا ترى؟! إنه يعكسني، ليسخر مني.

- أعتذرُ لك، لم أنتبه، أعتذرُ بشدّة. ونظر إلى الرَّاصد الجوِّيّ صارخًا: كيف تفعل أمرًا قبيحًا كهذا؟ لا يعقل! هل تريد أن تثبت أنك ضدّنا، وأنك مختلفٌ عنّا؟

- ولكنني خرجتُ من البيت دون أن أراه، رأيتُه بعد أن دفعني وسقطتُ، فكيف سأسخر منه؟

- أنت رجل لا تخجل فعلا، صاح الرّجل ذو القميص الأحمر الذي ظهر في الشرفة، ألا يكفي أنك حاولتَ صدم سيارته؟ ألم تكتفِ بذلك؟ كيف تسخر منه، وهو جارك؟!

وما إن أتمّ كلامه، حتى سقط غراب ضخم من السماء قرْبهم، محدثًا ارتطامًا قويًّا، تناثر دمه فأصابت رشقات منه ثياب الجميع.

تدخُّلُ صاحب القميص الأحمر، وسقوط الغراب ولون الدم، أعطى راشد دفعة قوية، فانقضَّ على شبيهه. ألقاه أرضًا، وانهال عليه ضربًا في جولة ثانية، كما لو أنه ينتزع ريشه.

ابتعد أحد المتجمهرين: ألو، البوليس؟

سمعه أحد الحضور، فزجره: أَتريد أن تزعج الشرطة بأمر نحن نستطيع حلّه هنا؟

- كنت أريدُ أن أقول: يعطيكم العافية، أنتم أفضل شرطة في الكون، ترفعونَ الرأس والله! قال المتّصل، وهو يعود باتجاه الجمْع.

- ماذا هناك؟ صرخ ذو القميص الأحمر.

- لا شيء، اطمئن، ردّ الشخص الذي وبّخ مُحاوِلَ الاتصال.

- أنظر، هذه المرة سنسامحك، ولكن بشرط واحد، قُمْ، انفض التراب عن بنطالك الأبيض السخيف هذا، وادخل إلى متجر الملابس هناك واشتر قميصًا أبيض وبنطالا أسود. هكذا سأقبل بحلّ المشكلة! قال صاحب القميص الأحمر، بعد أن استطاع بعض الحاضرين وقف هجوم راشد.

أخذ الرَّاصد الجوِّيّ الملقى على الأرض نفَسًا، وقال:

- ولكن يمكن أن أذهب إلى بيتي، فهو هنا، وأرتدي قميصًا أبيضَ وبنطالًا أسود، وأعود.

- لقد قال لك إن عليك أن تشتري قميصًا أبيضَ وبنطالًا أسود، صاح

صاحب متْجر الألبسة، وأضاف: كان علينا أن نتركه ينتف ريشك، بل يقتلك، لنرتاح منك فعلا. كلّ هذا الذي فعلناه لمساعدتك لتأتي وتقول أخيرًا: *سأذهب إلى البيت وأُحضر بنطالًا أسود وقميصًا أبيض*، قالها البائع متهكّمًا، وهجم محاولًا اختراق الجمهور الذي أخذ يتكاثر.

ما حير راشد أن ما قاله صاحب المتجر كان يؤكّد أحاسيسه حول مظهر الرّاصد الجوّيّ الذي يشبه الدّيك!

حاملًا ساطوره الطويل وهائجًا ظهر صاحب المتجر في تلك اللحظة.

- وبعدين؟ هل سننام على مُصيبة ونصحو على أخرى. صرخ في وجه الجميع. فتناثروا.

- اطمئن يا أخ، المشكلة حُلَّتْ. قال صاحب متجر الألبسة، وهو يجرُّ الرَّاصد الجوِّيّ الملقى على الأرض إلى داخل المتجر المعتم.

***

وقف الرجال يراقبون واجهة المتجر متحفّزين. بعد قليل، أتى صوت من الدّاخل:

- لن أدفع أكثر من ثلاثين! مائة؟! لماذا؟! هل دخلتُ متجرًا في الشانزليزيه دون أن أنتبه؟!

- ستدفع مائة، يعني مائة، بعد أن ارتديتَ القميص والبنطال على قذارتكَ، وقذّرْتَهما، ستدفع.

وتعالت الأصوات في الخارج: ادفع ولنُنْهِ المسألة.

ساد صمت عميق، وواصلت العيون تحديقها في العتمة غير قادرة على رؤية ما يدور.

- أظن أن أفضل شيء يمكن أن تفعله هو أن تدخل وتقتله في الدّاخل دفاعًا عن النفس! قال الرجل ذو القميص الأحمر. لكن اقتراحه كان قد تأخر. خرج الرَّاصد الجوِّيّ بملابسه الجديدة، وقف بالباب متوجِّسًا، وخلفه صاحب المتجر مبتسمًا.

- هل أنت راض الآن؟ سأل صاحب القميص الأحمر بصوت مرتفع، موجهًا كلامه لراشد.

- إلى حدّ ما، ولكنَّ في الأمر شيئًا لم يزل يغيظني. أجاب راشد.

- ما هو؟

- ألم تلاحظ أنه بهذا يقلّدني؟ سأله راشد.

- هل تقترح أن يعود ويرتدي ملابسه القديمة؟

- لا أعرف، ولكن أحبّ أن أسألكم، ما هو الأسوأ: أن يُقلِّدكَ شخص ما، أم يسخر منك؟

- يسخر.

- يُقلِّد.

- يسخر

- يُقلِّد.

- يسخر.

- يسخر.

- بل يُقلِّد. صرخ صاحب القميص الأحمر من شرفته.

- بل يسخر ويقلّد. قال رجل آخر.

وما هي إلا لحظات حتى تعالت الصرخات، وتناثر دم في الأجواء مشتعلًا كقنابل الإضاءة. هبطت العتمة دامية كثيفة، وشيئًا فشيئًا راحت تقترب أصوات صفارات سيارات الإسعاف التي تحوّلت إلى سيارات شرطة، لكن المعارك اشتدّت، ودوّتْ أصوات بنادق آلية، ثم أعقبها انفجارات قنابل، وأصوات انهيارات واستغاثات.

***

صمتٌ، والشوارع خالية.

والحيُّ تحوّل إلى ساحة للخراب.

وجاء أمر حاسم بثته وسائل الاتصالات كلّها: على كل من يعمل أن

يتوجه إلى عمله، وعلى الطلبة التوجّه إلى مدارسهم، لن نسمح لأي حرب، مهما كانت شدّتها أن توقف عجلة الحياة في هذا البلد. وكل من يتخلّف عن عمله، أو مدرسته أو جامعته، سيعتبر واحدًا من المتحاربين.

اقترب راشد من أطفاله، وهو يحسّ بفخر سريّ، قبّل خدّودهم الأيامِن، فاضطرّت سلام أن تُقبّل خدودهم الأياسِر. كان هنالك جرح غائر في جبينه. ويده اليمنى معلَّقة في رقبته.

- أترى كم أصبح أول العنقود يشبهكَ! قالت سلام التي غادرت نصف شرنقتها، بعد أخبار مقتل الرّاصد الجوّي.

- هل تعتقدين ذلك؟ ردّ وتقطيبة حادّة تُطبق على وجهه كإخطبوط جائع..

- بالتأكيد.

- ولكن، أرجو ألّا تعتبريها مجاملة، إن ابنتنا الصغيرة أيضًا تشبهكِ كثيرًا، وفيها من جمال أمّها أكثر مما تعتقدين، قال محاولًا تخفيف انطباق أذرع الإخطبوط على وجهه.

- هل هذا صحيح؟ قالت وقد سحبت نفسها أكثر من الشرنقة.

- ليس صحيحًا فقط، إنه حقيقة يراها الأعمى!

- شكرًا لكَ.

- شكرًا لكَ، قالت البنت لأبيها، فأدرك الولد أن عليه أن يشكر أمه:

- شكرًا لكِ أمّي، وبصدق: شكرا لكِ جدًا.

- وشكرًا لكَ جدًا جدًا. قالت البنت لأبيها.

وأشار راشد الصغير إلى سلام الصغيرة في حركة تهديد لأنها تفوّقت عليه في الشّكر.

فجأة اعتدل مزاج راشد مع ذلك التهذيب البالغ الذي يقطُر من ألسِنة الأولاد.

***

بصعوبة استطاعت حافلة المدرسة الوصول إلى باب العمارة. كان

الخراب في كل مكان، سيارات محطمة، المتاجر، البقالات، الشرفات المعلّقة بقضبان الحديد العارية، الشبابيك والأبواب المُقتَلَعة.

لم يعمل مصعد البناية، فهبط راشد الدرج راجلًا. وصل الباب، كان الدمار أكثر مما توقع، لكن اختفاء الرّاصد الجوّي من الوجود سبب كاف لإشعال حرب.

- صباح الخير يا جار.

سمع راشد التّحية بصعوبة ما إن بلغ باب العمارة، فأصوات رشاشات ومدافع كانت تأتي من مكان قريب. التفتَ إلى الأعلى. كان الرجل ذو القميص الأحمر يحاول بصعوبة الوقوف على حافة شرفته المتهالكة.

- صباح الورد يا جار، ردّ راشد من أسفل، وقد اعتدل مزاجه تمامًا بخروج أفضل حلفائه حيًّا.

- انتبه. لا أريد أن أخسر أفضل جار لديّ.

- اطمئن،كل الأمور تحت السيطرة. ردّ راشد، وأضاف: كيف كانت ليلتكَ؟

- جيدة، بعد أن أَدَّبنا ذلك الجار الوقح حين قتلناه.

- هل قتلناه فعلا، فأنا لم أر جثته؟!

- أكاد أجزم أننا فعلناها أخيرًا واسترحنا منه، لكنني في الحقيقة لم أنم جيدًا، إذ بقيتُ أفكر في السبب الذي دفع ذلك الوقح للسخرية منك، ثم تقليدك فيما بعد، قال صاحب القميص الأحمر كما لو أنه لم يسمع سؤال راشد.

وقبل أن يجيب صفّرت قذيفة وسقطت على واجهة مبنى في آخر الساحة، فتطايرت شرفاته عاليًا نحو السطوح!

- سنتحدث في الأمر حين أعود من عملي اليوم، ولكن أظن أن عليك أن تنام قليلًا، لتعوِّض ما فاتك من نوم. قال له راشد.

- لن يكون ذلك ممكنًا يا جار، فأنت ترى القذائف تتساقط، كما أنك لا بدّ لاحظت أنه لم تعد هناك نوافذ وأبواب.

- ابحثْ لكَ عن غرفة في الطرف الآخر، ونمْ فيها.

- لولا أنني لا أريد أن أؤخرك عن عملك يا جار، لقلتُ لك اصعدْ لترَ بنفسك. هذه الجهة بلا نوافذ وأبواب، ولكن الجهة الأخرى بلا جدران!

ومرّ صاروخ ثقيل وانفجر في الحارة المجاورة، فسقطت أشلاء البيوت في الساحة أمامهما.

- هل تتحدّث عن بيتي يا جار أم عن بيتك؟ سأله راشد.

- عن بيتي.

- اعتقدتُ أنك تتحدّث عن بيتي، في ظنّي أنه نسخة عن بيتكَ الذي لم أره بعد. على أيّ حال، نلتقي بعد عودتي.

- لو كانت سيارتي بخير، ويُسمح لي أن أقودها، لكنتُ أوصلتكَ، فأنت غال عليّ والله، قال ذو القميص الأحمر.

- هل تظنّ أنني كنت بحاجة إلى حرب لكي أختبركَ يا جار، أنت فوق كل الاختبارات.

- أشكرك.

- لا تقلق، معي سيارة الإسعاف، وأرجو أن تكون قد خرجتْ سالمةً من هذه الحرب.

- لا أستطيع أن أراها من هنا. ما يزعجني يا جار، كثيرًا، أن هذه الحروب لا تتغير نتائجها أبدًا، إذ يخرج الناس منها مدمَّرين دائمًا، وتخرج الحكومات دون أيِّ خدوش!

تلفّت راشد حوله ليطمئن أن أحدًا لم يسمع تعليق جاره، فوجد أن الشرفات كلها تستمع، في الوقت الذي كان فيه يبتعد.

كلب مصاب في ساحة المعركة

حولها تجمَّع ركام كثير، وفي الوقت الذي لم تسلَم فيه سيارة من شظيّة أو رصاصة أو حتى احتراق، وقفت سيارة الإسعاف مكانها بلا خدوش. معجزة بدا الأمر لراشد. اقترب منها محاذرًا أن يطأ قنبلة لم تنفجر أو ساقًا نافرة من بين حطام بيت، أو جثة ممزّقة الأشلاء. فلم يتمالك نفسه: أي حرب لعينة هذه التي أكلت اليابس قبل أن تأكل الأخضر؟!

كان يقف في قلب رائحةٍ لم يعرفها من قبل، فهمس لنفسه: ليس ثمة رائحة في الدنيا أنتن من رائحة الحرب.

حرّر يده من حاملها الملتفّ على رقبته، حرّكها، تألم. أبعد كتلة إسمنتية ضخمة بيده السليمة، كتلة لم يكن يعتقد أن بإمكانه زحزحة قطعةٍ بنصف حجمها بأربع أيد، وساعده الضباب الكثيف على التحرّك بشجاعة أكثر بعيدًا عن العيون. بصعوبة استطاع فتح باب السيارة..

كانت شرفات الطوابق السفلى غير مرئية، فلم يستطع أن يعرف إن كانت غير مرئية فعلًا أم أنها تهدّمت بعد اندلاع نيران الحرب.

صعد إلى السيارة، أدار محرّكها، وهو على يقين من أن الأسوأ ينتظره مع كلّ متر يقطعه في طريقه إلى الشارع الرئيس، الذي لا يعرف إن كان وضعُهُ أفضل من شارع بيته أم لا.

جأرت السيارة، ودارت عجلاتها في مكانها، ففهم أن ثمة ما يعيق تحرّكها، ولو كانت كائنًا حيًّا لفهم أنها ترفض التحرّك بسبب الخوف.

ترجّل ثانية، ولم يكن صعبًا عليه أن يرى حجرًا ضخمًا تحت عجلها الأمامي الأيمن.

بصعوبة استطاع زحزحته، كان الحجر متشبثًا بالعجَل كما لو أنه أمّه، لا يريد أن يبتعد عنه. ولأول مرة، ومنذ زمن طويل، أحسّ باختفاء رائحة العفونة، فأعاد ذلك إلى امتلاء الجو بسحب الدخان ورُفات الميتين.

الخوف الذي نبت في صدر راشد كشوكة راحت تكبر، كان مصدره القنابل التي لم تنفجر، قنابل كثيرة، كما لو أن الذخيرة المستعملة من مخلفات تلك الذخائر الفاسدة التي استُخدمت، قديمًا، في حرب فلسطين!

فكرة فساد القنابل، ساهمت في أن يكون طول الشوكة أقصر قليلا. صعدت السيارة ركامًا وهبطتْ، وراوغتْ بصعوبة قضبان حديد كان يمكن أن تمزّق عجلاتها؛ ولم يكن مشهد الدّمار يحتاج شيئًا ليكتمل سوى ظهور كلب مصاب أو وحيد، كما كان يحدث في مشاهد الحرب، في الأفلام الأمريكية.

لم يظهر الكلب، رغم أنه أوشك على وصول الشارع الرئيس، لكنه سمع نباحًا حادًا يأتي من مكان ما، لم يستطع تحديده؛ نباحًا قويًا، لدرجة أنه التفتَ خلْفه متفقدًا صندوق السيارة، متوقّعًا أن يكون ذلك الكلب قد التجأ للصندوق هربًا من مطر النار.

غامضًا كان مشهد الشارع، إذ لم يستطع راشد أن يرى أي ضوء لسيارة عابرة. لم يكن هناك سوى صوت محركات تعبر مسرعة مُخلِّفة أصواتًا تشبه أصوات مرور القذائف في هواء متجمِّد:

وززززززز.... بوم م م م م م ....

امتدّت يده وأشعلت أضواء الخطر فوق السيارة، وحاول التأكّد من أن الأضواء الأمامية مشتعلة، بأن حرّك مفاتيحها يَمْنَةً ويَسْرَةً، لكنه لم ير لها أي أثر أمامه.

كان عليه أن يحسم أمره وينعطف نحو الشارع العريض مستعينًا بقدرته

على السمع بعد أن أشرع النافذتين الجانبيتين للسيارة، القدرة التي فوجئ بأنها أفضل مما كان يتصوّر؛ في حين تراجعت قوة إبصاره، لم يكن أكثر من حيوان الخُلْد في دهاليز عماه.

وللمرة الثالثة أو الرابعة لم يندم لأنه لم يتنازل لطلب قوة أقل من 3 بوم.

فوجئ أن غريزة السمْع التي استيقظت في داخله، جعلته يقود بسرعة لا تتناسب مع تلك المسافة المضبّبة. كان ينصت بإمعان شديد، خائفًا من سيارة مسرعة تدْهمه من الخلف، أو أخرى تسير أمامه ويرتطم بها.

بعد أقلّ من عشر دقائق، كان على يقين من أنه يستطيع أن يُوْلي أذنيه الثقة المُطلقة، وقد تجمّعتْ فيهما حواسّه كلّها.

أسعده ذلك.

على الجانب الآخر من الشارع كان الهدوء شاملًا. أما في البعيد، فقد كان وميض الانفجارات يتصاعد بين حين وحين، مخلِّفًا اهتزازات خفيّة تعبر من أصابعه نحو قلبه.

كانت الحرب قد وجدت طريقها بيسر نحو ضحاياها المعبئين بشررها، ورغم أن القلعة عملت على احتواء المعارك بأن أصبحت طرفًا ثالثًا فيها، إلّا أن محاولاتها لم تكن ناجحة، رغم التجائها إلى أسوأ الوسائل: إطلاق النار العشوائي، في مواعيد غير محددة وعلى أي شيء، بعد أن تمكن المتحاربون، في الأحياء والمدن البعيدة، من فقء أعين الرشاشات، بتدميرهم للكاميرات التي توجِّهها. ووصلت أخبار كثيرة لم يستطع تأكيدها أي من الأموات بالطبع، عن ضحايا الرماية العشوائية الذين فاق عددهم ضحايا القتال الحقيقي؛ لكن القلعة رأت أن ما تفعله هو الشرّ الذي لا بدّ منه لدرء خطر الشرّ الأكبر القابع في احتمالية استمرار الحرب إلى ما لا نهاية، وذلك بعد الأخبار المدوّية التي كانت تتوارد منذ مدة تباعًا: احتفالات في روما بإزاحة الستار عن تمثال موسوليني؛ إحياء الحكومة الأمريكية لذكرى إلقاء أول قنبلة نووية على هيروشيما؛ قيام إسرائيل ببناء

جدار ثامن على مبدأ التقاطع لا التّوازي، مع ما يعنيه ذلك من مضاعفة عدد الأبواب في الجدران مئات المرّات، واضطرار الإسرائيليين لعبورها بشرائح إلكترونية لا يمكن اكتشافها، مزروعة في عظامهم؛ واندلاع الانتفاضة الفلسطينية التاسعة على إثر ذلك؛ ثم الحدث الأبرز وهو تهديد إسرائيل بحرق ألمانيا، وردّ الألمان بإدراج مذكرات هتلر في جميع المراحل الدراسيّة.

***

سقطت قطرة من مطر على شباك السيارة أمامه، قطرة كبيرة يمكن أن تملأ كوبًا من الشاي. ارتبك، كانت أشبه بحجر، لكنه لم يكبح اندفاع السيارة. وبعد دقيقة سقطت قطرتان كبيرتان، لا تقلّان حجمًا عن الأولى، وأرعدت السماء بصورة مرعبة، بحيث كادتْ أذناه اليقظتان أن تُصابا بالصمم، ثم تلا ذلك الرّعد برق شديد، جعله يرى طيف المدينة للحظة واحدة.

أفضل ما حدث، أنه استطاع معرفة إلى أين وصل. لكن فرحته لم تكتمل، فقد بدأت السماء تمطر بغزارة قاتلة، كما كانت في الزمان البعيد، وتزايد حجم حبات المطر، بل كُرات المطر، فأغلق راشد النافذتين الجانبيتين اللتين شكّلتا بوابات للسمع. كانت السيارة تسير بصعوبة وكأنها تحت بحر مقلوب، جوفه في السماء وسطحه الهائج على بعد مترين من الأرض. أفزعه المشهد. كان ربع السيارة العلوي في الماء. وعبثًا راحت مسّاحات الزجاج تعمل. كانت أشبه بعيدان كبريت تستخدم كمجاديف على جانبي ناقلة نفط عملاقة. وارتجّت السيارة أكثر، وهي ترتفع وتهبط في سيلٍ تطفو على سطحه صقور وغربان وزرازير وقبرات وشحارير ونوارس ميتة اختلطت ملامحها وألوانها.

ولأول مرة، تمنّى لو أن ما يعيشه مجرد كابوس؛ لكنّه لم يكن كابوسًا، ولم يكن راشد نائمًا، ولم تكن الحرب التي اشتعلتْ رؤيا سوداء عابرة.

وأبرقت السماء ثانية، بعد أن فاته سماع الرّعد، بسبب اختلاطه بهدير الأمواج الطائرة فوق السيارة.

قرر أن يتوقّف؛ فقد استطاع أن يرى فسحة صغيرة بجانب الشارع أُعدَّت للوقوف الطارئ. بادر إلى تخفيف سرعة السيارة، لكن السيارة لم تستجب، كانت مدفوعة بقوة قبضة جهنميّة.

توقّع أن يصل إلى باب المدينة بعد خمس دقائق لا أكثر، وأكّد له ذلك انفجار برق ساطع أضاء كل ما حوله، فرأى سيارة طائرة، أو طائرة صغيرة، على ارتفاع مُنخفض تتجاوزه. قدّر أن الطيار فوجئ بوجوده فارتفع ثانية. بعد لحظات اختفت الطائرة.

تمسّك بمقود السيارة أكثر، إلى أن تذكر السائق الآلي. لكن خبرته لم تكن تساعده. ولأول مرة أدرك أن من لا يسير مع الجديد هو أول من يجرفه تيار العصر، وأوشك أن يندم لأنه تشبث بالسيارة التقليدية، والهاتف التقليدي الذي طالما رجته سلام أن يستبدله برقاقة، فرفض، لأنه لا يحتمل غزَّة الإبرة، فكيف بطعنة جهاز تثبيت الشريحة، كما كان يدعوها.

- خمس دقائق وينتهي كل شيء، خمس دقائق وأخرج من هذا الكابوس. همس لنفسه.

وقبل أن ينتبه، كان المطر قد توقّف والسماء قد شربت، أو استعادت البحر الهائج فوقه، وفي المرآة الجانبية ظهرت سيارة حمراء، اقتربت بهدوء. كانت تشبه سيارته تمامًا، وظلّت تسير إلى أن غدت بجانبه.

ورغما عنه، استدار راشد بوجهه إلى الجهة المعاكسة لكي لا يرى مَن في السيارة، لكنه سمع زامور السيارة التي بجانبه ينطلق. ولم يستدر أيضًا، فانطلق الزامور ثانية في وصْلَة طويلة، خشيَ معها راشد أن يعتقد سائقو السيارات الأخرى، التي تكاثرت، أنه هو من يفعل ذلك. استدار مرغمًا ونظر إلى الأسفل، فرأى نفسه يجلس في السيارة الحمراء الصغيرة!

انقبض قلب راشد، فها هو يخرج من كابوس ليدخل في كابوس ظنّ أنه انتهى منه بحرب.

الزّيارة الدائمة!

أوقف راشد السيارة أمام باب المستشفى تمامًا، وترجّل منها. أشار إلى سائق جالس في سيارة أخرى أن يركنها في مكان أبعد.

صعد الدّرجات. كانت يافطة المستشفى شاحبة كملامحه.

في الممرّ الطويل، تقافزت الموظفات والموظفون يهنئونه بالسلامة، ومن لم يقفز هو، قفز لسانه، ومرّت امرأة باهرة بشعر أحمر متّجهة للخارج، امرأة باهرة اختطفت ما تبقّى في صدره من أنفاس، حاول أن يستدير ليتابعها بنظراته، إلا أن أحد مسعفي الطوارئ قفز أمامه محاولا أن يكون أكثر تذلّلًا دافعًا سرير الإسعاف نحوه، وطالبًا منه أن يستلقي فوقه حين رأى يده المُعلّقة.

نهَرَه راشد.

قبل أن يصل باب مكتبه كان قد فُتح. أطلّت السكرتيرة التي كانت تراقبه عبر الشاشة، على ما يبدو، منذ وصوله، فتجمّع المرضى والأطباء والزوار والموظفون كما لو أنهم فخّ عملاق يطبق على عصفورة.

دفع السكرتيرة للداخل، فكلّ شيء فكّر فيه قبل أن يجري لها العملية، باستثناء شيء واحد هو تلك النظرات الجائعة التي تقضمها من كل جانب.

كان متضايقًا للغاية. توقّف، حدّق في الأرض، أخذ نفَسًا عميقًا، وفي اللحظة التي استدار فيها نحو موجة العشاق اللزجين، سحب مسدّسه وبدأ بإطلاق النار عليهم.

أغرب ما حدث أن أحدًا منهم لم يهرب، لم ينحن، أو حتى يصرخ ألما، كان الدم يتناثر منهم كما يتناثر في مشاهد الأفلام الحديثة، راشقًا وجهه وصدره ولافحًا سقف الممرّ بحرارة حُـمْرته الدّاكنة، والجدار الأبيض كالقطن، خلفهم.

انتهى الرّصاص فأخرج مخزن الرصاص الفارغ بسرعة، وألقم المسدس مخزنًا معبأً، وواصل إطلاق النار، وهو يتساءل من أين حصلتُ على المخزن الثاني وكل ما أملكه عشر رصاصات؟!

حين تنبّه لما حدث، كان الجميع على الأرض قتلى أو مصابين، فعاد وأخرج مخزن الرصاص الثاني، ووضع ثالثًا معبأ مكانه، وبدأ بالإجهاز على الجرحى، وهو يتساءل من أين حصلت على المخزن الثالث وكل ما أملكه عشر رصاصات؟!

حين تأكد من أنه قضى على الجميع، أغلق الباب خلْفه بقوة اهتزّ لها المستشفى كلّه.

هدأ قليلا، أخذ ألف نفَس بسرعة، وبدا راضيًا عن نفسه!

- هل كسروا يدك؟ وتقدّمت السكرتيرة واحتضنته. لم يجب.

وفي الخارج سمع جمهور العشاق أصوات أشياء تسقط، ثم تصاعد صوت السكرتيرة، فصوته، ورجّ إعصار مجنون المكتب، بحيث كان باستطاعتهم أن يروا وميض برق يخرج من تحت الباب، ويغمر الممرّ ووجوههم، بوهج محموم.

***

هدأ الإعصار، تراجع ضجيجه شيئًا فشيئًا، مرّرت السكرتيرة أصابعها الرّقيقة على ذراعه، وسألته: هل أوجعكَ؟

- لا، أظنّ أن عليَّ أن أحرِّره تمامًا من هذه الرّافعة! وحاول أن يضحك.

- هل أُصبتَ به في معارك أمسٍ؟ لقد تابعتُها من هنا لحظة بلحظة.

- لم أتخيّل أنهم سينقلونها في بثٍّ حيّ، قال راشد.

- يبدو أنك لا تعرف الأهمية الحقيقية للحرب التي خضتّها!

- الحقيقة لم أعرف.

- إنها حرب الكلب الثانية! كلِّ التحليلات تقول ذلك، والخبراء العسكريون أشبعوا الأمر بحثًا. لقد أُتيح لي أن أرى ذلك كلّه لأنني لم أستطع النوم في وقت عصيب كهذا. كان عليك أن ترى كيف كانت شراراتها تعلو وتسقط في المدن المجاورة والبعيدة، وكيف تتّسع الحرب.

وقبل أن يُعلِّق، سألته السؤال الأخطر:

- هل تظن أن سائق السيارة الذي أوصلكَ، أعني الذي أوصلتَه، كان من ضحايا هذه الحرب؟ لقد اتصلتْ زوجته ألف مرة لتسأل عنه، وكانوا مضطرين في المستشفى أن يستفسروا منّي في النهاية، فأنت رئيسي، ورأوكَ تصعد السيارة معه قبل اختفائه، كما أنني توقّعت أن تجد نفسك وجهًا لوجه مع زوجته التي كانت هنا، وكانت مصرّة على ألّا تغادر المكان قبل أن تعرف مصير زوجها.

- زوجته كانت هنا؟

- نعم كانت هنا، وكانت مصرّة على عدم مغادرة المكان قبل أن تأخذه معها إلى البيت. لعلكَ رأيتها في الممرّ، فقد كانت هنا منذ لحظات، امرأة جميلة بشعر أحمر، لا يمكن إلّا أن تكون رأيتها.

- بشعر أحمر، وطويلة، أليس كذلك؟

- إنها هي.

استعاد راشد وجهها وحضورها الطاغي وهي تمرّ بجانبه كفرس.

- هل أنتِ متأكّدة من أنها هي؟

- لا أظن أنني رأيت بجمالها امرأة منذ زمن بعيد.

في تلك اللحظة أضاءتْ جمجمةَ راشد تلك الفكرةُ الفذّة. فقال للسكرتيرة: إذا اتّصلت، قولي لها إن زوجكِ بخير، وعليكِ ألّا تقلقي أبدًا بشأنه.

- هل تقول الحقيقة، أم أنكَ تريد أن تكسب الوقت لتجد كلامًا مُقنعًا تقوله لها؟

- بل أقول الحقيقة.

- أنت تعرف مصيره إذًا.

- إنه حيٌّ مثلي ومثلكِ.

- أظنّ أن من الأفضل أن تتّصلي بها، وتخبريها أنه سيعود الليلة للبيت بعد أن يُنهي عمله، بدل أن تنتظري اتصالها.

- بما أن الحرب قد شوّشت أفكاري تمامًا، اسمح لي أن أقول إنني لم أفهم! لماذا لا يردّ على هاتفه إذًا؟!

- ببساطة لأن هاتفه قد سُرق، هذا ما أخبرني به.

- ما دمتَ تريدني أن اتصل بها، فسأفعل، ولكن أرجو..

ارتفع صوت راشد لأول مرة، وصرخ:

- كم مرّة عليّ أن أقول لكِ إنه حيّ؟

- آسفة، أظنّ أن هذه الحرب ستقودني للجنون قبل أولئك الذين يخوضونها.

أطرق راشد مفكرًا، يعتصره الندم، لأنه صرخ في وجهها، هي التي رضيت بالمكتب منذ لقائهما الأول، كما أراد، منزلا لا سواه لها، لكن ندمه لم يمنع خياله من السفر للبعيد.

***

كان وجهُ زوجة السائق حاضرًا، كما لو أن راشد يحدّق في صورة على الجدار أمامه. شاردًا كان، حين باغته صوت السكرتيرة:

- نسيت أن أخبرك بأن رسالة خاصة وصلتك من (هناك).

- هل قرأتِها؟

- لا، كيف أفعل ذلك وهي رسالة خاصة؟!

- لا بدّ أنها تتعلّق بأجهزة التجميل الشخصيّة، قال، وفتح الرسالة،

وهو يضيف: لكنهم يرسلونها في أسوأ الأوقات، فالبلد كلّها بحاجة الآن لجهاز عملاق يعيدها إلى ما كانت عليه قبل الحرب.

تجمّد راشد حين بدأ بقراءتها، شاكرًا الله أن السكرتيرة لم تفتحها.

كانت رسالةَ اعتذار من المستشفى الذي أجرت فيه السكرتيرة عمليّتها: (لقد تبين لنا للأسف، بعد تقارير وردتنا من بلاد كثيرة، أن آثارًا جانبية ظهرت على أشخاص أجرينا لهم عمليات التجميل، حيث تأكد لنا أن كثيرين منهم أصبحوا أكثر إثارة للجنس الآخر بصورة لا يمكن التغاضي عنها، وذلك نتيجة إفرازات هرمونية غير متوقعة، ولذا نودّ أن نحيطكم علما بأن المستشفى على أتمّ استعداد لتحمّل نفقات سفركم، ومعالجة الخلل مجانا أيضًا، إذا ما ظهر على أي شخص قمتم بإجراء العملية له عندنا، وغدت هذه الآثار الجانبية مصدر إزعاج لشريككم أو شريكتكم، أو لكم شخصيًا.

في انتظار ردكم، للمباشرة في اتخاذ الإجراءات السريعة المناسبة.)

***

جلس راشد يتابع أخبار الحرب، دون أن يتوقف عن التفكير في الرسالة، والخطوة التالية التي عليه اتخاذها، وهو يتأمل جسد السكرتيرة الذي يتجول في الغرفة كبركان صغير لا يكفّ عن قذف الحِمَم.

لم تكن الحرب التي يتابع أخبارها بربع اهتمامه، قد تجاوزت حدود البلد، إذ لم تنتقل شرارات كثيرة منها للخارج، لكنها كانت أشدّ وأعنف من حرب الكلب الأولى، وأكثر اتساعًا بما لا يقاس من حوادث أيام الفِطْر التي لم تكن أكثر من جرائم فردية، تمت السيطرة عليها بيسر، من قِبَل مشروع أسرى الأمل 2، حتى قبل أن تدرك السلطات، المنشغلة بأشباه (حضرته) خطورتها.

سمع راشد التعليقات المستعادة لبعض جنرالات الحرب، الذين لم يُحرزوا أيّ نصر في حياتهم، عن سير المعارك، فبات على يقين من أن السبب الوحيد الذي منع انتقالها إلى الخارج بصورة شاملة هو الأنانية

الإيجابية، لأن من تربطهم صلات بأناس هنا، ممن يقيمون هناك، كانوا قد قطعوا هذه الصلات بأقربائهم ومعارفهم تمامًا بعد حرب الكلب الأولى.

وفكرّ: لو كنت هناك لما فكّرت بخوض أيّ حرب أيضًا، إذ أثبتت الأيام أن لا أحد يستحقّ أن أخوض أيّ معركة من أجله، فكيف حربًا؟ ولكنه حين أنهى عمله، وقاد السيارة بنفسه. شاهد غير بعيد عن الشارع غرابا يحفر الأرض ويطلق نعيقًا مجروحًا أمام غراب نافق، فأوقف السيارة، سحب المسدس وقتله!

أمام محل الكعك توقف ثانية ، مع ما يحمله ذلك من ذكريات سوداء.

لم يكن يريد أن يدخل بيت السائق بيدين فارغتين.

وما إن ترجل من السيارة حتى سقط صاروخ، من تلك الصواريخ الطائشة، على جهة الشارع المقابلة، على بعد خمسين مترًا منه. مرعبًا كان الانفجار. تناثرت واجهات المحلات التجارية وأشلاء أصحابها في الهواء. حاول أحد الجرحى إيقاف سيارة إسعاف، فصدمتْه وواصلت اندفاعها. كانت الصدمة قوية بحيث طار إلى الرصيف المقابل وسقط على بعد ثلاثة أمتار لا غير من راشد.

بصعوبة تذكر راشد سبب وجوده في المكان. ولعل رؤيته لمحل الكعك هي وحدها السبب. لم يكن المحلّ الذي يعرفه، إذ انتشرت أحشاؤه المكوَّنة من خليط عجيب من الزجاج والكعك، غامرة الرصيف أمامه، بلزُوجَة قاتلة.

تراجع، التقط أنفاسه.

مرّت سيارة إسعاف مسرعة أخرى، فتقافز الناس من أمامها مبتعدين، وخلّفت وراءها جرحى يئنون، وأشلاء تائهة.

كانت أعدادِ أسرى الأمل تتضاعف بلا توقف. وسرت شائعات كثيرة، أكثرها بثًّا للرعب: أن القلعة قد قررت وقف الحرب بقتلها لجميع السكان من خلال الرماية العشوائية، وغير العشوائية، أما إجراؤها الثاني فكان وقف عمل جميع صهاريج الأبخرة الطبية عن العمل، في محاولة منها لإجبار الناس على وقف القتال.

اتصل بسلام، فأجابته من داخل الشرنقة التي عادت إليها بمجرد خروجه. أخبرها أنه سيتأخّر قليلا.

***

قاد سيارة الإسعاف متوجّهًا إلى بيت السائق في أكبر مغامرة عاطفية يقوم بها في حياته، لكن أسوأ نتائجها كان أن لا تفتح له الباب. لم يكن يرى، على طول الطريق، سوى رشاشات تتابع حركته، ولم يكن يسمع سوى سعال جهنمي مؤلم يأتي من كل الجهات.

رفع نسبة الأكسجين في غرفة القيادة إلى الحدّ الأعلى.

أوقف السيارة أمام باب بيت السائق، كان قد بدأ يسعل، مع تزايد نوبات السعال التي تهزّ البيوت، سعال أطفال ونساء وشباب وشيوخ ورجال. سعال كالرّعد متواصل. كان خائفًا وهو يتقدّم، مع أنه يعرف أن كل عضو في السائق الشبيه الذي قبِلت به الزوجة كان نسخة عنه. ومع اقترابه أكثر من البيت، أحسّ بالراحة، رغم سعاله، فها هو على وشك العودة، ثانية، ليعيش الزمن الذي قد مضى: زمن هموم الطبقة العاملة، سنوات الدّفاع عن البشر الطيبين الذين يذكّرونه بمعظم أفراد أسرته الذين خسرهم في حرب الكلب الأولى.

حين طرق الباب، خفقَ قلبه بشدّة كما لو أنه ذاهب لموعده الغراميّ الأول، واشتدت نوبة سعاله.

لم تتأخر زوجة السائق التي سمعت سعاله الجريح، ورأت عبر الشاشة (زوجها) عاريًا من متطلبات تنكُّره، فخشيت أن يراها أحد الجيران متلبّسة برجل غيره.

فتحت الباب بسرعة وصرخت في وجهه:

- لماذا أزلتَ وجهك؟هل تريدهم أن يُلقوا عليك القبض أو يقتلوك؟ ثم أين اختفيت كل هذه المدة؟!

لم يكن راشد يسمعها، كان يقف أمامها دهشًا كما لو أنه أمام امرأة من نور، ويسعل.

جرّته للداخل بسرعة، ورفعت مستوى الأوكسجين في الغرفة، وصمتت كي تتيح له فرصةً لالتقاط أنفاسه.

هدأ..

شعرها الأحمر، عنقها الطويل، رقة ذراعيها وأصابعها، شفتاها المكتنزتان المنفرجتان قليلا، لم توقظ في مخيّلته سوى صورة الممثلة إيمانويل بيار التي سحرته في فيلم (**Manon des sources**). لم يكن هناك أيّ فوراق بينهما، حتى أن شعر زوجة السائق كان طويلا ومتماوجًا كأنه حمم البركان المتدفقة في جدائل إيمانويل. كان راشد قد حصل على نسخة من ذلك الفيلم بمساعدة واحد من المتنفِّذين الذين خدمهم، وكان يعمل مديرًا لمشروع إعدام الماضي.

هزّته، فانتبه.

- ماذا؟

- لماذا أزلتَ وجهك؟هل تريدهم أن يلقوا عليك القبض أو يقتلوك؟ ثم أين اختفيتَ كل هذه المدّة؟!

سعل ثلاث مرات، ثم هدأ من جديد.

- سأقول لك كل شيء، لكنّ أهم شيء عليّ أن أقوله، إنني سعيد بما أنت سعيدة به، أعني هذا الوجه.

- لماذا تقول كلامًا كهذا؟

- لأنكِ حريصة على أن يظلَّ سرّنا مكتومًا بيننا. صحيح؟ سألها.

- صحيح، لقد حاولت أن أكون اليوم أجمل، ما إن اتصلوا من المستشفى وأخبروني بعودتك، هل لاحظتَ؟

- لم ألاحظ غير ذلك، ألم ترَي كيف وقفتُ مسحورًا بكِ؟

- لاحظتُ. قالت وهي تبتسم. ثم تحدّثت إليه بصرامة: لكن وقوفك أمامي مسحورًا لن يدفعني لأن أسامحكَ على تخلّيكَ عن حذركَ.

وسعل..

- أريد أن أعترف لكِ، بأنني سأستمرّ بإزالة المساحيق بعد انتهائي من عملي، فهذا هو وجهي الذي أريد أن أستمتع به كما تستمتعين، أما الوجه القديم فهو وجه العمل.

- عليك أن تنتبه.

- حاضر.

صمتت قليلًا، وعادت وقالت مؤنبة:

- ولماذا لم تُجب على مكالماتي؟

- لأنني فقدتُ هاتفي، ولم يكن سهلًا عليَّ الحصول على رقم جديد بسبب معارك الحرب. غدا سأحضر رقمًا آخر. هل نام الأولاد؟

- منذ أن اتّصلتْ السكرتيرة! اكتشفتُ أن شوقي إليك أكثر من شوقهم، فاهمني؟

بحر الهواجس المخيفة

تغيّرت حياة راشد. لم يصدّق أنه وقع في الحب، وفي هذا العمر. لم يصدّق أن حبه لسلام قد تزعزع، حبه الذي جعله يسبق العالم ويُوجِد شبيهةً لها.

أصبح التأخّر عن العمل واجبًا يوميًّا بالنسبة له! وبدأ يفكر في طريقة يتخلّى فيها عن كل شيء للجلوس بجانب زوجة السائق، زوجة السائق التي قالت له: لم تكن بهذه الرّقة في أيّ يوم من الأيام!

***

على الجانب الآخر من حياته الجديدة، اتّصلت سلام بأخيها الضابط وأسرَّت له: أخشى أن راشد الذي يأتي إلى البيت ليس راشد الذي تزوّجتُه!

صُعق الضابط، وقد كان أيّد ذات يوم قيام فارس، في أحد الأفلام القديمة، بقتل فرسه، لأن حصانًا اغتصبها وهو على ظهرها.

سألها عن سرِّ هواجسها هذه، فقالت له: إنه بات يُقبِّل خدود الأولاد الأيامِن بدل الأياسِر.

لم يفهم الضابط كلامها، فقالت له: كما أنه كلّما قال شيئًا سألني: هل فهمتِ عليّ؟! وهو يعرف أنني أكثر مخلوق فهِمَه في حياته.

- وهل تعتقدين أن ذلك يكفي للشكِّ فيه؟

- لأُصارحكَ، لا أعرف، وأحيانا أُبرِّر ما يحدث له لأنه بات، مثلي ومثلكَ ومثل الجميع، مُرتبكًا وغير قادر على أن يفهم ما يدور.

- لكنني أفهم ما يدور، قال الضابط.
- أعرف، ولكنني قلتُ هذا الكلام لأنني مرتبكة أيضًا، ربما مثله، أعني راشد.
- ها أنت تتحدّثين مثله، وتقولين: أعني راشد! وكأنني لم أفهم مَن تعنين بكلامك هذا.
- آسفة، ولكنّ هناك شيئًا آخر يقلقني، وهو اختفاء المسدس.
- وهل كنتِ تعرفين بأمر المسدس.
- أجل، وقد خشيتُ أن يقتل جارنا الرَّاصد الجوِّيّ فخبأته.
- ذلك يعني أنه لم يقتل الرَّاصد الجوِّيّ ؟!
- لا لم يقتله، لقد صفعه ولكَمَه، وطرَحه أرضًا وهشّم وجهه، لكنه لم يقتله، وهو متألم لأنه غير متأكد من أنه قتَله. ولكن ربما يكون الرّاصد الجوي هو الذي قتل راشد!
- هل أنتِ واثقة من كلامك، لقد فتحنا تحقيقًا في المسألة، لأن أُولى شرارات الحرب، التي راح ضحيتها أكثر من ربع مليون مواطن حتى الآن، انطلقتْ من تحت شرفتكم.
- بصراحة، أنا لم أتصل بك إلا لكي أقول لك بأنني لم أعد أعرف.
- ربما يستطيع واحد من الاثنين: راشد أو الرَّاصد الجوِّيّ الإفلات من تهمة القتل، لكن الشائعات التي تدور حول اختفاء السائق لم تنتهِ، رغم أن زوجة السائق التي اتّصلت بنا، عادت واتصلتْ ثانية وأخبرتْنا أن زوجها قد عاد.
- ولماذا يقتلُه راشد؟ أو يفكر في قتْله؟ هل كان شبيهًا له؟
- لا، لم يكن شبيهًا له، الجميع يؤكّدون هذا، ويؤكدون أن راشد كان يحبه، ولا يقبل أن يعيده إلى البيت أيّ سائق سواه، وهذا يعني أنه يثق به.
- ها أنتَ تقولها أيضًا: يعني أنه يثق به! كما لو أنني لم أفهم كلامك.
- أعتذر لكِ، قال الضابط، لكنني في الحقيقة لا أخشى سوى شيء واحد، أن يتلاعب بي راشد الآن كما تلاعب بي في الماضي!

- بعد أن تزوّجني؟! لا، لا يمكن أن يفعل أمرًا كهذا إذا كان راشد.

- على أيّ حال، نحن نقوم الآن بانجاز مشروع سرّي كبير للسيطرة تمامًا على مسألة الشبه والحدّ من تطوّراتها المدمّرة، ولن أخفي عليك أننا استخدمنا راشد، نعم راشد نفسه، في التجربة، وأثبتتْ نجاحها. قال الضابط وقد سرح بفكره بعيدًا.

- لا أظنكَ ستوضِّح لي شيئًا. قالت سلام.

- لا، لن أستطيع، لأن الفكرة لـ (حضرته) شخصيًّا، بعد تلك المصيبة التي كادت تسحقنا جميعًا حين ظهر له شبيه. لحسن الحظّ أنه وحده الذي وجد الحلّ؛ لقد أثبتَ أننا كنّا أقل ذكاء منه بألف مرّة.

- أفهم من كلامك أنكم تخلّصتم من ذلك الشبيه.

- هذا صحيح، ولكن ليس نحن الذين تخلّصنا من الشبيه، لقد تخلّص حضرتُه منه بنفسه.

وصمتَ الضابط قليلا، ثم قال لها:

- كلام كهذا يبقى بيني وبينكِ، ولا أريد أن يعرف به أحد.

فقاطعته: لا تقلْ لي (مفهوم)؟! لأنني فهمتُه، وإذا قلتها فإنني سأشكّ في كونك أخي.

- أنا؟

- أجل أنتَ، فقد وصلني أنك تخرجُ معي رغم ارتفاع نيران الحرب!

- ولكنني لم أخرج معكِ، وأنتِ تعرفين هذا أكثر منّي.

- وهل تعرف السكرتيرة أنكَ تخرج معها أم لا؟! لا تقل شيئًا، لكن الأمر يربكني. صحيح أنني أحبّ أن يكون لها صديق لكي لا يفكِّر فيها راشد أبدًا، إن كان لم يزل هو، ولكنني لا أحب أن يكون صديقها أخي، وأنت تعرف أنني أحبّ زوجتكَ؛ أما ما يقتلني فهو كيف يمكن أن تلمسها وهي على صورتي تمامًا، ألم يخطر ببالك أنها.. أنها أنا؟!

وبدأت تبكي.

لم يعرف الضابط ما الذي يمكن أن يقوله، فأقسم أنه لا يخرج مع السكرتيرة.

- مع مَن إذًا؟ مع النادلة في ذلك السوق التجاري الضّخم التي كانت السبب في إلقاء القبض عليّ؟ لا بدّ أنها هي، فأنت تعرفٍ عنوان عملها، لقد أخبرتكَ به بنفسي، وأظنّك تعرف اسم ومكان كلّ شبيهة لي، أليس كذلك، كم عددهن؟ قل، كم عددهن؟

لا يحبُّ الضابط جلسات التحقيق منذ أن كان في المدرسة، ولذلك، لم يجد وسيلة للخلاص منها أفضل من وسيلة العمل كمحقق. قال بصوت قاطع:

- يكفي. سأتحقّق من كلِّ مخاوفكِ وأخبركِ بالأمر.

***

في اللحظة التي أنهى فيها الضابط المكالمة مع شقيقته ، كان راشد على وشك مغادرة بيت السائق، بعد أن أجرت له الزوجة عملية التخفي المطلوبة.

- عليك أن تُسرع. لقد تأخّرتَ كثيرًا اليوم، لا أريد أن يطردوك فتجلس أمامي مديرًا لا يستطيع العثور على وظيفة سائق! قالت له زوجة السائق.

- تعرفين، أنتِ أذكى امرأة رأيتها في حياتي.

- الغريب أنك حين تقول هذا أحسّ بأنك تهجوني؟

- أنا؟!

- نعم، لأنك تعتبر نفسك بهذا أذكى مني وتستطيع الحكم عليّ، وعلى ذكائي، أليس كذلك؟ قالت زوجة السائق، فأدرك أنها امرأة ليست بسيطة أبدًا، وأن موهبتها الحقيقية تكمن في قدرتها على طرح تلك الأسئلة القادرة على سحق أيّ إجابة.

- أعترف لكِ أنني لم أفكر هكذا، ولذلك اسمحي لي أن أسحب ما قلته، وأعترف أنكِ أذكى منّي.

- ولكنك ما زلت تهجوني!
- وهل عليّ أن أقول كلامًا أجمل من هذا؟!
- أجل، لأنكَ حين تقول هذا تعني أن ذكاءك هو مقياس لذكائي!
- كيف؟ سألها راشد وكان فرحًا بها.
- صحيح أنني أحبكَ وأعتبركَ أذكى سائق في الوجود، ولكن هناك من هو أذكى منك، وأظن أنني أستحق أن يكون ذكائي أفضل من ذكائه لأنه يفوق ذكاءك!

أخذ راشد نفسًا، ثم اقترب منها، واحتضنها:
- سأكون مجنونًا لو تركتكِ وخرجتُ.
- وستكون مجنونًا لو بقيتَ، لأنك لن تستطيع أن تعرف أخبار راشد ذاك، وتفاصيل حياته، فقد تجد نفسك ذات يوم مضطرًّا لأن تكون هو.
- أنا؟ مستحيل!
- لا مستحيل في هذا. صحيح أنني لم أره، ولم أتحدّث معه، ولكنني على يقين من أنه لا يفوقكَ في شيء.
- حاضر، سأذهب، سأتركُكِ مضطرًّا، مع أنني لست أقلّ من مجنون لأفعل ذلك، وقبل أن أخرج أريد أن التقط لك صورة أولا.
- لي؟ كأنكَ تخطط للابتعاد عنّي مكتفيًا بالصورة!
- لن يحدث هذا أبدًا.
- أم أنك تفكّر في....؟

وصمتتْ زوجة السائق.
- أفكّر في ماذا؟ سألها.
- بأن تكون لك نساء أُخريات مثلي!
- سأسحبُ أمنيتي. لا أريد صورةً لكِ.
- هذا أفضل، لأنكَ إن كنت بحاجة للصورة كي تراني، فأنت لا تراني الآن!

نفض راشد رأسه، وقبّلها: ذكية، ذكية فعلًا.

- وبعدين؟

- أعني أذكى منّي.

- وبعدين؟

- سأصمت.

وخرج متخفّيًا وراء ملامح وجه السائق.

اختلاط الأقنعة

لم تتوقف الحرب رغم كل الإجراءات الرّادعة التي اتخذتها القلعة. كان باستطاعة من ينظرون عبر زجاج نوافذ بيوتهم، ومن هم في السيارات، أن يروا الناس يتساقطون موتى بسبب نوبات السعال وهم يتخبطون كالطيور الذبيحة، دون أن يجرؤ أحد على النزول لإنقاذهم، لأن ذلك سيكون سببًا كافيا لكي تستدير الرشاشات نحوهم وتمطرهم برشقات رصاصها.

كان طابور السيارات طويلا أمام باب المدينة في ساعات رفع حظر التجوال القليلة التي وجدت القلعة نفسها مضطرة للسماح بها، كنوع من تذكير الناس بأن أمر استبدال الحرب بالهدوء لم يزل في أيديهم.

وقف رجال الشرطة يتحقّقون من شخصيات السائقين والركاب، فيما أصوات الانفجارات تأتي من بعيد، ووهجها يضيء الأفق ما وراء التلال.

فتحت امرأة نافذة سيارتها وناولت الشرطي بطاقتَها، نظر إليها جيدًا، ثم قال: إذا سمحتِ، ارتدي قناعكِ كي أعرفكِ!

فأخرجت قناعًا ووضعتْه على وجهها فغدتْ صورتها مطابقة لصورتها في رخصة القيادة.

تفضّلي قال لها.

وتقدّمت السيارة التالية، يقودها رجل بشاربين كثيفين، ذو عينين واسعتين كبيرتين، تأمّل الشرطي رخصة القيادة، وطلب منه الطلب نفسه:

- البسْ قناعك كي أعرفك!

امتدّت يد الرجل، وأخرج قناعًا وضعه على وجهه فإذا به شاب رقيق بملامح أنثوية.

راح الوضع يزداد سوءًا، بازدياد أعداد السيارات، فالتقط السائقون نداء قناة اللاسلكي الإجبارية المخصصة للأمن، والتي عليهم إبقاءها مفتوحة: على كلّ مَن في السيارات ارتداء أقنعتهم تسهيلا لإنجاز إجراءات التحقّق من شخصياتكم بسرعة.

بدأوا بارتدائها؛ في وقت فُتِحتْ فيه أبواب بعض السيارات، وتسلّل منها عدد من الرجال والنساء هاربين في اتجاه الأشجار المتيبسة الكثيفة على طرفي الشارع. وقبل أن يتواروا، تتبّعهم الحرّاس بأعينهم القوية، في وقت راحت البنادق الآلية الذكية، المعزّزة بأعين الكاميرات، تُطلق النار نحوهم بدقة متناهية وتُرديهم قتلى، والحراس يراقبون أجساد الفارِّين تتلوّى وتسقط كأنها أمامهم.

منتظرًا دوْره، كان راشد يجلس في سيارته الحمراء ، وقلقًا لأنه سيتأخر عن موعده المحدّد مع المدير العام.

***

التطوّرات المتلاحقة أجبرت راشد على تكريس وقته كلّه للإشراف، عن بعد، على مشروع (أسرى الأمل 2) رغم أن جرائم القتل وسواها، أصبحت شبه نادرة بعد إقرار الإجراء الأمني الجديد، الإجراء الذي وُلِدَ من فكرة لـ (حضرته) -كما قال الضابط لشقيقته- لم يستطع أحد الاعتراض عليها.

كان رجال حضرته يتحقّقون من هويات أشباهه، غير قادرين على حسم الأمر، إلى أن طَلب منهم إجبار الأشباه على إبراز هويّاتهم، وحين لم يستطيعوا إبراز الهويات التي كانت قد صدرتْ قبل انتشار العدوى، أو الظاهرة، تمّ إعدام الأشباه جميعًا، بعد أن افتتح الأمر هو، بنفسه، بإطلاق

عشر رصاصات من مسافة ثلاثة أمتار على شبيهه الأول. أثبتتْ فكرته أنها في مكانها وحقّقت أكثر مما هو متوقّع، فقد تخلّص من أشباهه، ولم يعد هناك من يجرؤ على التشبّه به، فقد أصبح الأصل الأخير، الأول والأخير، بحيث تمَّ محو كل نسخة شبيهة ظهرتْ، أو ستظهر بعده.

بعض الشكوك نبتت في عقول عدد من المحيطين به، بسبب وجود سلوكيات، تكاد تكون خفيّة، بين ما كان عليه حضرته وما أصبح. لكنه فاجأهم حين قال ذات يوم ضاحكًا: أيّ كارثة هذه التي عشناها، يبدو أننا (**يعني نفسه**)، لفرط ما رأينا من أشباه، بتنا نتصرف دون وعي منا، مثلهم، في أشياء كثيرة!

وحين أقـول كراو عليم (أعني نفسه) أرجو ألا تذهبوا كقراء بعيدًا وتعتقدوا أن من يتحدث هو شبيهي استنادا لشكوك السيدة سلام في زوجها، فلحسن الحظ، لا يستطيع أحد أن يقول إنه شاهد راويًا عليمًا في حياته، ليقول إنه شاهد شبيهه، فمن لا صورة له لا شبيه له!

ونعود إلى حضرته:

أكد له كلُّ أولئك القريبين منه أن لا شيء فيه تغيّر.

ولضمان عدم تكرار أخطار مثل التي حدثت، ورغم استمرار الحرب، فُرض على الناس، في ساعات رفع التجوال، أن يُظهِروا بطاقات هوياتهم الصادرة قبل ظهور أول حالة تشابه، وآخر صورة التُقطت لهم، وفي أقل من دقيقتين، كانوا يتسلّمون أقنعة تشبه تلك الصّور، أقنعة يصعب تزويرها، وتمّ إلزام الناس بعدم التحرّك إلّا وهم يرتدونها، وكل من يُضبط بوجهٍ مختلف عن الصورة الموجودة في الهوية التي يحملها، يكون قد أصدر بنفسه، على نفسه، حُكمًا بالسجن المؤبد.

فيما بعد، ظهرت بعض المشاكل الصحية، ومنها التحسّس، فسُمح للناس الذين يعانون منها اصطحاب الأقنعة، مع عدم إلزامهم بارتدائها ما داموا يحملون التصاريح الطبيّة التي تؤكّد عللهم.

أهم ما حدث أن أعدادًا من الهاربين عادوا إلى وجوههم القديمة، بعد وعدٍ من السلطات بالعفو عنهم إذا ما سلّموا أنفسهم في غضون أسبوع.

***

لم يكن صعبًا على راشد أن يحصل على قناع باسم السائق، فقد انتظر في بيت السائق إلى أن وصله الدّور، وكانت كل وثائق السائق بين يديه، إذ كان السائق يحرص، استمرارًا لتقاليد السائقين القديمة، على إبقاء وثائقه الرسمية في داخل السيارة التي يقودها.

***

توقّف راشد في المكان الأنسب، بحيث تكون نافذة السيارة المحاذية له أمام رجل الأمن الذي يتحقّق من صحة الهويّات والأقنعة.

لم يكن مضطرّا لارتداء قناع، لأن شخصيته لم تتغير. تأمّل رجل الأمن صورته في الهوية، ووجّه إضاءة الكشاف الذي يحمله نحو وجه راشد، وقال يمازحه: كأنك نسيتَ أن تضع قناعك.

كانت تلك الطُرْفة هي أوسع بوابات المأساة. إذ اعتقد راشد أنه ناول الشرطي هوية السائق بدل هويته، فاعتذر للشرطي الذي فوجئ بالأمر، وامتدتْ يده بسرعة، فتح جيب السيارة وأخرج قناع السائق وارتداه.

نظر رجل الأمن إلى الصورة، وأطلق صفّارته فتجمّع عدد من رجال الأمن الذين يرتدون أقنعة الأوكسجين في لحظات، رجال يبدو أنهم أُعِدوا ليكونوا على أهبة الاستعداد للتدخّل السريع، وتحركت أعين الكاميرات وفوهات الرشاشات نحوه.

أغلق راشد نافذة السيارة وأبوابها، واتّصل بالمدير العام، في حين كان رجال الأمن يهددونه بإطلاق النار عليه فورًا إن لم يخرج من سيارته.

أنهى مكالمته، أغلق الهاتف، وبعد ثوان قليلة، بدأ رجال الأمن بالابتعاد عن السيارة! وسمع راشد رنين هاتفه، فجاءه الصوت مُطمْئِنًا:

- لا عليك، سلِّم نفسك، وسأتابع الأمر بنفسي، قال له المدير العام.

أشار رجل الأمن له أن يوقف سيارته جانبًا، ففعَلَ.

***

في تلك اللحظات التي كان راشد يعيش فيها أكبر مآزقه، كان الضابط يفتح باب شقته ويدخل، احتضنته امرأته.

- سعيدة أنكَ عدت بهذه السرعة.

فكّر: أي سرعة ما دمت غائبًا منذ يومين عن البيت؟!

طلبت منه أن يغلق عينيه ويسير معها. أطاعها مجبرًا، كما لو أنه يكفِّر عن كل علاقاته بسواها. بعد عشر خطوات طلبت منه أن يفتح عينيه. أشرعهما، فلم يرَ من تلك المائدة العامرة سوى الوردات الحُمْر الثلاث التي تتوسطها. برعب نظر إلى زوجته:

- من أين أتيتِ بهذه الورود؟

- وهل عليَّ أن أبحث عن الزهور ما دمتَ تُحضرها؟!

مثل عمود ملح وقف أمامها، غير قادر على أن يحرّك حتى رموشه. دارت به الدنيا، وفوجئ أنه أوهى بكثير مما كان يتوقّع.

(لا يمكنك أن تعرف مدى قوتك ما دمت لم تعرف، بعدُ، قوة الضربة التي ستتلقاها.) هبَّ صوت راشد من بعيد.

وأطلقت زوجته عصافير فرحها من جديد:

- سأعترف لك، كان لقاؤنا هذا الصباح أجمل لحظة عشتها معك!

ترنّح، وقبل أن يسقط، أو يُجنّ، جاءته تلك المكالمة الطارئة:

- أتركْ كلَّ ما في يدك، واذهب فورا إلى المكان الذي سأحدّده لك.

بذهول، وجد الضابط نفسه يستدير، كما لو أن تلقى أمرًا في ساحة التدريب: إلى الخلف دُر.

سارَ، تاركًا زوجته، وحين وصل الباب، استدار، نظر إليها، وكل ما يتمناه أن تكون امرأة أخرى، شبيهة.

***

في البعيد، في داخل المصيدة التي كانت تتخبط فيها أفكاره، سمع راشد

صوت طلقة، ارتجف جسده. كان على يقين من أنها أُطلقت في منتصف رأسه. تحسّس الجانب الأيسر من جمجمته بذعر، متوقّعًا نافورة دماء. لم تكن.

وكما لو أن صوت الانفجار أوقدّ حواسه الخمس كلّها، تذكّر راشد أن هوية أخرى هناك في جيبه، لم يكن متأكدًا إن كانت هويته فعلا أم هوية السائق، لكن التخلّص منها كان مستحيلًا. لم يجرؤ على دسِّ يده في جيبه، كان ذلك يعني أن يصادروها كوثيقة اتهام.

أطبقت عليه رائحة عفونة لا تحتمل، لا يعرف من أي ثقوب العالم قد طلعت، لكنه كان يفضل الموت على أن يفتح الشباك لالتقاط حفنة هواء لا شيء فيها سوى رائحة نهايته.

بعد عشر دقائق، وصل الضابط كإعصار، ففتح راشد شباك السيارة، وكم سرّه أن خال أبنائه قد حضر بهذه السرعة.

طلب الضابط من الشرطي أن يسلِّمه بطاقة الهوية العائدة لراشد. سلّمه إياها، تأكّد من صحّتها، ونظر إلى وجه راشد الذي كان قد خلع القناع، وسأل الشرطي:

- ما المشكلة؟

- إنه يستخدم قناعًا ليس له.

- أين القناع، صرخ الضابطُ في وجه راشد.

- إنه هنا، وناوله إياه.

- قناعُ مَن هذا؟

- قناع سائقي، لا بدّ أنه نسيه هنا في السيارة.

التفتَ الضابط إلى رجل الأمن، وقال له بملامح جمرة متقدة:

- لقد حُلَّت المشكلة، بل لا مشكلة أصلًا.

- وكيف يمكن أن نتأكّد من أن السائق نسيَ القناع؟

- هذه وظيفتنا، كن مطمئنًا، قال الضابط بحزم، وقد اتقدت الجمرة. أما الآن، فيمكن أن ندعه يمضي، فنحن نعرف كلَّ شيء عنه.

طرق الضّابط باب سيارة راشد بقبضته كأنه يسحقه، وأمره: تحرّك، فأحس راشد بصدره يمتلئ بهواء نقيّ لم يتنفسه منذ زمن الضوء، وانطلق مبتعدًا.

بعد أقلّ من ألف متر، توقّف راشد، وتحدّث مع المدير العام، شكره، وأخبره أنه سيفصِل السائق لأنه يعتبره فأل شؤم عليه. كما أن سائقًا ينسى قناعه، في ظروف دقيقة كهذه، يمكن أن يرتكب أيّ خطأ في الكون.

لم تكن سيارة راشد قد تحرّكت، حين أطبقتْ عليه أربع سيارات شرطة هبطت من السماء.

انتزعوه من سيارته، ودفعوه داخل سيارة وجد فيها نفسه وجها لوجه مع الضابط.

- هل تعتقد بأنك استطعتَ خداعنا؟ كيف لواحد مثلكَ أن يتنكَّر خلف شخصية مدير نعرفه أكثر مما نعرف أنفسنا؟!

- ولكنني راشد.

- متى قتلته؟ وأين أخفيتَ الجثة؟

- إنني راشد.

***

عند منتصف الليل اقتاده رجلان ضخمان عبر ممرٍّ معتم إلى قبو تجمّعت فيه كل روائح الخارج، قبو تتناثر حوله الزنازين التي تنبعث منها كل صيحات الألم التي عرفتها البشرية.

- هل قامت الحرب؟ سأل أحد الأسرى.

- هل انتهت الحرب؟ سأل آخر.

- هل سقط الدكتاتور؟ سأل آخر.

- أغلق فمك أيها الكلب.

***

استطاع راشد أن يرى الوجوه. كانوا من سكان الجحيم فعلًا، ولم يكن

يحتاج لمن يقول له، إنه في مشروع أسرى الأمل 2، قسم أصحاب القضايا المعلّقة، فهو يعرفه.

بعد سبع ساعات من التعذيب، لم يعترف خلالها راشد بشيء غيْرَ اسمه، بدأ الضابط يحسّ بأنه ارتكب ذنْبًا كبيرًا، لأنه يعرف أنْ لا أحد يمكن أن يصمد كل هذا الصمود سوى راشد.

توقّف عن ضربه، وأعطى أمرًا بتنظيفه ومساعدته في ارتداء ملابسه. وبعد ساعتين من تقديم الطعام له، وصلتْ زوجة السائق في سيارة شرطة. كانت ترتعد. أُدخلتْ إلى قاعة لا يوجد فيها سوى راشد، أُخِذ الضابط، الذي يراقب المشهد عبر الواجهة الزجاجية الحاجبة للرؤية، بجمالها. في الوقت الذي اندفعت فيه تعانق راشد، وتصيح وهي تدور حوله: ما الذي فعلتَهُ ليأتوا بكَ إلى هنا؟!

بعد عشر دقائق ظلّت خلالها تبكي، فتح الضابط الباب ودخل:

- هل تعرفين هذا الشخص؟

- إنه زوجي؟

كانت مطمئنة، فقد رأت رجال القلعة بنفسها يأتون إلى بيتها ويمنحونه قناعًا.

- إنه ممن تغيّر شكلُهم.

- هذا صحيح؟

- وهل تغيّر ذلك قبل اختفائه أم بعد اختفائه.

- أي اختفاء تقصد؟

- حين اتّصلتِ بنا وأبلغتِ عن اختفائه وعُدتِ واتصلتِ بنا وقلتِ إنه قد عاد.

- حدث هذا بعد اختفائه.

- وهل أبلغتِ السلطات بذلك.

- لا، فقد قامت الحرب وفُرِضَ حظر التجوال، وبعد أيام كانوا يمنحونه القناع.

- هل تعرفين من هو الأصل؟

- لا، كل ما كان يهمّني أنه عاد سالما؟

- وكيف تفسرين أنه يقود سيارة الأصل، أعني راشد، مع أن عليه أن يقود سيارة إسعاف.

- لا أعرف.

- لقد اتصلنا بهاتف زوجكِ.

- هذا هو زوجي.

- وقد اكتشفنا أن هاتفه كان في مكتبي، الهاتف الذي أخذناه منه.

- الحمد لله، لقد قلتُ لكم إنه زوجي.

- واتّصلنا بهاتف راشد، واكتشفنا أن هاتفه في مكتبي، الهاتف الثاني الذي أخذناه منه.

- لا يعقل هذا، لا شكَّ أن هناك تفسيرًا للأمر.

صرخ راشد:

- هذا هاتفي، هاتفي أنا راشد، وذلك الهاتف نسيه زوجها في السيارة.

التفتَ إليه الضابط وقال: سأمضي معك إلى نهاية الطريق، وهل هذا قناعك أم قناعه؟

- قناعه، وقد نسيه في سيارتي.

- ونسي الهاتف أيضًا!

- نحن نعرف عنوانكِ، قال الضابط لزوجة السائق، سنخبركِ بالنتائج حين تظهر.

- ولكن لماذا تصرُّ على أنكَ راشد؟ سألته الزوجة.

- لأنه لا يريد أن يعترف بأنه قتل راشد! علّق الضابط.

فصمتت الزوجة وأحسّت بغباء لم يسبق لها أن ابتُليت به.

خرجتْ.

فالتفتَ الضابط إلى راشد وقال:

- أيّ غبيٍّ هذا الذي يترك امرأة مثل هذه وحيدة ويخرج للعمل؟!

- إنني راشد! صرخ.

- أمنيتي أن تكون راشد وأن أستطيع تصديقكَ، لكن المشكلة كبيرة، فأسوأ ما يمكن أن يحدث، أن يكون السائق قد قتلكَ، واحتلّ مكانك بما يعنيه ذلك لي كشقيق لسلام وخال لأبنائها. أظنكَ لو كنت مكاني لفعلتَ الشيء نفسه، ولكن دعني أسألكَ: لو كنتَ مكاني، أما كنت ستفعل الشيء ذاته؟

لم يُجب راشد.

- ثم إن زوجة السائق، أعني زوجتكَ، قد عرفتكَ، والأفضل أن أُصدِّقها على أن أصدِّق أنكّ تخون سلام معها! أليس كذلك؟

ولم يجب راشد.

وجاء صوت زوجة الضابط من بعيد:

- وهل عليَّ أن أبحث عن الزهور ما دمتَ تُحضرها؟! فاتقدت أكثر من جمرة في جمجمته.

التفتَ الضابط إلى رجُلَي الأمن وقال:

- أعيداه إلى حيث كان.

في الممرّ الطويل المحاط بالزنازين تصاعدت الصرخات.

- هل قامت الحرب؟ سأل أحد الأسرى.

- هل انتهت الحرب؟ سأل آخر.

- هل سقط الدكتاتور؟ سأل آخر.

- أغلق فمكَ أيها الكلب.

***

ثانية وجد راشد نفسه معلّقا في السقف، ومن قلب الظلمة الشاحبة تقدّم الضابط ببطء نحوه. صفّق، فتقدم رجلا الأمن يحملان أدوات تعذيب مختلفة.

- أظن أن عليّ التأكُّد أكثر من أنني لم أفقد مهاراتي القديمة!

.. وبدأت حفلة التعذيب التي امتدّت لساعات. ومع كلّ ضربة كان الضابط يهمس لنفسه: إنه راشد، لا أحد يمكن أن يصمد مثله! ثم يعود ويهمس لنفسه: ليس هو، وسينهار بعض ضربتين!

ثم يضربه. يحمرّ وجه الضابط أكثر، يهمس لنفسه: إنه راشد، لا أحد يمكن أن يصمد مثله! ثم يعود ويهمس لنفسه: ليس هو، وسينهار بعد ضربتين.

ويضربه، تنتفخ أوردته: إنه راشد وعليه أن يعترف.

ويضربه، ينفجر قلبه..

- إنه...

ويضـ.. ر..

يسقط ميتًا..

حرب الكلب الثالثة!

وهبّت الريح جارفة رفات بشر لم يستطيعوا بلوغ عتبات مقابرهم!

ثلاثة قرود!

كانت الريح تهبّ، جارفة معها رمادَ الليل من مدن أخرى ومعارك قديمة ورفات بشر لم يستطيعوا بلوغ عتبات مقابرهم؛ وفوق أشجار صحراوية عارية ثمة طيور تغني أغنية واحدة، طيور يمكن لأصحاب الذاكرة الحديدية فقط ملاحظة أن الغراب الذي يرونه نصفه نورس، والشحرور نصفه حسّون، وأن منقار البوم وعنقه، هما منقار وعنق نسر في الحقيقة!

قرب باب خيمته كان الرّجل ذو القميص الأحمر واقفًا، كما يفعل كل يوم، محدّقا في الجهات المقفلة، محاولا بصعوبة مراقبة الدّاخلين والخارجين، حين ظهرت ناقة في الأفق الأعمى، دون أن يظهر بوضوح من فوقها.

زمن طويل مرّ، قبل أن تصل إلى طرف الحيّ، لكن الأمر ظلّ غامضًا، وملامح من فوقها أشدّ غموضًا من ملامح الريح.

وصلت الناقة، أناخها راكبها في الساحة التي تتوسّط الخيام، أبعد الغطاء الأسود عن رأسه، دون أن يكفّ عن النظر إلى كل ما حوله بحذر، فظهر قناع وجهه الحقيقي!

- إنه الرّاصد الجويّ، صاح ذو القميص الأحمر.

بثقة مبالغ فيها، أنزل الرّاصد الجويّ قفصًا كبيرًا مصنوعًا من أعواد القصب، في داخله قردان، فأدرك ذو القميص الأحمر في الحال أنهما ذكر وأنثى؛ استدار برعب نحو خيمته، وهو يصفع نفسه بقوة لأنه رآهما بكل

ذلك الوضوح، وبجنون أغلق بابها الواهن الذي يعصف به سواد جارح كالإبر.

.. وأمام بيوت الشَّعْر الأخرى انتشرت الفوضى.

تدافع الناس هاربين، راكضين نحو أبواب خيامهم؛ في وقت راحت فيه النسوة يجمعن أولادهن برعب ويقُدنهم أمامهنّ بالعصي المحمومة كالخراف..

من أمام خيمته السوداء التي أحاطت بها الأطلال من ثلاث جهات كسواتر حرب، كان راشد يراقب ما يدور، مرتديًا عمامته الضخمة وثوبه الأسود الذي يصل إلى منتصف ساقيه. دعَكَ لحيته الكثيفة الطويلة التي تخفي ملامحه وصاح بصوت رجّ المكان:

- ثكلتكَ أمُّك يا ابن الغَبراء، ما الذي أعادكَ إلينا؟!

بدأت!

مراحل الحرب

إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبوين فلسطينيين أُقتلعا من أرضهما في عام 1948

*** صـــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):**

الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989 .حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993. الأعمال الشعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994 .شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والابن، 1999. مـرايا الملائكـة، 2001. حجرة الناي، 2007. لو أنني كنت مايسترو، 2009 .أحوال الجنرال، مختارات، 2011. عودة الياسمين إلى أهله سالما، مختارات، .2011 على خيط نور.. هنا بين ليلين 2012

*** الروايـــات: (الطبعات الأولى):**

براري الحُمّى، 1985 . الأمواج البرية، 1988 .عَـــوْ، 1990 . 1992. حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلســطينية (الطبعات الأولى): (كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى)

طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع. 2002، أعراس آمنة. تحت شمس الضحى، 2004. زمن الخيول البيضاء، 2007- اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009. قناديل ملك الجليل، 2012. أرواح كليمنجارو، 2015. مجرد 2 فقط، 1992.

الشـــرفات: (الطبعات الأولى): (كل رواية مستقلة عن الأخرى)

شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010، شرفة الهاوية 2013. شرفة الفردوس 2015، حرب الكلب الثانية 2016

*** كـــتب أُخرى (الطبعات الأولى):**

هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000

ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002

السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006
صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008

* ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، ونشرت قصائد له بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...

* أقام أربعة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون)
* معرض مشترك لثلاثة كتّاب
(فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله)- عمان، 1993 .
* عضو لجنة تحكيم في عدد من الجوائز الأدبية والمهرجانات السينمائية.

* نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:
. جائزة القدس للثقافة والإبداع (الدّوْرة الأولى) 2012.
. جائزة سلطان العويس للشعر العربي، 1998.
. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.
. جائزة عرار للشعر، 1991.

IBRAHIM NASRALLAH
DOG WAR II
Novel

حرب الكلب الثانية

تدور أحداث هذه الرواية، بخيالها الطليق، وواقعيتها المجنونة في عالم المستقبل، وبقدر ما تتأمل حالًا عربيًا، بقدر ما تتأمل أحوال البشر في كل مكان، في زمن لم يعد فيه الإنسان قادرًا على التمييز ما إذا كان الإنسان الذي يقف مقابله هو شبيهه أم قاتله!

رواية جديدة يفاجئ فيها إبراهيم نصر الله قارئاته وقراءه، بتجددٍ مستمر، وقدرةٍ على استحضار المستقبل من قلب الظلام، من خلال شخصيات تتحرك في طبيعة منتهكة، ونور أقل، وهواء قليل يبدو فيه التقاط الأنفاس مهمة مستحيلة!

وإذا كان نصر الله قد كرس رواياته الخمس السابقة التي ضمها مشروعه الروائي (الشرفات)، لقراءة واقع السلطة ومعناها، بتمثّلاتها المختلفة، فإنه يقدم في هذه الرواية خلاصة الماضي كما يراه متمثلا في المستقبل، لتبدو الروايات الخمس، وإن كانت منفصلة عن هذا العمل بأحداثها وشخصياتها، هي المقدمات الأوسع لحرب الكلب هذه.

تأمل عميق لنزوع التوحش في القلب البشري ضد كل ما يحيط به، واستبطان بصير لقدرة البشر على إبادة بعضهم بعضا بسبب اختلافهم، وإبادة بعضهم بعضا بسبب تشابههم، عبر كوميديا سوداء حارقة، ورصد فنتازيّ لعالم بلا أبواب نجاة.

رواية إنسانية رحبة، عن أزمنة ضيقة، وعن تاريخ العنف، لا تحذرنا من المستقبل فقط، بقدر ما تحذرنا من الماضي وأحداثه، الماضي الذي هو حاضرنا وغدنا!

وتبقى الصرخة العالية التي تتردّد بعد انتهائنا من قراءة هذا العمل المختلف: على أحدهم أن يقول لنا بوضوح ما الذي يريده الإنسان؟!

الناشر